

# فن التشبيه

بلاغية . أدب . نقد

المجلد الثاني

تأليف

عبد الحليم عبد الحليم

كلية دار العلوم . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٩٥٢



مكتبة الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

شارع كامل باشا صدق « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

« الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ،  
قرآن کریم



# الفصل الأول

## التشابه

المتبادر من صيغة التشبيه ، أنها تفيد إلحاق الناقص بالزائد في وجه الشبه حقيقة أو ادعاء ، ولهذا يقول المعري :

ظلمناك في تشبيه صدغيك بالمسك وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى  
وصحَّ أن نسمع قول علي بن عبد الرحمن المنجم :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولي بالنكر  
وسفّحت رأى وقالت متى سمجت حتى صرت كالبدر  
البدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يبسم عن نحر  
ولا يميّط المرط عن ناهد ولا يشدّ العقد في نحر<sup>(١)</sup>  
من قاس بالبدر صفاتي فلا زال أسيراً في يدي هجرى

ولكن قد يحدث أن الشاعر مثلاً لا يريد إلحاق الناقص بالزائد في وجه الشبه ، بل يريد مجرد الجمع بين شيئين في أمر من الأمور ، والقصد من ذلك الأمر إلى القدر الذي اشترك فيه واستويا في نصيبهما منه ، دون نظر إلى زيادة أحدهما على الآخر ، وإن كانت الزيادة موجودة بالفعل ، لاقتضاء المقام المبالغة في ادعاء التساوى .

أو لأن الغرض إفادة أصل الاشتراك فيلغى الزائد — إن كان — فيتحقق التساوى في المراد بين الطرفين .

---

(١) المرط بالكسر : كساء من صوف أو خز تتلفع به المرأة .



وللوصول إلى هذه الحال يحسن ترك التشبيه ، لأن صيغته تقتضى ترجيح أحد المتساويين على الآخر - وهو غير مراد هنا - ويُعدل عنه إلى التشابه ، وما وازن هذه الصيغة من التماثل والتساوى والتضارع ، إلى غير ذلك من الأفعال اللازمة ، لأن المتعدية مثل شابه تفيد إلحاق الناقص بالكامل ، دون صيغة التفاعل ، الذى يقتضى حصول مدلوله من الجانبين فيكون كل من الأمرين مشبهاً ومشبهاً به من غير تفضيل لأحدهما على الآخر احتراز من ترجيح أحد المتساويين فى وجه الشبه ، لأنه غير مختص بأحد الطرفين بزيادة اختصاص .

وقد مثل الخطيب<sup>(١)</sup> لذلك بقول الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومُدَامَتى      فمن مثل ما فى الكأس عينيَ تشرب  
فوالله ما أدرى أبا الخمر أسبَلت      جفونى أم من عبرت كنت أشرب<sup>(٢)</sup>  
فإنه لما اعتقد التساوى بين الدمع والخمر ، ولم يقصد أن أحدهما زائد فى الحمرة والآخر ناقص ملحق به ، حكم بالتشابه وترك التشبيه .

وقول مروان بن أبى حفصة فى معنى بن زائدة :

تشابه يوماه علينا فأشكلا      فما نحن ندرى أى يوميه أفضل  
أيوم نداه الخمر أم يوم بأسه      وما منهما إلا أغر محجَّل  
وقول الصاحب بن عباد :

رقّ الزجاج وراقت الخمر      فتشابهها فتشاكل الأمر  
فكأنما خمر ولا قدح      وكأنما قدح ولا خمر

ومن طريف التشابه قول ابن مطروح :

كيف السبيل إلى وصال محجَّب      تحمى ملاحته ظباً وصعاد

(١) الإيضاح - ١٧٤ (٢) أسبَلت : أمطرت .

(٣) الصعاد : القنوات المستوية جمع صعدة بالفتح .



حرسوا مهفف قدّه بمثقف فتشابه الميأس والمياد  
وقول عبد الرحمن بن عبد الرازق الأندلسي :

كأن ماء الحسن في وجهه مدامة شعشعها المازج  
عنوان ما في ثوبه وجهه تشابه الداخل والخارج  
فلا تقيسوه بيدر الدجي ذا مُعَلِّم الوجه وذا ساذج  
وقول شرف الدين بن الحلاوى :

وبدت نظائر ثغره في قرطه فتشابهها متخالفين فاشكلا  
فرأيت تحت البدر سالفة الطلا ورأيت فوق الدر مسكرة الطلا  
شبه عنقه تحت وجهه بعنق الظبي الوليد تحت البدر ، وشبه ريقه فوق  
ثناياه بالخرقة .

وقول شوقي :

فيارب وجه كصافي النّير تشابه حامله والنّير  
ويجوز مع ذلك التشابه ، قصد التشبيه أيضا ، لأنهما وإن تساويا في وجه  
الشبه بحسب قصد المتكلم ، فإنه لا يمتنع أن يجعل أحدهما مشبها والآخر  
مشبهاً به ، لإمكان ترجيح أحد المتساويين باعتبار ، كقول ابن المعتز :  
وكان الشمس المنيرة دينا ر جلته حدائد الضراب

فإن بين الشمس والدينار المجلو تفاوت هائل في النور والجرم ، ولكن  
هذا التفاوت غير منظور إليه ألبتة ، وإنما أريد استدارة متلألئ متضمن  
لخصوص في اللون .

ولا شك أنهما تساويا في هذا المعنى .



وكذلك قوله :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم

شبه الصبح في الظلام بعلم أبيض على ديباج أسود ، فوق التشبيه حسنا مقبولا ، وإن كان التفاوت في المقدار بين الصبح والطراز في الامتداد والانبساط شديداً .

وقد اجتمع في المثالين السابقين :

« تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى ..... »

« ورق الزجاج وراقت الخمر ..... »

صيغة التشابه والتشبيه معا .

أما التشابه فقد مر بيانه .

وأما التشبيه ففي قوله :

« فمن مثل ما في الكأس عينيَ تشرب ، »

وقوله :

« فكأنما خمر ولا قدح ، »

وذهب ابن السبكي مذهبا خالف فيه الخطيب ، فقرر : أن التشابه قسمان :

١ — تشابه يقصد به التساوى حقيقة أو ادعاء ، كما في قوله :

« تشابه دمعى ..... »

٢ — تشابه يراد منه مجرد الجمع ، كما في قوله :

« وكأن الشمس المنيرة ..... »

والأحسن في الأول التشابه ، واستعمال التشبيه فيه خلاف الأصل .

ويجوز في الثانى التشابه والتشبيه .



أما التشابه فلإرادة مجرد الجمع ، وأما التشبيه فلرعاية كون الوجه المشبه به أتم باعتبار الخارج .

ثم يقول : هذا هو التحقيق وإن كان فيه مخالفة لظاهر كلام المصنف وغيره<sup>(١)</sup> .

ويرى المرشدى : أن أسلوب التشابه ، دون قلب التشبيه فى المبالغة وفوق التشبيه المتعارف ، لأن فى المتعارف اعترافاً بالنقصان ولا كذلك فى التشابه .

ويرى كذلك أنه ينبغى أن يشترط فى التشابه عدم شهرة أحد الطرفين عن الآخر<sup>(٢)</sup> .

ومن بديع التشابه الذى جاء بعضه مطوياً قول صاحب :

متغايرات قد جُمعن وكلها	متشاكل أشباحها أرواح
وإذا أردت مصرّحاً تفسيرها	فالراح والمصباح والتفاح
لم يعلم الساقى وقد جُمعن لى	من أى هذى تُملا الأقداح

وقول طاهر العتّابى :

ويا ليلة قد بت أهزم بردها	بجيشين من خمر عتيق ومن جمر
فطوراً أظن الخمر من ذوب جمرها	وطوراً أظن الجمر من جمّد الخمر

وقول بن سناء الملك :

فتحيرت أحسب الثغر عقداً	لسليمى وأحسب العقد ثغراً
فلثمت الجميع قطعاً نشكى	وكذا فعل كل من يتحرّى

وقول آخر :

قلت لخلي	وثغور الربّا	مبتسمات	وثغور	الملاح
----------	--------------	---------	-------	--------

---

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٤١٢ - ٤١٦ (٢) شرح المرشدى - ٢ - ٢٣ .

أيهما أحلى - ترى - منظرأ فقال لا أعلم كل أقاح

ومن الروائع قول ابن خفاجة الأندلسي :

تعلّقته نشوان من خمر ريقه	له رشفها دوني ولي دونه السكر
ترقرق ماءً مقلّتاى ووجهه	ويذكو على قلبي ووجنته الجمر
أرقّ نسيبي فيه رقة حسنه	فلم أدر أيّ قبلها منهما السحر
وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما	له منطقي ثغري ولي ثغره شعر





## الفصل الثاني

### تشبيه التمثيل

تشبيه التمثيل : هو ما كان وجهه منتزعا من متعدد : أمرين أو أكثر ؛ بأن يكون لكل من الطرفين كيفية حاصلة من مجموع شيئين أو أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى صارت شيئا واحدا ، فيعتمد الشاعر إلى أجزاء الطرف المشبه فيشبهها مع الهيئة الحاصلة من تركيبها بالطرف الآخر كذلك .  
والتسمية اصطلاحية .

والمهم فيه تركيب الوجه سواء أكان طرفاه مفردين أم مركبين أم مختلفين .

والفرق بينه وبين التشبيه الصريح : أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة ، إلا أنه يراها تارة في المرأة وتارة على ظاهر الأمر .

وأما في التشبيه الصريح فإنك ترى صورتين على الحقيقة ؛ يبين ذلك أننا لو فرضنا أن تزول من أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيدا من حيث العزة والسلطان ، قريبا من حيث الجود والإحسان ، حتى يخطر ببالك وتطمح بفكرك إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك وقرب نوره منك ، وليس ذلك في الشيتين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ، فإنك لا تفتقر إلى معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه ، إلى تشبيهه « بمداهن در حشوهن عقيق » .



كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قليل المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ، ويحتلبها ولكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا (١) .

### مزايا العلماء فيه .

والعلماء فيه مذاهب أربعة :

١ - مذهب الجمهور - ومن بينهم الخطيب - ولا يشترطون فيه غير تركيب الوجه سواء أكان التركيب حسيا أم معنويا ، وهو المذهب المشهور .  
٢ - مذهب الزمخشري ، وهو أنه مرادف للتمثيل فكل تشبيه عنده تمثيل حتى لو كان وجه الشبه مفردا .

وقد قدمنا في تعريف التشبيه أن هذا هو رأى ابن الأثير أخذا من التعريف اللغوي .

٣ - مذهب عبد القاهر ، ويشترط فيه بعد التركيب ألا يكون حسيا ، بأن يكون عقليا أو اعتباريا محضاً لا وجود له إلا في الأذهان والأوهام .  
وسمة وجه الشبه التمثيل عنده : أنه ما لا يحصل فيه الشبه إلا بضرب من التأول ، كتشبيه الحجة بالشمس في الظهور ، فهذا الشبه لا يتم إلا بتأول ، وهو أن الشمس يحول دون رؤية العين لها حجاب ، ومثل الحجاب : الشبهة فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم ، قيل : هذا ظاهر كالشمس : أي ليس هنا مانع من العلم به ، وأن المنكر له إما مدخول في عقله ، أو جاحد مباهاة ومصرف في العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر .



فقد احتجت في تحصيل الشبه الذي أثبتته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول (١).

وعلى هذا فكل ما لا يحتاج إلى تأول لا يعد تمثيلا عند عبد القاهر بل تشبيها ولو كان منتزعا من عدة أمور كالمركبات الحسية ، مثل قول ابن المعتز :  
 كأن عيون النرجس الغض حولنا      مداهن در حشوهن عقيق  
 وقوله :

وأرى الثريا في السماء كأنها      قدم تبدت من ثياب حداد  
 إلى غير ذلك من المركبات الحسية .

٤ - مذهب السكاكي ، وقد اشترط فيه ألا يكون حسيا ولا عقليا بل وصفا غير حقيقي : أي غير متحقق حسا ولا عقلا ، بأن يكون اعتباريا وهميا (٢) .

ونص عبارته : واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقي وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيل (٣) .  
 وقد مثل السكاكي للوصف غير الحقيقي المنتزع من متعدد بعدة أمثال .  
 منها قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسو      د فإن صبرك قاتله  
 كالنار تأكل بعضها      إن لم تجد ما تأكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته - مع رغبته الجامحة في ذلك ليشفي غليله - بالنار التي تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم .  
 وقول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته في الصبا      كالعود يُسقى الماء في غرسه  
 حتى تراه مورقا ناضرا      بعد الذي أبصرت من يبسه

(٢) حاشية الدسوقي - ٣ - ٤٣٣ .

(١) أسرار البلاغة - ٦٧ - ٦٨ .

(٣) مفتاح العلوم - ١٨٦ .



فإن تشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقى أوان الغرس المونق بأوراقه ونضرتة ، ليس إلا فيما يلزم كونه مهذب الأخلاق مرضى السيرة حميد الفعال ، بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكمال استحسان حاله ، وأنه — كما ترى — أمر تصورى لا صفة حقيقية ، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور .

ومما مثل به من القرآن الكريم قوله — تعالى — : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، .

فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم فى الآية ، هو رفع الطمع إلى تسنى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمى — كما ترى — منتزع من أمور جمّة .

وقوله — عز وجل — : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ،

فإن وجه التشبيه بين أحبار اليهود الذين كلفوا العمل بما فى التوراة ثم لم يعملوا بذلك وبين الحمار الحامل للأسفار ، هو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شئ بالانتفاع به مع السكد والتعب فى استصحابه ، وليس بمشبه كونه عائداً إلى التوهم ومركباً من عدة معان .

ويقول السكاكى : والذى نحن بصدده من الوصف غير الحقيقى أحوج منظور فيه إلى التأمل الصادق من ذى بصيرة نافذة وروية ثاقبة لالتباسه فى كثير من المواضع بالعقل الحقيقى لاسيما المعانى التى ينتزع منها<sup>(١)</sup> .

ويرى الخطيب<sup>(٢)</sup> : أن التشبيه فى هذه الأمثال وقع فى أمر حقيقى



لا وهمي ، وأن السكاكي لم يتقيد بما اشترطه في تركيب الوجه ، ومثل بصور  
مثل بها غيره من خالفوه في مذهبه .

وقد انبرى المغربي للتوفيق بين ما رآه السكاكي وبين ما مثل به ، فقسم  
الوصف إلى ثلاثة أقسام :

١ - حسي خارجي .

٢ - عقلي وجودي

وكلاهما حقيقيان .

٣ - اعتباري محض لا وجود له إلا في الأذهان والأوهام .

ولما كانت الهيئة المركبة من حيث أنها هيئة : اعتبارية محضة ، وجب أن  
تراد بكونها حسية هنا تعلقها بالمحسوس كما هي في بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويراد بالوهمي هنا : ما تعلق بمعقول مطلقاً لا ما تعلق بالاعتبارات المحضة  
لعدم انطباق ما مثل به السكاكي على الوهمي .

وعلى هذا يفسر الحقيقي بالحسي هنا ، وقد تقدم التمثيل للعقلي بهذا الوجه  
وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع<sup>(١)</sup> .

والخلاصة . أنهم تأولوا الوصف غير الحقيقي عند السكاكي : بأنه ما  
لا يكون حسياً فيدخل فيه على هذا ، المركب العقلي ، وبذلك يرتفع التناقض  
بين ما اشترطه وبين ما أورده من الأمثلة التي تعد عقلية .

الوجه المركب :

وينقسم الوجه المركب إلى ثلاثة أقسام :

١ - ما لا يظهر فيه لكل جزء من الأجزاء المتضامة نظير يصح تشبيهه  
به في المقابل إلا بتكلف وتعسف ، لأنه لم يقصد فيه تشبيه المفرد أصلاً

---

(١) مواهب الفتاح - ٣ - ٤٣٤ .



ولا تبعاً ، إما لعدم حسنه أو لعدم تعلق القصد به بحسب المقام ، بل المراد المجموع وهيئته من غير ظهور المقابلة من الأجزاء ، وذلك كقوله - تعالى -  
« مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . . . الآية .

فإن المراد : تشبيه قصة المنافقين بقصة من استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، في وجود ما يكون نافعاً في الحين ، ويطمع في حصول المراد بمباشرة ، ثم يعقبه الانقطاع الموجب للهلاك والإياس من كل نفع ، ولم يقصد فيه مفرد يقابله مفرد من تلك الجهة الأخرى .

فإن أريد أن يتكلف في ذلك جعل المنافق كالمستوقد ناراً وإظهاره للإيمان الذي انتفع به في الدنيا كوجود ضوء النار المنتفع به حينئذ ، وجعل انقطاع انتفاع المنافق بالإيمان الذي أظهره بسبب الموت مع عقوبة الهلاك في النار والحجاب ، كأنطفاء النار للمستوقد ووقوعه في ظلمة لا يبصر فيها ، فلا بأس ولكن كل ذلك من التعسف .

والنهج القويم : تشبيه الهيئة بالهيئة والقصة بالقصة كما دل عليه ذلك هنا وأوجبه صريح المثل .

٢ - ما تظهر فيه المقابلة من كل طرف لكن عند التجريد لا يصح التشبيه لعدم صحة المعنى ، كقول القاضى التنوخى :

كأنما المريخ والمشتري قدامه في شأخ الرفع  
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعه  
فإن تشبيه المريخ وهو الكوكب المعلوم بالرجل المنصرف عن الدعوة إلى الطعام في مأدبة مثلاً ، لا معنى له منفرداً وهو خلف من القول .  
فالشبه ليس للمريخ من حيث هو ، ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشتري أمامه فلا يمكن إفراد أحد جزئيه بالذكر ، وأنت وإن كنت تقول . المشتري شمعة على التشبيه العامى الساذج في قولهم : كأن النجوم



مصاييح وشموع ، فإنه لم يوضع التشبيه على هذا ، وإنما قصد الهيئة التي يكتسبها المريخ من كون المشتري أمامه .

٣ - ما يصح تشبيه كل مقابل بأخيه حتى يكون من تشبيه المتعدد ، ولكن يمنع منه وجود الحسن في التركيب الذي لا يوجد في المتعدد كقول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام السماء لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق  
فإن مقابل النجوم من الطرف الآخر هو الدرر ، ومقابل السماء المفهومة من ذكر النجوم ، البساط الأزرق وذلك ظاهر ، ويصح التشبيه في كل منهما على انفراد بأن يقال : النجوم كالدرر ، والسماء كبساط أزرق ، ولكن يفوت الحسن الذي اقتضاه التركيب ، فإن إلحاق هيئة ظهور النجوم على السماء الزرقاء بهيئة الدرر على البساط الأزرق أحسن وأرق ذوقاً من إلحاق النجوم المجردة بالدرر والسماء بالبساط على انفراد ، فإن الغرض ذكر الأمر العجيب من طلوع النجوم مؤتلفة متفرقة في أديم السماء وهي زرقاء صافية والنجوم تتلألأ في أثناء تلك الزرقة ، ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه ، وأزلت عنه الجمع والتركيب .

ومتى أمكن حمل التشبيه على المركب فلا يعدل عنه إلى المفرد ، حتى لا تفوت معه دقة التركيب المرعية في وجه الشبه .

ويجب أن يكون مفهوماً أن التشبيه المقصود عند البديعيين هنا ، هو التشبيه المركب لأنه عزيز الوقوع ، وأما تعدد التشبيه من غير تركيب فهو أمر سهل ، وقد بلغ فيه الشعراء إلى تشبيه عشرة بعشرة .<sup>(١)</sup>  
وقد يقع حيناً أن وجه الشبه لا يكون إلا عقلياً ، كقول الرسول

(١) إقامة الحجّة على النقي بن حجة - ٩٦

(م ٢ - ج ٢ - فن التشبيه)



- صلى الله عليه وسلم - : « مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح ،

فالشبه لا يكون هنا إلا عقلياً ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح .

ومن وصف الجاحظ لبني هاشم : وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا <sup>(١)</sup> .  
والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوساً .

وكلما كان التشبيه أو غل في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر .  
ألا ترى إلى قوله - عز وجل - « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ،

كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت .  
وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض - حتى كأنها جملة واحدة - فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة .

ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفته منها جملة واحدة من أى موضع كان ، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه .

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض ، والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل



تفسق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا ، فإن ما كان من هذا الجنس لم ترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما (١) .

فقد شبه في الآية حال الدنيا العجيبة الشأن ، وهي تقضيها بسرعة وانقراض نعيمها جميعا بغتة بعد ظهور قوتها واعتزاز الناس بها واعتمادهم عليها ، بزوال خضرة النبات فجأة وذها به حطاما لم يبق له أثر أصلا ، بعد ما كان غضا طريا قد التف بعضه على بعض ، وزين الأرض بأنواره وطرأوته ، وتقويه بعد ضعفه بحيث طمع الناس فيه وظنوا سلامته من الجوائح .  
ووجه الشبه هيئة منتزعة من تلك الأمور ، وهي حصول شيء تترتب عليه المنافع فيحصل السرور به وتنسى عاقبة أمره ، ثم يذهب ذلك الأمر مسرعا (٢) .

ويجب الاحتراس في انتزاع وجه الشبه المركب وبخاصة إذا كان عقليا ، لافتقاره إلى فضل نظر ودقة تأمل ، فقد يظن أن المقصود انتزاعه من بعض أمور متعددة ، على حين أنه لا يتحقق إلا بانتزاعه من جميعها ؛ لأن لكل جزء قيمته في تأليف المعنى السكلى والصورة الجمالية .  
وذلك كقول الشاعر (٣) :

كما أبرقت قوماعطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت  
فقد يهجم في الخاطر أن الشطر الأول منه تشبيه مستقل بنفسه عن الشطر الثاني ، وأن المقصود به ظهور أمر مطمع لمن هو في شدة الحاجة إليه ، وعلى هذا يكون وجه الشبه غير مركب .  
ولا شك أن ذلك خطأ محض ؛ لأن الشاعر لم يرد هذا وإنما أراد

(١) أسرار البلاغة - ٨٢ (٢) حاشية الدسوقي - ٣ - ٤٥٦

(٣) قال العباسي : إن قائله غير معروف . معاهد التنصيص - ١ - ١٥١



تشبيه الحالة المذكورة في الآيات المتقدمة على هذا البيت بظهور غمامة لقوم عطاش ثم تفرقها وانكشافها .

والمغزى : إثبات ابتداء مطمع متصل بانتهاه مؤيس .

فالبيت مثل في تصوير الشيء يعنّ للمضطر إليه المتلهف عليه فيقوى أمله في تحصيله ، ولكن لا يلبث أن يطير عنه مخلفاً له لدعة الحسرة ومرارة الحمية .  
فانتزاع الشبه من المصراع الأول وحده خطأ لعدم وفائه بالمعنى المراد لأنه مطمع فحسب .

ومثله قول كثير عزة :

وإني وتهايمى بعزة بعدما تخلّيتُ مما بيننا وتخلّت  
لكا لمرتبجى ظلّ الغمامة كلها تبوأ منها للمقيل استقلت

فإنه ليس الغرض تشبيه حاله بحال من يرجو ظل الغمامة فقط ، بل بمن تظله الغمامة ويطمئن إلى استدامة ظلها فتتشجع عنه ويزايله الظل .

وقد عبر عنه الحسن بن وهب فيما كتبه إلى بعض أصدقائه — وقد اصطبغ في يوم دجن لم يمطر — : أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في في يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير :

ثم ساق البيتين المتقدمين .

وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى فقال بشار :

لمروان مواعد كاذبات كما برق الغمام وما استهلاً

وقوله :

أطلت علينا منك يوماً سحابة أضامت لنا برقاً وأبطأ رشاشها  
فلا غيمها يجلى فييأس طامع ولا غيمها يأتي فيروى عطاشها



ومن اللطائف قول ابن الطراوة النحوى - وقد خرجوا ليستسقوا  
على أثر قحط فى يوم غابت سماءه فزال ذلك عند خروجهم - :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت	بحرية قمن بها السح <sup>(١)</sup>
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم	وبدا لأعينهم بها نضح
كُشف الغمام إجابة لهم	فكأنهم خرجوا ليستصحوا
والأصل فى ذلك قول الأحوص :	
وكنت وما أملت منك كبارق	لوى قطره من بعدما كان غيماً



## الفصل الثالث

### فضل التمثيل وتأثيره

ليس هذا التأثير الذي ينفج به التمثيل والذي يعمل عمل السحر في كيائنا فيهره من الأعماق ، قد جاء اعتباطا أو هو مما يقع فلتات ، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية فإذا استأذن عليها فتحت له أبوابها على مصاريحها ، وتلقته بالقبول والبشاشة والارتياح ، كما تتلقى شيئاً ساراً مبهجاً يلذها موقعه ويخف عليها محمله .

ذلك أن النفوس تنفر بطبعها من الغموض وتفر من اللبس ، وتتململ من مواقف الحيرة والشك والبلبة ، وتبادر إلى المروق من الظلمة إلى النور ومن الشبهة إلى اليقين أنى وجدت السبيل إلى ذلك .

وهذا التمثيل من شأنه أن ييسر لها هذه البغية المحببة ، فيخرجها من الحفام إلى الجلام ، ومن الغبش إلى الوضح ، ومن متاهات العقول التي يكدنفها الضباب ويلفها القتام إلى ما تدركه بالضرورة ، وتلمسه في مغارس الطباع ، وتجتليه في معارض الحواس الظاهرة ، فيكون علمها به أتم وأوسع وأعمق ومعرفتها أكمل وأشمل وأدق وأشد وأحكم ، وكيف وقد نقلها من شيء لُقنته تلقينا بلا درس ولا فحص ، إلى شيء أحاطت به خبرا ، وقتلته علما ومارسته تجربة ، وزاولته عملا .

ومرد ذلك إلى أن النفس في الأصل كانت صفحة بيضاء خالية من المعارف .



ثم إن المعارف الأولى استفادتها مما تسرب إليها من الحواس ، أو استوحيتها من الطباع قبل استخدام الفكر وإعمال العقل .

فإذا عرضنا عليها هذه المعاني العقلية في صورة ما يدرك بالحس ويفهم بالطبع ، لم نفاجئها بشيء غريب تزهد فيه وتنبو عنه ، وتقابله بالإشفاق والحذر والخوف والتوجس ، بل نكون قد عرضنا عليها شيئاً يمت لها بألفة قديمة ومودة سابقة لاتنكر قرابته ، فتش له وتبش به ، وتفتح له أحضانها كما يلتقى قريبان حبيبان بعد طول الفراق .

هذا إلى أن التشبيه عامة يذبل موقعه وتسمو قيمته ، ويجل تأثيره ، ويشير الطرب والإعجاب في النفوس ، ويحرك منها كوامن الاستحسان والاستطراف بقدر تصويره الشئنين البعيدين قريبين ، والمختلفين المتباينين مؤتلفين ، لأن ما يخرج من غير معدنه ، وينبت في غير أرضه ، ويتفرع من غير جنسه يبعث البهجة ويستفز العاطفة ، ويوقظ الانفعال .

والتمثيل في ذلك أمضى أداة وأسرع فهاذا لحسن تأتيه ولطف سحره ودقة مسلكه في التقريب بين النائيين ، والتأليف بين المتقابلين ، وبث الوحدة في الصور المتفرقة ، وصب المعاني المتعقلة والمتخيلة والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية والأشباح النابضة المتحركة .

والذي يجب أن يعرف أن هذه الصور اليبانية على اختلاف أنواعها ليست لغوا من الكلام ولا نافلة في القول ، ولكنها كما يقول « مارزى » : وحتى العلماء الذين أوجدوا النحو المنطقي لم يلبثوا أن يقساملوا : هل يمكن أن تعدّ الصور الخيالية : أى ما يسمى بالاستعارات والمجازات زخرفات وتزيينات أو عناصر مضافة إلى الصور المنطقية العارية ، ثم لم يلبثوا



أن أدركوا أنها ليست بالزخرفات ، وإنما هي صور تلقائية من صور التعبير <sup>(١)</sup> .

فن الأول — وهو التأليف بين المتنافرين — قول ابن حمديس في النيلوفر:

أشرب على بركة نيلوفر      محمّرة النّوار خضراء  
كأنما أزهارها أخرجت      ألسنة النار من الماء

وقول ابن الرومي — حين أحس بالسم الذي دس له يدب في أعضائه —

أشرب الماء إذا ما التهبت      نار أحشائي لإطفاء اللهب  
فأراه زائدا في حرقى      فكأن الماء للنار حطب  
وقول أبي المطرف بن فتوح :

وقف العذار بخده فحسبته      ليلا توقف وسط ضوء نهار  
وتوردت وجناته فحسبتها      نارا تلظى فوق ماء جار

وقول الآخر :

كالغيث منسكبا على إخوانه      والنار ملتها على أعدائه

وقول الآخر :

أنا نار في مرتقى نظر الحما      سد ماء جار على الإخوان  
ومن الطريف <sup>(٢)</sup> : أنه دخل الحمام يوما الأديان أبو جعفر التطيلي  
وأبو بكر بن بقي فقال أبو جعفر :

يا حسنَ حمّامنا وبهجتَه      مرأى من السحر كله حسن  
ماء ونار حواهما كنف      كالقلب فيه السرور والحزن

(١) المجمل في فلسفة الفن لكروتشة — ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الذخيرة — ١ — ٢٥٨ .



وقال أبو بكر :

حامنا فيه فصل القبط محتدم وفيه للبرد سر غير ذي ضرر  
ضدان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطر  
ومن الثاني — وهو تجسيم المعاني وتشخيصها — قول ابن المعتز :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل البغى تبرجت لزناة  
جاءتك زائرة كعام أول وتلبست وتعطرت بنبات  
وإذا تعرّى الصبح من كافوره نطقت صنوف طيورها بلغات  
والورد يضحك من نواظر ررجس قذيت وآذن حيها بممات

والضحك في الورد وكل ريحان ونور يتفتح ، مشهور معروف ، وقد  
قاله في هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز ، فهو يشمت بالرجس  
لأنقضاء مدته وإدبار دولته ، وبدواً أمارات الفناء فيه .  
فهذا شأن الورد الذي عابه ابن الرومي في قوله :

فصل القضية أن هذا قائد زهر الرياض وأن هذا طارد  
وقد جعله ابن المعتز لهذا الطرد ضاحكاً ضحك من استولى وظفر ،  
وابتز غيره ولاية الزمان <sup>(١)</sup> .

وقول الأمير مروان بن عبد الرحمن الأموي — وكان في بني أمية كابن  
المعتز في بني العباس — <sup>(٢)</sup> :

ودعت من أهوى أصيلا ليتنى ذقت الحمام ولا أذوق نواه  
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والورق تندب شجوها بهواه

(١) أسرار البلاغة — ٢٣٩

(٢) نفع الطيب — ٢ — ٢٣٣



وعلى الأصائل رقة من بعده      فكأنها تلقى الذى ألقاه .  
 وغدا النسيم مُبلّغا ما بيننا      فلذاك رق هوى وطاب شذاه  
 ما الروض قد مزجت به أندأؤه      سحرا بأطيب من شذا ذكراه  
 والزهر مبسمه ونكهته الصبا      والورد أخضله الندى وحواه  
 فكذلك أولع بالرياض لأنها      أبدا تذكرنى بمن أهواه  
 وقول كشاجم :

وكأن ورد الباقلاء دراهم      قد ضُمخَتْ أوساطها بالعنبر  
 وكأنه من فوق متن غصونه      يرنو بمقلة أقبل أو أحور<sup>(١)</sup>

### المعاني والتمثيل .

تجىء المعاني تارة فى نسق التمثيل مفرغة فى قالبه ، وهو قليل فى كلام البلغاء  
 كثير فى القرآن الكريم .

فمن ذلك قوله تعالى - : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ... »  
 « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ... »  
 « مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ... »  
 وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - « الناس كأسنان المشط وإنما  
 يتفاضلون بالعافية »

الناس كعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام  
 إذا فقهوا ،

---

(١) القبل بفتح نين : إقبال إحدى حدقتي العين على الأخرى ، وقيل : هو كالحول .



« المؤمن هين لين كالجمل الأنف<sup>(١)</sup> إن انقيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة  
استناخ ،

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ،  
« أمتي كالطر لا يدري أوله خير أم آخره ،  
« عمالك كأعمالكم وكأتكئونون يولي عليكم ،  
« المرأة كالضلع العوجاء إن قومتها كسرتها وإن داريتها استمتعت بها ،  
« المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبي زور ،  
لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافا  
وتروح بظانا ،

« مثل المؤمن كالسنبلة تميل أحيانا وتعتمد أحيانا ،  
مثل المجلس الصالح كالعطار إن لم تُصب من عطره أصبت من ريحه ،  
ومثل المجلس السوء كالكير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدخانه ،  
ومن الشعر قول شوقي :

مثل القوم نسوا تاريخهم      كلقيط عى في الناس انتسابا  
أو كمغلوب على ذاكرة      يشتكى من صلة الماضي انقضا  
وقوله :

مثل الحياة تُحب في عهد الصبا      مثل الرياض تحب في آزار  
وتارة يحى التمثيل رادفا للمعاني متأثرا لها لتجلية مغزاها وكشف سرها ،  
وتقريرها في النفوس ، وتفخيمها في الصدور .

(١) الأنف ككتف : الذي يشتكى أنه :



فمن ذلك قوله — تعالى — : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء  
متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ، .

ولا خلاف أن التمثيل بشطريه يبعث في الكلام روحا جديدة ، ويبدئ  
فيه الحياة والخصب والقوة ، ويكسوه رونق الشباب ووشى الإعجاب ، فيكون  
له في المسامع حلاوة وعلى القلوب نداوة .

### مواقع التمثيل .

والتمثيل ينتظم شتى المعاني ، ويلبس مختلف الصور الأدبية .  
فمن ذلك الوصف كقول الميكالي :

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا      تحت هلال لونه يحكى اللهب  
ككرة من فضة مجلوة      وافى عليها صولجان من ذهب

وقول شاعر :

وسحاب يجر في الأفق دلي      مطرف زره على الأرض زرا  
برقه لمحمة ولكن له رعد م      بطيء يكسو المسامع وقرا  
كخلى منافق للذى يهوا      ه يبكى جهرا ويضحك سرا

وقول آخر في الحمام :

ألا رب حمام بدا لي حيمه      فظاهره ماء وباطنه نار  
كإخوان هذا العصر من تلق منهم      فللود إعلان وللحقد إسرار

وقول أبي فراس :

وقور وريعان الصبا يستفزها      فتأرن أحيانا كما يأرن المهر



والغزل وما يتصل به ، كقول ابن الرومي :

يا رب حُسَّانةٍ منهن قد فعلت      سوءا وقد تفعل الأسواء حُسَّان  
تُصمى المحب وتُلقَى الدهرَ شاكِيةً      كالقوس تُصمى الرمايا وهي مرنان

وقول العباس بن الأحنف :

فيا ويح من كلفت نفسه      بمن لا يطيق إليه السبيلا  
هي الشمس مسكنها في السماء      فعز الفؤاد عزاء جميلا  
فلن تستطيع إليها الصعود      ولن تستطيع إليك النزولا

وقول المتنبي :

متى تزر قوم من تهوى زيارتها      لا يتحفوك بغير البيض والأسل  
والهجر أقتل لي مما أراقبه      أنا الغريق فما خوفي من البلل

وقوله :

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها      وعز ذلك مطلوبها إذا طلبا  
كأنها الشمس يعني كف قابضه      شعاعها ويراه الطرف مقتربا

وقول راشد بن راشد :

وإني وإن أعرضت عنك لمنطو      على حرق بين الجوانح والصدر  
إذا هاج شوقي مثلك لي المني      فألقاك ما بيني وبينك في السر  
تصبرت مغلوبا وإني لموجع      كما صبر الظمآن في البلد القفر

وقول ابن عبد ربه :

فكيف ولي قلب إذا هبت الصبا      أهاب بشوق في الضلوع دفين  
ويحتاج منه كلما كان كامنا      دعاء حمام لم تبت بوكون  
وإن ارتياحي من بكاء حمامة      كذى شجن داويته بشجون



والمدح كقول ابن الرومي :

له سورة مكتنة في مكتنة كما كتبت في الغمد الجراز المهند<sup>(١)</sup>

وقول البحري :

متهلل طلق إذا وعد الغنى  
كالمزن إن سطعت لوامع برقه  
بالبشر أتبع بشره بالنائل  
أجلت لنا عن ديمة أو وابل

وقول علي بن جبلة :

إذا ما تردى لأمة الحرب أرعدت  
وأسفر تحت النقع حتى كأنه  
حشا الأرض واستدمى الرماح الشوارع  
صباح مشى في ظلمة الليل طالع

وقول آخر :

سُررت بجعفر والقرب منه  
كمطور ببلدته فأضحى  
كما سُرَّ المسافر بالإياب  
غنيا عن مظالعة السحاب

وهو مأخوذ من قول بعضهم :

فكنت فيهم كمطور ببلدته  
فسرَّ أن جمع الأوطان والمطرا

وقول المتنبي في كافور :

إن في ثوبك الذي المجد فيه  
لضياء يزرى بكل ضياء  
إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس م  
خير من ابيضاض القباء

---

(١) الجراز بالضم : السيف القاطع .



والهجماء كقول أبي تمام :

كم نعمة لله كانت عنده      فكأنها في غربة وإسار  
كسيت سبائب لومه فتضاءلت      كتضاؤل الحسناء في الأطمار  
وقول ابن الرومي :

رأيتكم تستعدون السلاح ولا      تحمون في الرّوع من أعدائكم سلباً  
كالنخل يُشرع شوكا لا يذود به      أيدي الجناة ولا يحميهم الرطبا  
وقول الناجم :

ينتقص الأحرار من شأنهم      وهو أخو القلة والنقص  
كأنه البرغوث لم يخطه      في صغر الجثمان والقرص  
والرثاء كقول أبي تمام :

فإن ترم عن عمر ، تداني به المدى      نخانك حتى لم يجد فيه منزعا  
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة      فقطعها ثم انتنى فقطعها  
وقول ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط :

وإني وإن متعت باني بعده      لذاكره ما حنت النيب في نجد  
وأولادنا مثل الجوارح أيها      فقدناه كان الفاجع البين الفقد  
وقول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

فتى عيش في معروفه بعد موته      كما كان بعد السيل مجراه مرتعا  
وقوله في رثاء خالته :

أراني وأمي بعد فقدان أختها      وإن كنت في رفه بها وصلاح  
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحها      فباتت إلى خفق بغير جناح<sup>(١)</sup>

(١) الدو بالتشديد : القلاة الواسعة .



وقول مسلم :

وإني وإسماعيل يوم وفاته لكالغمد يوم الروح فارقه النصل  
فإن أغش قوما بعده أو أزورهم لكالوحش يدنها من الأنس المحل<sup>(١)</sup>  
والفخر كقول عبد المطلب بن هاشم :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ولو تسلت أسلناها على الأسل  
لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل  
والحث على الجد والكمال كقول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس نقصا كنقص القادرين على التمام  
والاستعطاف كقول عمر بن أبي ربيعة :

ان تبذلي لي نائلا أشقى به سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي  
وعصيت فيك أقاربي فتقطعت بيني وبينهم مورا الأسباب  
فتركتي لا بالوصال ممسكا منهم ولا أسعفتني بثواب  
فقعدت كالمهريق فضلة مائه في حر هاجرة للبع سراب  
وقول المتنبي لكافور :

وما كنت لولا أنت الامهاجرا له كل يوم بلدة وصحاب  
ولكنك الدنيا إلى حبيبة فما عنك لي إلا إليك ذهاب  
والتحسر والتوجع كقول عميرة بن جعيل التغلبي :

ندمت على شتم العشيرة بعدما مضت واستقبت للرواة مذاهبه  
فأصبحت لا أسطيع دفعا لما مضى كما لا يرد الدر في الضرع خالبه  
وقول العباس بن الأحنف .

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى

(١) الأنس بفتح تين : الحي المقيمون .



نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا      وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانٍ  
كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيِّ      فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ  
وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَمَنَّيْتُ يَلْدَ الْمُسْتَهَامِ بِذِكْرِهِ      وَإِنْ كَانَ لَا يَغْنَى فَيَتِيلاً وَلَا يَجْدِي  
وَعَظِظَ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَا      وَلَكِنَّهُ غَيِظَ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدْرِ  
وَقَوْلُ الدَّكْتُورِ زَكِيِّ مَبَارَكٍ :

وَأَصْبَحْتُ وَالرَّأْسَ مَرَعَى الْمَشِيبِ      قَلِيلُ السَّرُورِ كَثِيرُ الْحَزَنِ  
لَعَمْرِي لَنْ تُشَبَّهَ قَبْلَ الْأَوَانِ      لَقَدْ شَابَ حَظِي وَشَابَ الزَّمَنُ  
كَأَنَّ الشُّعُورَ عَرَاهَا الْبَيَاضُ      سَهَامُ الرَّدَى وَخِيوطُ الْكُفَنِ  
وَإِنَّ الشَّبَابَ إِذَا مَا انْقَضَى      لَكَالْحَلْمِ أَقْلَعَ عَنْهُ الْوَسَنُ  
وَالْعَتَابُ كَقَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ :

طَلَبْتُ إِلَيْكُمْ بِالْعَتَابِ زِيَارَةَ      وَعَظُفًا فَأَعْتَبْتُمْ يَا حُدَى الْبَوَائِقِ  
فَكُنْتُ كَمُسْتَسْقٍ سَمَاءَ مُخَيَّلَةٍ      حَيًّا فَأَصَابَتْهُ يَا حُدَى الصُّوَاعِقِ  
وَالشُّكْوَى كَقَوْلِ ابْنِ الْحِجَّاجِ :

لِي صَاحِبُ عَمِيَّتٍ عَلَى شَتُونِهِ      حَرَكَاتُهُ بِمَجْهُولَةٍ وَسُكُونِهِ  
مَا زِلْتُ أَحْفَظُهُ عَلَى شَرَقِي بِهِ      كَالشَّيْبِ تَكَرَّهُهُ وَأَنْتَ تَصُونُهُ  
وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدُونَ :

بَنِي جَهْورٍ أَحْرَقْتُمُو بِجَفَائِكُمْ      جَنَانِي فَمَا بَالُ الْمَدَاحِ تَعْبَقِ  
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ إِنَّمَا      تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسَهُ حِينَ يُحْرِقُ  
وَقَوْلُ ابْنِ رَشِيقٍ :

أَرَاكَ أَتَمْتَ أَخَاكَ الثَّقَةَ      وَعِنْدَكَ مَقْتٌ وَعِنْدِي مَقَهُ  
وَأَتْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ سَوَّيْتَنِي      كَمَا طَيَّبَ الْعُودُ مِنْ أَحْرَقِهِ



وهما من قول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت  
ما كان يعرف طيب عرف العود  
وقول آخر :

أصبحت تخرجني بغير جريمة  
كدم الفِصاد يراق أرذل موضع  
والعزاء والتسلية كقول أبي تمام :  
فلا يحسب الأعداء عزلك مغنا  
وما كنت إلا السيف جرد في الوغى  
وقول المتنبي :

عزائك سيف الدولة المقتدى به  
فإنك نصل والشدائد للنصل  
وقول أبي هفان :

يعيرني عربي رجال سفاهة  
بأنى مثل السيف أحسن ما يرى  
وقول الناجم :

ما خمدت ناري ولكنتي  
قد حدثت في دهرنا أنفس  
كما تعاف الطيب المشتبه  
والاحتجاج كقول أبي مروان بن شماخ :

نوائب غالتني فأبدت فضائلي  
فكانت وكنت النار والعنبر الورد  
وقول الخليل بن أحمد :

والمال يغشى أناسا لا أخلاق لهم

كالسيل يغشى أصول الدّندن البالي<sup>(١)</sup>

(١) الدّندن بالكسر : ما أسود من نبات أو شجر .



وقول التهامي :

لو لم يكن اقحوانا ثغر مبسِمها  
وقول ابن الرومي :

دهر علا قدر الوضيع به  
كالبحر يرُسب فيه لؤلؤه

وقول المتنبي :

لأن حليمك حلم لا تكلفه  
ليس التكحل في العينين كالكحل

وقول بعضهم :

تري الثياب من البكتان يلمحها  
فكيف تنكر أن تبلى معا جرهما

وقول آخر :

لئن بسط الزمان يدي لثيم  
فقد تعلو على الرأس الذنان

وقول آخر :

إن مسّت النار جسمي

أبدت طيب النفسيم

كالدهر إن عضّ يوما

أبان فضل الكريم

وقول آخر :

إنما يعشق المنايا من الأقوام م  
وكذاك الرماح أول ما يكسر م

وقول آخر :

وعامل بالفجور يأمر بالبر م

أو كطبيب قد شفه سقم

يا واعظ الناس غير متعظ

وهو يداوى من ذلك السقم

ثوبك طهر أولا فلا تلم

وقول ابن المعتز :

دعني إلى عهد الصبا ربه الخدر  
وألقت قناع الخز عن واضح الثغر



وقالت وماء العين يخلط كلها  
 لمن تطلب الدنيا إذا كنت قابضا  
 بصفرة ماء الزعفران إلى النحر  
 أراك جعلت الشيب للهجر علة  
 عنانك عن ذات الوشاحين والشذر  
 كأن هلال الشهر ليس من الشهر  
 والاعتذار كقول الفرزدق:

فإن يك سيف خان أو قدر نبا  
 فسيف بنى عبس وقد ضربوا به  
 لإبعاد يوم حتفه غير شاهد  
 كذاك سيوف الهند تنبوظياتها  
 نبا يبدى ورقاء عن رأس خالد  
 وتقطع أحيانا مناط القلائد  
 والحكم والعظات والنصائح — وهو أوسع الأبواب وأليقها بالتمثيل —  
 كقول ابن الرومي:

لا تلح من يبكي شيبته  
 لسنا نراها حق رؤيتها  
 إلا إذا لم يبكها بدم  
 كالشمس لا تبدو فضيلتها  
 إلا أوان الشيب والهرم  
 حتى تغشى الأرض بالظلم  
 وقوله:

لا تكثرن ملامة العشاق  
 إن البلاء بطاق غير مضاعف  
 فكفاهم بالوجد والإشفاق  
 لا تطفئن جوى بلوم إنه  
 فإذا تضاعف كان غير مطاق  
 كالريح تغرى النار بالإحراق  
 وقول المتنبي:

إن السيوف مع الذين قلوبهم  
 تلقى الحسام على جراءة حده  
 كقلوبهن إذا التقى الجمعان  
 مثل الجبان بكف كل جبان  
 وقوله:

لا تشكون إلى خلق فتشمتهم  
 شكوى الجريح إلى العقبان والرخم



وقوله :

فلا تغرك السنة موال      تقلهن أفتدة أعادى  
وكن كالموت لا يرثى لباك      بكى منه ويروى وهو صادى  
وقوله :

يموت راعى الضأن فى جهله      ميتة جالينوس فى طبه  
وغاة المفرط فى سله      كغاية المفرط فى حربه  
وأنشد أبو أحمد العسكري عن ابن دريد :

وبعض الأمر أصلحه ببعض      فإن الغث يحمله السمين  
ترى بين الرجال العين فضلاً      وفيما أضروا الفضل المبين  
كلون الماء مشتبهها وليست      تخبر عن مذاقته العيون  
وقول ابن النبيه :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتماً      وأنت ناه لهذا الدهر أمره  
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله      لكنه ربما مجت أواخره  
وقول شوقي :

المستبد يطاق فى ناووسه      لا تحت تاجيه وفوق وئابه<sup>(١)</sup>  
والفرد يؤمن شره فى قبره      كالسيف نام الشر تحت قرابه  
وقوله :

فيا للغروب بهيج الأسى      وكان الشروق لنا أى عيد  
كذا المرم ساعة ميلاده      وساعة يدعو الحمام العنيد  
وقوله فى انتحار الشباب :

فيم تجنون على آبائكم      ألم الشكل شديداً فى الكبر  
وتعقون بلاداً لم تزل      بين إشفاق عليكم وحذر  
فصاب الملك فى شبانه      كمصاب الأرض فى الزرع النضر

(١) الناووس : القبر ، والوثاب بالكسر : سرير الملك .



## الفصل الرابع

### التشبيه الحسى

التشبيه الحسى : ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة كما مر فى كثير من الأمثال . ويدخل فى الحسى عندهم الخيالى ، وهو المركب المعدوم الذى تخيل تركيبه من أمور كل واحد منها موجود فى الخارج فيدرك بالحس كقول ابن وكيع يصف الخشخاش :

وَحْشَخَاشَ كَأَنَا مِنْهُ نَفَرِي      قِمِصَ زَبْرَجْدٍ عَنْ جِسْمِ دُرٍّ  
كَأَقْدَاحٍ مِنَ الْبُلُورِ صِينَتْ      بِأَغْشِيَةٍ مِنَ الدِّيَابِاجِ خُضِرَ  
وقول آخر فى وصف بطيخة :

وَمَالَ إِلَى بَطِيخَةٍ ثُمَّ شَقَّهَا      وَفَرَّقَهَا مَا بَيْنَ كُلِّ صَدِيقٍ  
صَفَاحُ بُلُورٍ بَدَتْ فِي زَبْرَجْدٍ      مَرَصَعَةٌ فِيهَا فُصُوصُ عَقِيقٍ  
فقميص الزبرجد الذى يغطى جسما من الدر ، وقداح البلور المغطاة بالديباج الأخضر فى قول الأول .

وصفاح البلور المرصعة فيها فصوص العقيق فى وعاء من الزبرجد فى قول الثانى ، من الصور التركيبية المعدومة فى الخارج ، ولكن العناصر التى ركبت منها موجودة ندركها بالحس الظاهر .

ويقابل الحسى : العقلى ، والمراد به : المعانى السكلية التى تدرك بالعقل من غير استناد إلى حاسة أصلا ، كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت . ويدخل فى العقلى الوهمى ، وهو ما لا يمكن إدراك أجزائه بالحواس الظاهرة لعدم وجودها ، لكنها بحيث لو وجدت لم تدرك إلا بها .



والفرق بين الوهمي والخيالي : أن الوهمي لا وجود لهيئته ولا لجميع مادته ، والخيالي جميع مادته موجودة دون هيئته <sup>(١)</sup> .

طرفا التشبيه الحسي .

طرفا التشبيه الحسي : هما الحسيان ، أما التشبيه نفسه فلا يمكن أن يكون حسيا ، لأنه تصديق على الصحيح خلافا لمن قال : إنه إنشاء ، والتصديقيات ليس شيء منها يحس ، فالحس إنما يدرك المفردات <sup>(٢)</sup> .

ومذهب الحكماء : أن المدرك بالحواس الخمسة إنما هي الأعراض وخواص الأجرام لا ذوات الأجرام ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت ، والشم يدرك الرائحة ، والذوق يدرك الطعم ، واللسان يدرك الحرارة واللين مثلا .

ومذهب المتكلمين : أن الحواس تدرك الأجرام وخواصها ، فالجرم المدرك طعمه بالذوق مثلا ، أدركت جرميته وخاصتها بالذوق ، وكذا يقال في الباقي <sup>(٣)</sup> .

وعلى هذا إذا أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلا بل معناها العقلي ، كان ذلك المدرك حينئذ عقليا لا حسيا .

وإن أطلقت على ذات تريد عرضها المدرك بالحاسة كالخد والورد عد حسيا توسعا ، لأن المدرك في الحقيقة هو اللون على مذهب الحكماء المتقدم ، فكونهما حسيين فباعتبار ما جرى عليه اللسان .

وفي ذلك يقول ابن رشيقي : وقوع التشبيه إنما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ، لأن الجواهر في الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت <sup>(٤)</sup> .

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣١٨

(٢) عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٦ (٣) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٠٨

(٤) الممدة - ١ - ١٩٤



ويقول ابن الأثير في كنز البلاغة : قولنا : زيد أسد : تشبيهه معنى بمعنى لأن المقصود الشجاعة .

وعلى مذهب المتكلمين هما حسيان قطعاً ، لأن الأجرام عندهم تدرك بالحاسة كما بينا .

وإذا قلت : لون زيد كلون عمرو كانا حسيين عند الحكماء والمتكلمين .  
ويقول عبد القاهر في قول الشاعر :

عسل الأخلاق ما يأسرته فإذا عاسرته ذقت السلع<sup>(١)</sup>  
التشبيه عقلي إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى : أنك تجد منه في حال الرضا والموافقة ما يملؤك سروراً وبهجة حسبما يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك في حال السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كرباً ، ويجعلك في حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى<sup>(٢)</sup> .  
والصحيح : أنك لا تجد تشبيهاً فيه الطرفان حسيان إلا قليلاً<sup>(٣)</sup> .

والتشبيه المحسوس طرفين ووجهها ، أسهل أنواع التشبيه من حيث التكوين والإدراك ، لأن الإحساس أيسر العمليات العقلية .  
وأشد أنواع التشبيه حاجة إلى التفكير وإعمال الذهن ، ما كان كل من طرفيه ووجه الشبه فيه صورة مركبة من عناصر متعددة ، ولا يفهمه إلا من سما إدراكهم وقوى تفكيرهم<sup>(٤)</sup> .

### أثر الحواس في التشبيه .

وقد فطن العلماء من قديم إلى أن الحواس منافذ للعقل ؛ تمدّه بالمعارف

---

(١) السمع بالتحريك : شجرمر ، ويقال : إنه ضرب من الصبر .

(٢) أسرار البلاغة - ٤٩ . (٣) عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٧

(٤) علم النفس الأدبي - ٤١ - ٤٢



المختلفة ، ويشرف منها على دنيا الناس يلتقط منها ما شاء ، وفي ذلك جاء قولهم : من فقد حسا فقد فقد علما .

ووجدنا الجاحظ يقول في رسالة التبصير بالتجارة . . . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس : جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنا رائقا ، وبالخيشوم أن يكون طيبا أريجاً ، وبالمذاق أن يكون حلوا عذبا ، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون ليناً ناعماً .

ويذكر أن العجم كانت تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان <sup>(١)</sup> .

ونحن في صغرنا إنما نشعر بما نحسه لا غير ، دون أن نقدر على تأويل المحسوسات وتفسيرها ، فإذا ما وصلنا إلى درجة الإدراك الحسى انتقلنا إلى مرحلة قريبة منها ؛ وهي مرحلة الذكر التى تتمكن فيها أن نعيد إلى دائرة شعورنا ما أدركناه بحواسنا من قبل ، ثم ننتقل إلى مرحلة تليها مباشرة وهي مرحلة الخيال .

وتدخل هذه المراحل فى منطقة المحسّات إما مباشرة وإما بالوساطة ، وفى نهاية هذه المراحل ننتقل إلى دائرة المعقولات حيث تظهر أمارات الحكم والتعليل والاستنباط إلى غير ذلك من الأعمال العقلية الكثيرة <sup>(٢)</sup> . وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملائكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسوسات ، ويحتفظ بها ويذكرها عند الحاجة ، فما أوسع الجمجمة على صغرها ، لأن العقل جمع فيها شوارد المسائل حتى يصح أن يقال : إن الإنسان عايش بعقله فى جو روحانى فسيح الأرجاء . وإذا كان هذا مثار دهشة فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألقا من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف <sup>(٣)</sup> .

(١) أمراء البيان - ٢ - ٣٨٧

(٢) علم النفس وآثاره للأساتذتين الجارم بك ومصطفى أمين بك - ٥٥ - ٥٦

(٣) الفرائز للغمراوي بك - ٨٧ .



وقد جمع يعقوب الكندي كل خصائص الحواس في قوله :  
 وفي خمسة منى حلت منك خمسة فريقتك منها في في طيب الرشف  
 ووجهك في عيني ولمسك في يدي ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي  
 وفي ثلاثة منها — وهي العين والأذن والذوق — يقول ابن الرومي :  
 ولقد يؤلفنا اللقاء بليلة جعلت لنا حتى الصباح نظاما  
 تجزى العيون جزاءهن عن البكا وعن السهاد ولا نصيب أثاما  
 فنيجهن مرادهن يردنه فيما ادعين ملاحه ووساما  
 ونكافي الآذان وهي حقيقة إذ لا تزال تكابد اللواما  
 فشبهن من الحديث مثوبة تشفى الغليل وتكشف الأسقاما  
 ونكافي الأفواه عن كتمانها إذ لا يزال لها الصمات لجاما  
 فنيجهن ملائما ومراشفا ما ضرها ألا تكون مداما  
 تجزى الثلاثة أنصباء ثلاثة مقسومة آناؤها أقساما  
 فبمئة البصر .

ولاشك أن للبصر من بين الحواس أثرا متميزا في صوغ التشبيه ونقشه  
 بمختلف الألوان والأصباغ .

ومن هنا تعجب الناس من قدرة بشار أن يقول — وهو أعمى — :  
 كأن مشار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه  
 لأن الأصل في مثل هذا التشبيه الغريب أن يعتمد فيه على الباصرة .  
 ولا شك أن هذه المعارف المنظورة هي التي مهدت لابن المعتز أن يبرع  
 في التشبيهات المحسوسة ، حتى ليعترف شاعر عظيم كابن الرومي بعجزه عن



مجاراته في مثل هذه الصور الخلابة التي تأخذ مادتها من قصور الخلافة ومواطن النعيم ، ولهذا أيضاً يقول ابن المعتز في عتبة :

لعتبة صفحتا قمر يفوق سناهما القمر  
يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً

فهو يصرح : بأن إعمال النظر في هذا الوجه الحسن يوّلد حسناً متجدداً لا حد له .

ونحن نجد فرقا شاسعا بين الوصف المبني على المشاهدة والوصف المبني على السماع ، فالشعراء الذين عاشوا في جو الربيع الحقيقي وشاهدوا آثاره في المروج والرياض ، يبدعون في وصفه كشعراء الشام وفارس وغيرهم ، بخلاف شعراء مصر الذين لا يحسون فيه غير تقلب الجو والغبار الثائر ، فإن وصفهم له جاء فاترا شاحبا خلوا من الروح الأصيل ، وما راء كن سمع ، وليس الخبر كالعيان .

وما يؤيد ذلك : أن ذا الرمة قدم الكوفة فلقية الكميت ، فقال له : إني عارضتك في قصيدتك .  
قال : أي القصائد ؟  
قال : قولك :

ما بال عينك منها الماء ينسكب      كأنه من كلى مفرية سرب<sup>(١)</sup>  
قال : فأى شيء قلت :  
قال : قلت .

هل أنت عن طلب الإيقاع مُنقلب      أم هل يحسن من ذى الشيبة اللعب  
حتى أتى عليها .

---

(١) الكلى هنا : هي الرفعة المستديرة من القرية تخرز عليها تحت العروة .



فقال ذو الرمة : ما أحسن ما قلت ! إلا أنك إذا شبهت الشيء ليس  
تجىء به جيدا كما ينبغي ، ولكنك تقع قريبا فلا يقدر إنسان أن يقول :  
أخطأت ولا أصبت .

فقال السكيت : أو تدري لم ذلك ؟

قال : لا .

قال لأنك تشبه شيئا قدر أيت بهينك وأنا أشبه ما وصف لي ولم أره بعيني .  
قال ذو الرمة : صدقت ! هو ذاك <sup>(١)</sup> .

فالإحساسات البصرية ليست سطحية ، وهذا هو السبب في أنها مازالت  
تنطوى على هذه القيمة الجمالية العظيمة ؛ فالعين حاسة النور أولا وقبل كل  
شيء ، وحاجة الكائنات الحية إلى النور لا تقل عن حاجتها إلى الحرارة  
إن لم تزد .

إن فرحتنا بالانتقال من الظلمة إلى النور ، أو بسنا السماء الأزرق ،  
أو بلعان اللون نفسه ، وهي في آن واحد عيد للعين وراحة عامة للجسم ،  
ولعل النبات — على حرمانه من حاسة البصر — أن يشعر بشيء من هذا  
حين ينتقل من الظل إلى الشمس بغية ألا يذبل في الظلمة ، ويتجه دائما إلى  
ضوء الشمس كأنه يراه .

إن اللذة التي نستشعرها حين شروق الشمس ليست لذة بصرية فحسب  
إننا بكياننا كله نحى الشعاع الأول من أشعة النهار <sup>(٢)</sup> .

والإحساسات التي يصح نعتها بالجمال على أتم وجه هي الإحساسات  
البصرية ، حتى لقد عرف ديكارت الجمال بقوله : هو ما يروق العين <sup>(٣)</sup> .  
أضف إلى ذلك أن إحساسات البصر إحساسات تمثيلية ؛ فهي تستمد عمقا

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ٦٤

(١) الموشح - ١٩٥

(٣) المصدر نفسه - ٦٢



جديدا من المعاني الكثيرة التي ارتبطت بها حتى أصبحت مركزا تجمع حوله أجزاء كاملة من وجودنا ، إنها الحياة كلها مكثفة مختصرة .

فإذا نظرت إلى وردة في أبريق مثلا حضرتني على الفور ذكرى كل الإحساسات التي ترتبط عادة بمنظر الوردة ، فإذا أنا أتصور حديقة وغيضا وقد أتصور نزهة مع شخص آخر ، وقد أتصور يدا تقطف الزهر لتقدمها إلى ، وقد أتصور الذي تصلح الزهرة زينة له ، وهكذا ترى أن اللون البسيط وحده شيء تعبيرى .

إن بين الإدراكات البصرية والأفكار انسجاما خفيا يدركه الشعراء في كل ما ينظمون <sup>(١)</sup> .

ونحن ندرك هذا في مثل قول الحسين بن مطير :

وصفر تراقبها وحرر أكفها      وسودنواصيها وبيض خدودها  
وقول صفي الدين الحلي :

بيض صنائعنا خضر مرابعنا      سود وقائعنا حر مواضعنا

والعيون هي التي تحفظ صورة الأشياء على النفوس ، وتجدد عهدا لها وتحرسها من أن تندثر وتمنعها أن تزول .

ولذلك قالوا : من غاب عن العين فقد غاب عن القلب <sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك فليست الصور البصرية معدومة على الإطلاق من الناحية الوجدانية لدى المكفوف رغم أنها لا تقع تحت حواسه ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الحياة الاجتماعية ، وقد ينتقل جانب من تأثيرها الوجداني بوساطة الألفاظ التي تعبر عنها إلى ذلك الشخص الذي لن يعرفها أبدا <sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر نفسه - ٦٥ (٢) أسرار البلاغة - ١٣٢

(٣) مقدمة في علم النفس الاجتماعي - ٢٤٠ - ٢٤١



## قيمة السمع .

أوجد السمع أرفع الفنون ، الشعر والموسيقى والبلاغة ، وهو يدين بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية .

فمراكز التعاطف والاجتماع هي الأساس في كل المتع الجمالية التي تحسها الأذن ، فأجمل ما في الصوت بالنسبة للسكائن الحية هو أنه تعبير في جوهره فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، كما أن اللهجة أجمل شيء بالنسبة للأذن ، وأنت تعلم أن اللهجة هي التعبير المباشر النابض عن العاطفة ، وقدرة الخطيب إنما تقوم على اللهجة ، واللهجة هي العنصر الأساسي كذلك في فن الدراما ، فالألم الذي يعبر عنه بالصوت يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى بالحركات .

والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره إلا جملة من الكلمات المختارة يقصد بها الشاعر إلى أن يهز الأذن هزاً أقوى فكأنها تحمل في ذاتها لهجتها الخاصة . وأما الغناء كما بينم - سبنسر في تطور اللهجة ، فإنه الصوت الإنساني وقد تَلَحَّنَ وَتَنَغَّمَ حين اتصل بالعاطفة ، وليست موسيقى العزف هي الأخرى إلا تطوراً للصوت الإنساني ، ففي أعماق كل صوت جميل يثوى عنصر إنساني ، فالأصوات القاسية البهائم تذكرنا بصوت الإنسان في حالة الغضب ، والأصوات الرخيمة توقظ فينا معاني العطف والحب <sup>(١)</sup> .

ورحم الله ابن الرومي حيث يقول في المغنية ، وحيد ، :

ظبية تسكن القلوب وترعاها وقُرية لها تغريد

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٦٥ - ٦٦



طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد  
 فلها الدهر لائم مستزيد ولها الدهر سامع مستعيد  
 في هوى مثلها يخفت حلیم راجح حلمه ويغوى رشيد  
 عيها أنها إذا غنت الأحرار م ظلوا وهم لديها عبيد  
 واستزادت قلوبهم من هواها برقاها وما لديهم مزيد!  
 ويدل على قيمة السمع قوله — تعالى — : « ومنهم من يستمعون إليك  
 أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي  
 العمى ولو كانوا لا يبصرون . »

فإنها تفيد أن الصمم مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر .  
 وفوق ذلك في الآية ما يسمى : المضاعفة ، وهي أن يتضمن الكلام  
 معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه .

فالمعنى المصرح به هنا : أنه لا يقدر أن يهدي من عمى عن الآيات ،  
 وصم عن الكلم البينات ؛ بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها .  
 والمعنى المشار إليه : أنه فضل السمع على البصر ؛ لأنه جعل مع الصمم  
 فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط <sup>(١)</sup> .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ، ومن البراهين الساطعة على صدق  
 من جاء به ؛ فربطه السمع بالعقل وإشارته إلى أفضليته على البصر ، يؤيده  
 العلم الحديث وتقره المشاهدة .

فالسمع من أكبر منافذ العقل ، والأصم ليس إلا حجرا أصم .  
 وأما العمى فلم يقعد بصاحبه يوما عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية ،  
 بل لعله من المرشحات لها ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « فإنها لا تعمى  
 الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » <sup>(٢)</sup> .

(١) الصناعتين — ٤١٠ (٢) فن الأسجاع لعلى الجندى — ٢ — ١٩٥



وما أحسن قول بعض العصريين <sup>(١)</sup> :

إذا حلَّ نورُ الله في قلب عبده      فما فاته من نور عينينه مُحْتَقَرٌ  
لقد طبق الدنيا المعرى شجرة      وسارت مسير الشمس ذكراه والقمر  
وعمر فيها مبصرون كأنهم      هوأنا على التاريخ ليسوا من البشر  
فلا تحسب العين البصيرة مغنا      لمن ليس ذا قلب وإن زانها الحور  
وفي ذلك يقول «جويو» : ولعل في إمكان الشاعر الذي ولد أعمى أن  
يرسم بشعره صوراً ملونة إلى أبعد حد ، رغم أنه لا يعتمد إلا على  
إحساسات اللمس والسمع والشم : على الإحساس بالحياة : على العواطف  
والأفكار .

إن جمال الشمس لا يقوم على النور وحده ، ولقد قال أحد العميان :  
إني لأسمع الشمس لحناً جميلاً <sup>(٢)</sup> .

### مزية السمع والبصر من الحواس :

يرى فلاسفة الجمال من الإنجليز أن الإحساس لا يمكن أن يكون جمالياً  
متى كان يفيد الحياة فائدة مباشرة ، وبحكم هذه النظرية قصرُوا الإحساسات  
الجمالية على السمع والبصر لأنهما الحاستان اللتان لاثمان الحياة بوجه عام .  
وهذا القول وثيق الصلة بمذهب الأقدمين : فقد قال بعض الحكماء :  
إن الله — عز وجل — جعل القلب أمير الجسد وملك الأعضاء ، فجميع  
الجوارح تنقاد له وكل الحواس تطيعه ، وهو مديرها ومصرفها وقائدها  
وسلطانها ، وبارادته تنبعث ، وفي طاعته تتقلب ، ووزيره العقل ، وعاضده  
الفهم ، ورائده العینان ، وطليعته الأذنان ، وهما في النقل سواء لا يكتبان  
عنه أمراً ، ولا يطويان دونه سراً .

(١) ألحان الأصيل — ٣٤١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٥٩ .



وقال أفلاطون - في السمع والبصر - : هما للقلب كالجناحين للطائر  
لا يستقل إلا بقوتهما ، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة .

قيل : فما بال الأعمى يعشق ولا يرى ، والأصم يعشق ولا يسمع ؟  
قال لذلك قلت : إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل به  
طيرانا ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى وأوحى <sup>(١)</sup> .

غير أنه لا يصح أن نغلو في قيمة السمع والبصر إلى الحد الذي يحجب  
عنا فضل غيرهما من الحواس الأخرى ويجعلها ذيلالها ، فالحق أن كل  
الإحساسات تشارك في الشعور بالجمال .

والأديب والشاعر يحاولان أن يعوضا هذا النقص في هاتين الحاستين  
اللتين لا تستطيعان وحدهما أن تهينا لنا انفعالات جمالية ، بل إننى لأذهب  
إلى القول بأن هاتين الحاستين ، البصر والسمع ، لم تكونا في الأصل ولاهما  
اليوم تماما الحكم الحقيقي في أمور الجمال ، فما تعجب به العينان هو ما تعجب  
به في الغالب حواسنا الأخرى المتصلة بالوظائف الحيوية اتصالا مباشرا ،  
فكما أن اللمس علم العين كيف تقدر المسافات في المكان ، فقد عليها كذلك  
- مستعينا بالذوق والشم وسائر الحواس الحيوية - ما ينبغي أن تعجب  
به وتحمبه وتسعى إليه .

ولا بد أن تكون الأشكال والألوان التي أعجبت الحيوانات أول  
ما أعجبتها ، هي أشكال وألوان الأشياء التي تتغذى بها هذه الحيوانات ، وإن العين  
والأذن عند أبناء الشعب والبدائيين لا تقدر الجمال مباشرة وإنما تعكسان حكم  
الحواس الأخرى ، فابن الشعب يرى البلدة من البلدان جميلة إذا كانت غنية  
وأوفر طعاما .

---

(١) زهر الآداب - ٣ - ٢٢٢

( م ٤ - فن التشبيه - ج ٢ )



والبحار يرى البحر جميلا حين يكون هادئا مأمونا ، ويعده قبيحا إذا  
ثار وأصطخب .

وشقائق النعمان الحمر ، وأزهار الحقل الملونة تبدو للفلاح في حقل القمح  
بقعا قبيحة .

والشعراء إذا أرادوا أن يولدوا في النفوس انفعالا جماليا كاملا لم  
يقتصروا على استعمال الألفاظ التي تشير إلى إحساسات بصرية ، بل يفضلون  
الاعتماد على الحواس الأخرى ، لأن الحياة ههنا أشد وأعمق عمقا ، فالفاظ  
الجمال والحسن والرشاقة وسائر الكلمات التي تعبر عن معاني الشكل والسطح  
لا تكفي لتوليد انفعال جمالي كامل ، لأن العين لا تتأثر بما ترى تأثيرا مباشرا  
فهي حاسة باردة لا تهتز ، فإن وُصف الشيء بأنه جميل فهذا وصف سطحي ،  
أما إذا أردت أن تعبر عما ينفذ إلى أعماقنا ويهز كيانتنا بأسره كان عليك أن  
تبحث عن ألفاظ أبعد عن هذا البرود وهذه الموضوعية ، فقولك عن  
صوت : إنه جميل أقل تأثيرا في النفس من قولك : إنه عذب أو حلو أو  
ملتهب إلخ .

وقل بين الكلمات ما يستعمله الشعراء أكثر من استعمالهم للنعوت  
الآتية : غض ، طرى ، رطيب ، نضير ، عطر ، عبق ، متلظ ، خفيف ،  
ناعم إلخ .

وهي نعوت مستمدة من إحساسات اللمس والذوق والشم (١) .

### فصل: اللمس .

حس اللمس يتيح لنا دائما أن نشعر بإحساسات فنية من كل نوع ، حتى  
يستطيع أن ينوب مناب البصر إلى حد بعيد ، ولئن كانت حاسة اللمس  
لا تستطيع إدراك الألوان فإنها تطلعنا على ناحية جمالية لا تستطيع العين

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٣٣ - ٦٣ .



وحدها أن تطلعنا عليها : أعنى النعومة والرخاسة والملاسة .

إن جمال المخمل لا يقوم على المعاني فحسب ، بل على نعومة ملمسه كذلك .  
والألوان نفسها تستمد بعض جمالها من اقترانها بملمس ناعم ، فالعشب  
الأخضر يقرن بليونته نحسها تحت الأقدام ، فإذا هذه اللذة التي تشعر بها  
أعضاؤنا حين تتمدد عليه تزيد اللذة التي تحسها العين حين تراه ، ولا شك أن  
بريق الشعور الشقر والسود مرتبط بالملمس الحريري الذي تحسه الأصابع  
وهي تداعب هذه الشعور .

ولنتظر إلى إحساسات الحرارة والبرودة وهي التي تبدو أبعد ما تكون  
عن شئون الجمال ، إن قليلا من الانتباه يكفي لإدراك الطابع الجمالي في هذه  
الإحساسات ، فهل نجهل ما لطراوة الهواء أو دفئه من قيمة في وصف  
المناظر التي يصفها الشعراء <sup>(١)</sup> .

وقد وضع م - سولي برودوم جدولا بالنعوت التي تشترك فيها  
الإدراكات الحسية والحالات النفسية ، وقد تبين من هذا الجدول أن  
حاسة اللمس أكثر الخواس إمداداً لنا بالنعوت التعبيرية التي تنطبق على  
الحالات النفسية ، فهي تمدنا بخمسين نعنة تعبيرياً من هذا القبيل ، أما الطعوم  
وإحساسات الحرارة فهي تقدم ثلاثين نعنة من أكثر النعوت قدرة  
على التعبير <sup>(٢)</sup> .

وفي وصف الملموس وتصوير أثره يقول ذو الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشي لأهراء ولا نزر

ويقول يزيد بن الطثري :

بنفسي من لو مرّ برد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله  
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٥٩ .

(٢) بحوث نشرها الأستاذ الدروبي بمجلة العالمين . أغسطس سنة ١٨٨١ .



### قيمة الشم

إن تربيتنا الجمالية فيما يتعلق بالروائح والطعوم ضعيفة على وجه العموم فما نستطيع أن نحصل إلا على إدراكات لا شكل لها ولا نظام فيها ، ولذلك كان الانفعال الجمالي الذي يخرج من هذه الإدراكات غامضاً ولا يتصف بطابع عقلي كاف ، غير أن هذا الانفعال موجود على كل حال ، وهنا يسأل فيكتور كوزان : هل سمعت في حياتك أحداً يصف رائحة بأنها جميلة ؟

ونجيب على هذا السؤال : إذا كان هذا لا يقال في اللغة الفرنسية على الأقل ، فإنه لينبغي في الواقع أن يقال : فما أشبه رائحة الورد أو السوسن بقصيدة جميلة ، حتى بغض النظر عن المعاني التي نربطها بها . وما زلت أذكر ذلك الشعور العميق الذي أحسسته وأنا طفل صغير حين شممت زنبقة لأول مرة .

إن قسماً كبيراً من جمال أيام الربيع وليالي الصيف يرجع إلى الروائح العابقة التي تملأ الجو ؛ ولعل سكرة العطر هذه لا تخلو من شبه بمتع الحب المعقدة .

وعلى أن حاسة الشم ناقصة إذا قيست بغيرها ، فإن لها شأناً كبيراً في إدراك المناظر وفي وصفها ؛ فنحن لا نتصور إيطاليا دون أن نتصور فوح يرتقاها يحمله النسيم الدافئ ولا نتخيل شواطئ بروتيا أو جاستونيا إلا ونتخيل زفر البحر الذي طالما تغنى به فيكتور هوجو ، ولا نتذكر الأراضي البور من غير أن نتذكر فوغة أشجار الصنوبر <sup>(١)</sup> .

وقد قدر العرب هذه الحاسة حق قدرها ، وكان لشم الأشياء المحببة عندهم نشوة لا تعاد لها نشوة ، فمن ذلك أن لقيط بن زُرارة كان قد تزوج

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٦٢



بنت قيس بن خالد ذي الجدين ، فحَظِيَتْ عنده وحظى عندها ، ثم قتل فآمت بعده وتزوجت رجلاً آخر ، فكانت كثيراً ما تذكر لقيطاً فلامها زوجها الثاني على ذلك ، فقالت : إنه خرج في يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ، ثم أتاني وبه نضخ من دم فضمني ضمة ، وشمي شمة ، فليتنى مت ثمة فلم أر منظرأ كان أحسن من لقيط <sup>(١)</sup> !

ومما نسب إلى علي — كرم الله وجهه — : وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانه .

ومن قول رملة بنت الزبير لزوجها خالد بن يزيد بن معاوية : إنما نحن رياحين للشم والضم .

وكان ابن العميد والصاحب بن عباد والصابي يكتنون عن البنت الصغيرة بالريحانة ، والريحانة أيضاً كناية عن الزوجة . ويقول ابن المعتز في ذلك :

ما أقصر الليل على الراقد	وأهون السقم على العائد
يفديك ما أبقيت من مهجتي	لست لما أوليت بالجاحد
كأنني عانقت ريحانة	تنفست في ليها البارد

وتقول بعض النساء :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين  
وفي ریح الأولاد تقول أعرابية — وهي ترقص ولدا لها — :

يا حبذا ريح الولد	ريح الخزامى في البلد
أهكذا كل ولد	أم لم يلد قبلي أحد

ويقول ابن الرومي .

برياض تخايل الأرض منها خيلاء الفتاة في الأبراد



منظرٌ مُعِجِبٌ تحيية أنفٍ ريحها ريح طيب الأولاد  
وقيل لأعرابي<sup>(١)</sup> : أى رائحة أطيب ؟  
قال : رائحة بدن تحبه ، أو ولد تربته<sup>(٢)</sup> .  
وفي ريح الحبيب يقول امرؤ القيس :  
إذا قامتَا تَضَوَّعَ المسكُ منهما نسيم الصبا جاءت برياً القَرَنُفُلُ  
ويقول جميل :

وكان طارقها على علل الكرى والنجم وهنا قد دنا لتضوّر  
بستاف ريح مدامة معلولة بذكى مسك أو سحيق العنبر  
ويقول آخر في طيب أنفاس الحبيب :

بخور مثل أنفاس الحبيب وطيب قد أخل بكل طيب  
يظلّ الذيل يستره ولكن تتم عليه أنفاس الجيوب  
إذا ما شمّ أنف حنّ قلب كأن الأنف جاسوس القلوب

وفي البيت الأخير ما يدل على أن طيب النساء يثير في الرجال الانفعال  
الجنسى ، وقد جاء في الحديث النهى عن خروج النساء متعطرات والتغليظ  
في ذلك حتى جعلت المرأة التي تخرج متعطرة يشم الناس ريحها زانية !  
وفي تذكر الحبيب بما فيه مشابهة منه قول عنتره :

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي  
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم  
وقول آخر :

ذكرتك بالريحان لما شمته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب

---

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٦٠ (٢) تربته : تربيته .



تذكرت بالريحان منك شمائلًا وبالراح طعما من مُقبلك العذب  
وقول أحد بني القبنطرة الوزراء :

ذكرت سليمى ونارُ الوغى كقلبي ساعة تذكّارها  
وأبصرت قدّ القنا شهبًا وقد ملن نحوى فعانقتها

### قيمة الذوق .

لا أدل على أن لإحساسات الذوق صفة جمالية من أنها أوجدت نوعا  
من الفن وإن كان خسيساً : أعنى فن الطهى .

وما أظن أفلاطون كان يمزح فقط حين شبه البلاغة بالطهى ، ولعل فى  
إمكان كل إنسان أن يتذكر بقليل من الانتباه ما قد أحسّه فى حياته من متع  
ذوقية كانت فى الحق متعا جمالية .

ولعل لذة إرواء الظمأ ألطف من لذة إشباع الجوع وأدنى منها إلى  
المشاعر الجمالية .

وتبلغ اللذة ذروتها حين يروى الظمأ ويشبع الجوع فى آن واحد .  
لقد رأى لافونتين شيئاً من الجمال حتى فى قطعة من السمك وضعت أمام  
شَرِهين ، ورأى الفردى موسيه شيئاً من الجمال حتى فى فطيرة ساخنة ذات  
منظر شهى ، بل إن أحد شخوص موسيه يشبه صوت حبيته بملاك جميل  
يحمل إبريقاً من العسل ، وإن نشيد الأنشاد ؛ هذا الأثر الشعري الذى طالما  
ألهب عواطف الصوفية فى كل العصور يفيض بصور من هذا النوع : عبير  
فك يا حبيبتى كخمرة معتقة . صدرك ككأس من الخمر الشذى . شفتاك  
يا حبيبتى تقطران شهدا . تحت لسانك عسل ولبن . كلوا يا أصدقائى واشربوا  
واسكروا من خمرة الحب .



وشعر الشعوب البدائية يزخر بمثل هذه الاستعارات الحية ، وهذا دليل على أن متعة الأكل والشرب - وهي أغلظ المتع - لا تحتوى في ذاتها على شيء ينافى الشعر ، حتى إن الإشارة إليها أسرع في إيقاظ العاطفة الجمالية عند إنسان العصور الأولى .

والمأخذ الذى يوجه إلى الذوق والشم هو أن الإحساسات التى تنقلها إلينا هاتان الحاستان لا يستطيع العقل أن يميز فيها الإدراكات الأولية ؛ فلا يمكن لرائحة من الروائح أن تنحل فى نظر الفكر إلى عدد من الإدراكات البسيطة ، كما ينحل اللحن الموسيقى إلى سلسلة من النغمات المستقلة ، ومن الصعب أن نمزج الروائح أو ندرجها دون أن نخلطها ؛ إنها إحساسات قل أن يعمل فيها الفكر ولا يمكن أن يخرج منها إدراك شكلى .

وهذا صحيح ، ولكن هل إدراك الشكل والحواس ضرورى فى الانفعال الجمالى ؛ إن هذا الإدراك يكتسب فى الغالب بالمران الطويل (١) .  
وفى أثر الذوق يقول الكميت بن زيد :

فيهن آنسة الحديث حياءً      ليست بفاحشة ولا متفال (٢)  
وتكون ريقتها إذا نبهتها      كالمسك فوق سُلَاقَةِ الجريال  
ويقول بشار :

أيهما الساقيان صبا شراى      واسقيانى من ريق بيضاء رُود  
إن دائى الصدى وإن دوائى      شربة من رضاب ثغر برود  
ويقول الشريف الرضى :

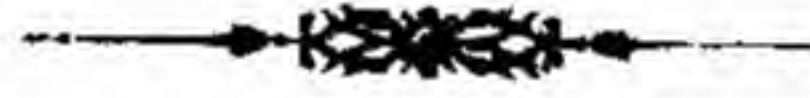
(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٦٠ - ٦١

(٢) المتفال : المتغيرة الرائحة .



يا عذبة المبسم بلى الجوى بنهلة من ريقك البارد  
أرى غديرا سايحا ماؤه فهل لذاك الماء من وارد  
من لى بذاك العسل الذائب الجارى م خلال البرد الجامد  
ويقول ابن وكيع :

ريق إذا ما ازددت من شربه ريا ثنائى الرى ظمآنا  
كالخمر أورى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا





# الفصل الخامس

## المركب الحسى

لا خلاف أن التشبيهات المركبة المنتزعة من مساقط الحواس بخاصة البصرية ، مظهر لبداعة الصنعة ، وروعة الفن ، ومعرض للباقة الفكر ، وأناقة العقل ، وترف الخيال ، وقد استطاع كثير من الشعراء ولاسيما شعراء القصور وأبناء النعمة والرفاهية ، أن يتحفونا بصور زاهية بهجة تفوق ما تنتجه الطبيعة نفسها ، نقف أمامها مسحورين بهذه البراعة في الجمع بين أشياء يستحيل اجتماعها في ظل الواقع ، مبهورين بهذه الدقة في النقش والتلوين والزخرفة ، حتى لنكاد نُخدع عن أنفسنا ، فنحسب النماذج المقروءة صوراً مجسدة ترى بالعين المجردة .

والحق أن شعراء الوصف وضعوا بين أيدينا ثروة ضخمة من هذه الصور المؤلفة من غرائب الأشكال ، وروائع الأصباغ تأخذ معها ذهن القارئ في رحلة بعيدة ممتعة يعود منها رضى البال مثلوج الفؤاد .

فالنارنج كما تجلوه علينا الرياض لا يرتفع حسنه إلى قول ابن المعتز :

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقاق عقيق قد ملئن من الدر

والورد على اختلاف ألوانه لا يتهاى له من الجمال في خمائله ماتهاى له في نثر أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ، ودرأبيض ، على كراسى زبرجد ، يتوسطه شذر من الذهب .



أوفى شعر على بن الجهم — وقد أخذ من القول السابق — :  
كأنهن يواقيت يطيف بها زمرذ وسطها شذر من الذهب  
والجلنار لا يمنحنا من المتعة ما يمنحنا قول ابن وكيع فيه :

وجلنار بهي ضرامه يتوقد  
بدالنا في غصون خضر من الرى ميد  
يحكى فصوص عقيق في قبة من زبرجد

والشمش في لونه الأصفر الفاقع على أشجاره النظرة السندسية لا يصور  
لنا هذه الآهة والروعة التي نلمحها في قول ابن رشيق :

كأنما المشمش لما بدت أشجاره وهو بها يلتهب  
خضر قباب الملك حفت بها جلاجل مصقولة من ذهب

وأن يقع الخيار في لونه ورائحته من قول بعضهم :

انظر إلى عرف الخيار ولونه كروائح الرياح للمخمور  
فكأن ظاهره الزبرجد أخضرا وكأن باطنه من البلور

أليست هذه الفاكة الشعبية المتواضعة لو كانت على هذه الصفة لتنافس

في شرائها المتنافسون من الأثرياء كما يتنافسون في جمع التحف الثمينة !

وهل للفحم المشتعل هذه الصورة الغريبة التي تألق خيال عبد الله فكرى

في تنسيقها وتنميقها حتى أصبحت بديعة من البدائع :

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب

أرض من المسك ، كافور جوانبها يمج من فوقها بحر من الذهب

يبد أن إعجابنا بهذه الصور الخيالية أو الوهمية في جمال تحاسينها ، ووشى

تلاوينها ، واعترافنا بالجهد المبذول في ترقيشها وتحبيرها وصقلها ، لا يصح أن

يذهب بنا مذهب الإمام عبد القاهر الذي يقيس هذه الأشياء في رفعتها



ونزولها بمقياس ، الوجود والعدم ، و سعة الوجود والندرة ، حتى ليعد  
أعلام الياقوت المنشورة على رماح من زبرجد ، من النوع الفاخر البالغ  
الغاية ، لأنه معدوم أبدا ، ولا يتعدى وجوده الوهم .

ويرى أن قول أبي طالب الرقي :

وكان أجرام النجوم لوامعا      درر نثرن على بساط أزرق  
أبلغ من قول ذي الرمة :

كحلاء في برج صفراء في نَعَج      كأنها فضة قد مسها ذهب <sup>(١)</sup>  
لأن الأول غريب قليل نادر الوجود بخلاف الثاني ، فإن الناس يرون  
في الصناعات فضة قد أجرى فيها ذهب وطلبت به ، ولا يكاد يتفق أن يوجد  
در قد نثر على بساط أزرق <sup>(٢)</sup> .

نعم لا نستطيع أن نسلم بهذا المقياس الجامد الذي يعجب بالظواهر  
والقشور ، ويخدع بالسراب اللامع ، وإنما المقياس الصائب عندنا : اتصال  
الفن بالحياة ، واندماج الفنان في الطبيعة ، وفناؤه في شخصيتها ، وتلاشيهِ في  
روحها الشامل ، فإذا هو جزء مشاع فيها ، يرى يبصرها ويسمع بأذانها ،  
وينطق بلسانها ، ويصدر عنها في حركاته وخلجاته وأحاسيسه المختلفة ، فتغدو  
كل كلمة منه وكأنما هي قلب يضطرم بالحياة النامية ، ويخفق بالعواطف  
الموارة ، ويضطرب بالمشاعر الجياشة .

فالانفعال الذي يثيره فينا الفنان يكون قوياً حين لا يكتفى بصور بصرية  
وسمعية باردة ، بل يحاول أن يوقظ فينا أعماق الإحساسات الجسمية من  
جهة ، وأرفع العواطف الخلقية ، وأسمى المعاني الفكرية من جهة ثانية ،  
وبتعبير آخر يجب أن يشرك الانفعال الفني كل أجزاء كيانتنا الرفيع منها

---

(١) البرج : البياض المحدث بسواد العين كله ، والنعج : البياض الخالص .

(٢) أسرار البلاغة - ١٣٨



والدنى ، فيجب أن يكون إذا واقعياً جداً ، مادياً جداً ، ولكن يجب في الوقت نفسه أن يفسح أكبر المجال للعواطف والأفكار .

إن الشيء السطحي المألوم في الفن إنما هو لعب الخيال من أجل الخيال نفسه : أى تتابع صور باردة لا يمكن أن تنقلب إلى إحساسات مؤلمة أو لذيذة ، ولا إلى أفكار أو عواطف .

ولا يغتفر الخيال الوهمي المحض في الفن إلا إذا كان رمزاً عقلياً أو خلقياً ، فيكون عندئذ أشبه بالواقع لأنه يبعث على التفكير العقلي والشعور العاطفي ، أما الأشياء التافهة فهي أبعد ما تكون عن الخيال .

وليس التزيين العربي هو المبدأ الذى تحدر منه الرسم والشعر والموسيقى ، بل هو إجهاض الفن قبل اكتمال تكوينه ، وأما ما يسمونه التلوين في الشعر والأدب فلا يكون بجمع لوينات يبعث البصر بالنظر إليها ، فالتلوين في الأدب لا يتم على وجه العموم إلا بتصوير إحساسات حية لامبئة ، حارة لا باردة ، وقد لا يكون لها أى صلة بإحساسات البصر (١) .

فقول القاضى عياض يصف خامات زرع بينها شقائق النعمان وقت هبوب الريح :

انظر إلى الزرع وخاماته      تحكى وقد مالت أمام الرياح  
كتائب تجفل مهزومة      شقائق النعمان فيها جراح

أجمل من قول ابن وكيع يصف الكتان :

ذوائب كتان تمايل في الضحا      على خضر أغصان من الرى ميد  
كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها      مداهن تبر رُكبت في زبرجد  
لأنه أرانا صورة يمكن أن نراها في الحياة كثيراً ، وهى صورة كتائب



حققت عليها الهزيمة ، فأمعنت في الهرب ، وقد سالت عليها دماء الجروح ،  
ولكن مداهن التبر المركبة في الزبرجد صورة جامدة بل ميتة لأنها لا تتمثل  
إلا في الخيال الجموح .

وقول بعضهم في النارج :

وأغصان مقومة حسان ومنها ما يرى كالصولجان  
كان بها ثدياً ناهدات غلائلها صبغ بزعفران  
ألصق بالفن وأكبر صلة بالحياة من قول ابن وكيع أيضا :  
انظر إلى النارج في أغصانه يلوح في أفنان هاتيك الشجر  
مثل دبائيس نضار أحمر أو كعقيق خرطت منه أكر

فقد اشتق الأول تشبيهه من الحياة الزاكية المخصصة ، وأتانا بشيء نهتز له  
ارتياحا ، ونشاهده في مجالى الكواعب الحسان صباحا ومساء ، ويمكن أن  
نعرف أن العامة يتغنون في هذا المعنى بقولهم :

لابسه قميص مشمشى بين النهود ملفوف

أليست هذه النهود الملفوفة في القميص المشمشى ، هي هذه الثدي  
الناهدات في الغلائل المصبوغة بالزعفران في قول الشاعر المتقدم ، بيد أن  
ذلك من صياغة العامة وهذا من صياغة الخاصة ؟  
إن الحياة الواقعية تنادى على نفسها في هذا التشبيه .

ولكن ما الذى تثيره فينا هذه الدبائيس من النضار الأحمر ، أو هذه  
الأكر المخروطة من العقيق ، وإن كان الشبه بينها وبين النارج قويا متينا .  
وقول بعضهم في وصف الثوم :

الثوم مثل اللوز إن قشرته لولا روائحه وطعم مذاقه  
كالنذل غرك منظرًا فإذا ادعى لفضيلة ينمى إلى أعراقه



أبلغ من قول الآخر :

يا حبذا ثومة في كهف طاهية      بدیعة الحسن تسبی كل من نظرا  
أبصرتها وهي من عجب تُقلِّبها      كصرة من دَبِيق حوت دررا<sup>(١)</sup>  
فالثوم ذو فصوص جميلة المنظر كالأظافر غير مقشورة ولها لون العاج  
إذا قشرتها ، ولكنه حاد الطعم كرهه الرائحة ، وقد وجد له الشاعر مشابه في  
النذل الحسن الظاهر ، القبيح الباطن ، فجاء التشبيه صائبا دقيقا لأنه اشتقه من  
صميم الحياة ، وأبرز لنا صورة نابضة غير مزيفة مشحونة بعاطفة البغض  
والزراية .

أما هذه الصرة من هذه الثياب الخاصة المنسوجة في دبيق والحاوية للدرر ،  
فلا يتجه إليها خاطر الفنان إلا أصيل الذي يخلق في السماء ولا يدب على الأرض .  
والفن — كما قال كروتشه — : تركيب فني قبلي حقيقي ، تركيب للعاطفة  
والصورة في الخدس ، تركيب تستطيع أن تقول بصدده : إن العاطفة بدون  
صورة : عمياء ، والصورة بدون عاطفة : فارغة .

وقد قالوا عن رفائيل : لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم  
لم يقولوا : لو لم يكن له إحساس بالرسم لظل مصورا عظيما<sup>(٢)</sup> .  
إن فضل التشبيه أن يزيدنا إحساسا بالصورة لا أن يرسمها لنا كما ترسمها  
المصورة الشمسية ، لأنه وسيلة إلى تمام التعبير عن الوعي والشعور .  
أما التشبيه الذي لا يزيدنا حسا ولا تخيلا ، فهو فضول وتعثر يعوق عن  
الغاية ولا يؤدي إليها .

ولهذا ننكر قول ابن المعتز في وصف الهلال — وهو المثل الأعلى  
عند طلاب التشبيه لمحض التشبيه — .

---

(١) الدبيق : نوع من الثياب الدقيقة ينسب إلى دبيق ، وهي بليدة مصرية كانت بين

الفرما وتيس ثم خربت . (٢) المجلد في فلسفة الفن — ٥٥ — ٦٣



وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر  
فلو أننا يمثّلنا زورقا من فضة وتمثّلنا حمولة من عنبر تثقله ، لما زادنا ذلك  
إحساسا بالهلال ، ولا إعجابا بحسنه وشكله ، وإنما هو التشبيه الآلى الذى  
هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر ووعيه .  
وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرئ القيس مثلا حين يقول  
فى وصف الشحم :

### وشحم كهذاب الدمقس المفتل

فأنت حين تقرأ هذا البيت نحس نهم الآكل ، ونظرته إلى الشحم الذى  
يأكله ، والتذاذه بأكله ، وذلك هو المقصود بالشعر ، والمقصود من أجل  
ذلك بالأوصاف ، ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن  
نفاسة الدمقس هى التى عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هى التى  
تعنى ابن المعتز ، وربما ظنوا لذلك قيمة التشبيهين سواء وهما جد متفاوتين ،  
لأننا حين نتخيل ابن المعتز بنظر إلى الهلال ويشبهه بالزورق والحمولة ،  
إنما نتخيل رجلا يعمل الفكرة فى التوفيق بين الأشكال والألوان .

أما امرؤ القيس فنحن نتخيله مع العذارى حين نقرأ ذلك البيت كما  
أراد أن نتخيله وأن نتخيلهن ، وتصرف أذهاننا تَوًّا إلى حالة الأكل  
المقصودة ، لا إلى تسويم قيمة الشحم والحرير الأبيض فى السوق .

وهذا مع أن التشبيه المحسوس بين الشحم والحرير الأبيض أقرب وأحكم  
من التشبيه المحسوس بين الهلال وزورق الفضة على فرض وجوده <sup>(١)</sup> .

ويكفى فى الرد على عبد القاهر أن التشبيهات الواردة فى القرآن الكريم  
والحديث الشريف مما يتحقق وجوده فى الخارج كقوله تعالى : « أو كظلمات

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ العقاد — ٧٢ — ٧٤



في بحر لجيٍّ . . . كمثل الحمار يحمل أسفارا ، كمثل الكلب . . . إلى غير ذلك من الأمور الممكنة الوقوع ، وسر ذلك أنها أدخل في التحقيق وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع <sup>(١)</sup> .

وإذا كنا قد مثلنا فيما تقدم لبعض الصور الجامدة التي تمثل جمال الصنعة فقط ، فإننا نرى من العدل أن نورد بعض الصور الصادرة عن الوعي الشعوري النابض بروح الفن .

ومن حق هذه القطع علينا أن نثبت أبياتها جميعا لا ما يتعلق منها بالتشبيه وحده ، حتى لا تنفصم عروتها ويذهب جمالها وتمزق وحدتها ، فالييت إذا قطع من القطعة — كما يقول عبد القاهر — كالكعاب تنفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين ، وأملا بالزين منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر <sup>(٢)</sup> .  
فن ذلك قول محمد بن سفر الأندلسي :

وواعدتها والشمس تجنح للنوى	بزورتها وهناً وبدر الدجى يسرى
جفامت كما يمشى سنا الصبح في الدجى	وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولي فأشعرت	بزورتها والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها	كما يتقصى قارئ أحرف السطر
وبت بها والليل قد نام والهوى	تنبه بين الغصن والحقف والبدر <sup>(٣)</sup>
أعانقها طورا وألثم تارة	إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقود للتعانق بيننا	فياليلة القدر اتركي ساعة النفر

وله في وصف نهر إشبيلية :

شق النسيم عليه جيب قميصه      فانساب من شطيه يطلب ثاره

(١) الطراز — ٣ — ٢٨١ (٢) أسرار البلاغة — ١٦٧

(٣) الحقف بالكسر : الموج من الرمل .



فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزوا فضم من الحياء إزاره  
ولأن سعد الخير الأندلسي في وصف دولاب :

لله دولاب يفيض بسلسل  
في روضة قد أينعت أفنانا  
قد طارحته بها الحمام تجوها  
فيجيبها ويرجع الألحانا  
فكأنه دنف يدور بمعه  
يسكى ويسأل فيه عمن بانا  
ضاق بجاري طرفه عن دمه  
فتفتحت أضلاعه أجفانا

ولأن أبي الصلت الأندلسي في لابس قرمزية حمراء :

أقبل في قرمزية عجب  
قد صبغت لون خده الشرق  
كأنما جوده وغرته  
من دونها إذ بدون في نسق  
عمود فجر من فوقه قمر  
دارت به قطعة من الشفق

وللعناني في البرق :

أرقت للبرق يخفون ثم يأتلق  
يخفيه طوراً ويبيديه لنا الآفاق  
كأنه غرة شهباء لائحة  
في وجه دهماء سافى جلدها بلق  
أو ثغر زنجية تفتت ضاحكة  
تبدو مشافرها طوراً وتنطبق  
أو نلة البيض في جأواء مظلمة  
وقد تلقت ظباها البيض والدرق  
والغيم كالشوب في الآفاق منتشر  
من فوقه طبق من تحته طبق  
تظنه مصمتاً لا فتق فيه فإن  
سالت عز إليه قلت الثوب منفتق  
إن معمع الرعد فيه قلت ينخرق  
أو لآ البرق فيه قلت يحترق  
تستك من رعدة أذن السميع كما  
تعشى إذا نظرت من برقه الحدق  
فالرعد صلق والريح منخرق  
والبرق مؤتلق والماء منبعق (١)

(١) صهصاق : شديد الصوت .



قد حال فوق الربى نوراله أرج  
من خضرة بينها حمراء قانية  
وللوزير بن السفاط :

ويوم لنا بالخيف راق أصيله  
وللموج تحت الريح منه تكسر  
وقد نجمت قضب ليدان بشطه  
وأينع مخضر النيات خلاها  
كما راق تبر للعيون مذاب  
تولد فوق المتن منه حجاب  
حكمتها قدود للحسان رطاب  
كما أقبلت نغمى وراق شباب

وقول يزيد بن عبد الله بن خالد في السفن :

ويا للجوارى المنشآت وحسنا  
إذا نشرت في الجو أجنحة لها  
وإن لم تهجه الريح جاء مصافحا  
بجاذف كالحيات مدت رموسها  
كما أسرعت عدا أنامل حاسب  
هي الهدب في أجفان أكل أوطف  
ولا بن الرومي :

حيثك عنا شمال طاف ريقها  
هبت تحيرا فناجى الغصن صاحبه  
ورق تغنى على خضر مهدلة  
تخال طائرها نشوان من ضرب  
بجنة فجرت روحا وريحانا  
سرا بها وتداعى الطير إعلانا  
تسمو بها وتمس الأرض أحيانا  
والغصن من هزه عطفه نشوانا

(١) السرق بفتح الراء : شقق الحرير الأبيض واحدته سرقة .



وللبحتري :

من ذا رأى مزنا تآزر برقه      في عارض عريان لم يتأزر  
غيث أذاب البرق شحمة مزنه      والريح تنظم منه حب الجوهر  
وكأنما طارت به ريح الصبا      من بعد ما انغمست به في العنبر  
ويُضىء تحسب أن ماء غمامه      عقد تنائر في إناء أخضر  
وللصنوبرى في تصوير عواطف الأزهار :

خجل الورد حين لاحظته النر      جس من حسنه وغار البهار  
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا      صفرة واعتري البهار اصفرار  
وغدا الأقحوان يضحك عجبا      من ثنايا لثامهن نُضار  
ثم نَمَّ النَّام واستمع السو      سن لما أذيعت الأسرار  
عندها أبرز الشقيق خدودا      صار فيها من لطمه آثار  
سُكبت فوقها دموع من الطلِّ م      كما تُسكب الدموع الغزار  
فتردى البنفسج الغض أثوا      ب حداد قد خانها الاضطراب  
وأضر السقام بالياسمين النَّضر م      حتى أودى به الإضرار  
ثم نادى الخيرى في سائر الزهر م      فوافاه جحفل جرار  
فاستجاشوا على محاربة النرجس م      بالجحفل الذى لا يُيسر<sup>(١)</sup>  
فأتوا في جواشن سابغات      تحت تجف من العجاج يثار<sup>(٢)</sup>  
ثم لما رأيت ذا النرجس الغض م      ضعيفا ما إن لديه انتصار  
لم أزل أعمل التلطف للور      د حذارا أن يغلب النُّوار  
فجمعناهم لدى مجلس فيه م      تُغنى الأطيَّار والأوتار

(١) استجاشوا : دعا بعضهم بعضا . (٢) الجواشن : الدروع .



لو ترى ذا وذاك قلت حدود      تُدمن اللحظَ حولها الأبصار  
ولشهاب الدين الديماطى فى الموز - وهى من القطع الزاخرة بالخصب  
والحيوية - :

كأنما الموز فى عراجنه	وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانية	عُقَص من بعد ضم مُنْقَشِره
كان من ضمّه وعقّصه	أرسل شَرَابَةً على أثره
كان أمشاطه مكاحل من	زُمرد نُظّمت على قدره
كأنما زهره الأنيق وقد	شُقّق عنه كِيام مستتره
نظام ثغر يزينه شنب	متمزج شهده بمعتصره
كان قامات سوقه عمد	حنت أوأوينها على جذره
كان أشجاره وقد نشرت	ظلال أوراقها على ثمره
حاملة طفلها على يدها	تقيه حر الهجير فى خمرة
كأنما ساقه الصقيل وقد	بدت عليه رُقوم معتبره (١)
ساق عروس أميط مزرها	فبان وشى الخضاب فى حبره
تصاغ من جوهر خلاخلها	فتنجلى والنّشار من زهره
حدائق خفقت سناجقها	كأنها الجيش أم فى زمره (٢)
وكل آياته فباهرة	تبين فى ورده وفى صدره
كأنما عمره القصير حكى	زمان وصل الحبيب فى قصره

(١) يريد « برقوم معتبره » : العقد التى تكون فى شجر الموز يعتبر بها المعتبر ومحسب  
بها أيامه . انظر تذكرة داود - ٢ - ٢٠٣ طبع بولاق .  
(٢) السناجق : الألوية .



كَأَنَّهُ الْبَدْرُ فِي الْكَمَالِ وَقَدْ أَصِيبَ بِالْخُسْفِ فِي سَنَا قَرِهِ  
كَأَنَّهُ بَعْدَ قِطْعِهِ وَقَدْ اصْفَرَّ مَ لَمَّا نَالَ مِنْ أَذَى حَجَرِهِ (١)  
مَتِيمٌ قَدْ أَذَابَهُ كَمَدٌ يَبِيتُ مِنْ وَجْدِهِ عَلَى حَطَرِهِ  
مَعْلَقٌ بِالرَّجَاءِ ظَاهِرُهُ يُخْبِرُ عَمَّا أُجِنُّ مِنْ خَبَرِهِ  
يَطِيبُ رِيحًا وَيَسْتَلِدُّ جَنَى عَلَى أَذَى زَادَ فَوْقَ مُصْطَبَرِهِ  
كَأَنَّهُ الْحُرُّ حَالٌ مَحْنَتُهُ يَزِيدُ صَبْرًا عَلَى أَذَى ضَرَرِهِ

وهذا غيض من فيض مما حفلت به دواوين الشعراء قديما وحديثا ،  
هذا كله يعرب عن هذه الروح المفتونة بالطبيعة والتغلغل في أطوائها  
والنفوذ إلى سرها ولبابها ، واستجلاء مفاتيحها ، وتصوير ما هجها ، فجاء  
الشعر دافقا بالقوة ، متفجرا بالحياة ، متنزيا بالأشعة ، متوشحا بالظلال  
متنوعا بالعبر المسكرة ! .

---

(١) المراد بالحجر هنا : الحجر الذي يوضع على الموز ليكبس بعد قطعه من شجره إلى  
أن يتم نصجه .



## الفصل السادس

### الهيئات والحركات في المركب الحسى

من بديع المركب الحسى ما يحىء منه فى الهيئات التى تقع عليها الحركات من الاستدارة والاستقامة وما إلى ذلك .

ويرجع هذا إلى أن المعانى الخمسة بطبيعتها غير قابلة للإغراق والتهويل كالمباني مثلاً ، فإن لكل بناء مساحة محدودة وارتفاع معين وسمك معروف ، لا يصعب علينا أن نقيسها بالأذرع والامتار قياساً مضبوطاً دقيقاً ، ومن شأن ذلك أن يحد من خيالنا ، ويقيد نشاطنا اللفظى والعقلى ، ويعوقنا عن السبح والانطلاق كما نشاء .

ونجد عكس ذلك فى المعانى العاطفية على اختلاف ألوانها ، فإنها تتباين تبايناً كبيراً واضحاً فى قوتها وضعفها فى الأشخاص بل فى الشخص الواحد ، فمن العسير ضبط معاييرها ، وقياس احتمالاتها ، وتحديد درجتها ، ومن هنا كانت الألفاظ الفخمة الضخمة ، والكلمات الطنانة الرنانة ، والتعبيرات الصارخة الصاخبة الكثيرة المقاطع أكثر من غيرها ملائمة للمعانى الشعورية لتعرب فى صدق عن قوتها وشدتها وحدتها واضطرامها .

ومن المسلم به أن الحركات توائم الألفاظ فى تعاقبها وانطلاقها وعدم استقرارها ، بخلاف الأجسام الجامدة الصامتة المقيدة بقيود المكان .

فالألفاظ كما يستخدمها الشاعر ، أو كما تستخدمها أنت وتستخدمها كل إنسان للتعبير عن خواطره ومشاعره ليس لها شيء من خصائص المكان .

هى حركة عقلية ونشاط ذهنى ، فهى لا تملأ حيزاً من مكان وإنما تشغل جزءاً من الزمان ، فاللفظتان أو الألفاظ لا تتجاور فى مكان ، لا يقف



بعضها إلى جانب بعض كالأشجار والأحجار ، لكنها تتعاقب بعضها في إثر بعض في فترة من زمان .

انطق بالعبارة فلن تجد لعبارتك مساحة ، ولكنك ستجد لها زمنا قيلت فيه ، وإذا ما نطقت بالكلمة الثانية فقد ذهبت الأولى إلى العدم ، أو قل : أصبحت ماضيا ويستحيل عليهما أن تقفا جنباً إلى جنب كما تقف الأجسام . ولكن أى جوانب الطبيعة يخضع لنفس الظروف التى تخضع لها الألفاظ حتى تتخذ منه موضوعاتها ؟

أى الأشياء فى الطبيعة لا يملأ حيزاً من مكان ولكنه يستغرق فترة من الزمان ؟

أى الأشياء فى الطبيعة تتعاقب ولا تتجاوز ؟  
إنها الأفعال ، ولا فرق بين أن يكون الفعل حركة فى جماد أو فى كائن حى ، لا فرق بين أن يكون الفعل لإنسان أو زهرة أو ماء متدفق أو ريح عاصفة .

فالفعل هو خير مجال تتجلى فيه قدرة الشجر على التعبير ، فإن حاول وصف الأجسام لذاتها قصر دون التصوير ، كما يقصر التصوير دون الشعر إن حاول تمثيل الفعل (١) .

ولهذا نجد أن وصف البحر وهو هائج العباب مصطخب الآذى ، أسهل من وصفه وهو ساكن الصفحة كالخصير ، وتصوير السحب المتدفقة كأفواه القرب ، الخالعة للقلوب بزئير رعدھا ، الخاطفة للأبصار بسنا برقها ، أيسر من تصوير سحب الصيف الراكدة الرقيقة التى تتقشع بعد قليل .

وقد وصف ابن خفاجة الجبل وصفاً رائعاً خلافاً بقوله :

وأرعن طمّاح الذّؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب



يسد مهبَّ الريح من كل جهة  
وقور على ظهر القفلة كأنه  
يلوث عليه الغيمُ سودَ عمام  
أصخت إليه وهو آخرس صامت  
وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل  
ولاطم من نكب الرياح معاطفي  
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى  
فما خفق أبكى غير رجفة أضلع  
وما غيَّض السلوانُ دمعى وإنما  
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب  
وحى متى أرعى الكواكب ساهرا  
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع  
فأسمعنى من وعظه كل عبرة  
فسلى بما أبكى ، وسرى بما شجا  
وقلت وقد نكبت عنه لطية

ويزحم ليلا شبهه بالمناكب  
طوال الليالي مفكر في العواقب  
لها من وميض البرق حر ذوائب  
فحدثني ليل السرى بالعجائب  
وموطن أواه تبثّل تائب  
وزاحم من خضر البحار غوارب  
وطارت بهم ريح النوى والنوائب  
ولا نوح ورقى غير صرخة نادب  
نزفت دموعى في فراق الصواحب  
أودع منه رحلا غير آتب  
فمن طالع أخرى الليالي وغارب  
يمدُّ إلى نعلك راحة راغب  
يترجمها عنه لسان التجارب  
وكان على عهد السرى خير صاحب  
سلام فإننا من مقيم وذاهب<sup>(١)</sup>

والكنازاه لم يتحدث كثيراً عن طوله وضخامته ، لأن مجال القول ضيق في هذه النواحي الجامدة ، فهو يقف عليها وقفة قصيرة ثم يقفز إلى جوانب أخرى متحركة نشيطة يتشقق فيها الكلام ، وتنفسح آفاقه ، وتشعب فنونه ، فيبعث في الجبل روح الحياة ويخلع عليه ثوب التشخيص ، ثم يصيخ إليه السمع وهو يقص عليه أطرافاً من حياته الموهلة في القدم ، الحافلة

(١) الطبعة : الحاجة والقصد ووجه المسافر ، ومن في « من مقيم » زائدة أو بيانية .



بالحوادث والعاديات ، المليئة بالمفارقات والمتناقضات ، العامرة بالعبر  
والعظات ، ويثنه وجده الدفين ولوعته الساعة على من فارقه من أصحابه  
وهو مقيم لا يرحل ، حتى سُم البقاء وحن إلى الفناء !

ولا شك أن الشاعر قد جاءنا بشيء طريف بارع ، ولو أنه قصر وصفه  
على ذات الجبل ما استطاع أن يقول غير كلام غث مبتذل متداول .

وهذا شاعر عصرى يصف « جبل طارق » بقصيدة منها (١) :

عَلَّمْ تَسَامِي غَارِبَا وَسَنَامَا	تزهو الكواكب فوقه أعلاما
يَأْبَى عَلَى غُرِّ السَّحَابِ جَبِينُهُ	تقبيلها فتقبل الأقداما
ويسير زَخَّارَ الْعِبَابِ بِسَفْحِهِ	متظامناً . يَحْنِي إِلَيْهِ الْهَامَا
وتمر هوجاء الرياح حِيَالَهُ	حسرى على أعتابه تترامى
وترى الجوارى ، لا تنال سلامها	إلا إذا أَلْقَتْ عَلَيْهِ سَلَامَا

\*\*\*

ما باله حُضْنُ الْمَضِيقِ ، كَأَنَّهُ	صب تدلّه فى المضيق غراما
يرعى شواطئه بمقلة ساهر	عاف المنام فلا يذوق مناما
رصد على « البرين » مد أصابعها	سُفْعاً تَصْبُ عَلَى الْمَغِيرِ حَمَامَا
وثوى على « البحرين » أرعن لا بسا	وشى الحديد على الجلامد لاما (٢)
لو ساور الجيشُ اللَّهَامُ شِعَابَهُ	لقى الختوف قذائفاً وسهاما
أو خالفت شَمُّ الدَّوَارِعِ أَمْرَهُ	طاحت على ثَبَجِ الْمِيَاهِ حُطَامَا (٣)
إن لم يكن « كَالْأَلْب » ، طال ذَوَابَةٌ	فلقد أناف على السَّهَا وَتَسَامِي

(١) أغاريد البحر - ٨٢

(٢) اللام مسهلة الهمزة : الدروع المحكمة المنثمة جمع لامة .

(٣) الثبج : الوسط .



وأرى الجبال تفاوتت أقدارها مثل الرجال مكانة ومقاما  
فأنت ترى هذا الشاعر أيضاً راغ عن وصف الجبل نفسه ، ووصف  
ملابساته المختلفة ، بعد أن جعله كائناً حياً بما نفخ فيه من روح الحياة .  
ولو أنه وقف عند الأوصاف المعروفة المجردة : من الارتفاع والضخامة  
والخشونة وغيرها ما قال : إلا أنه صخرة جرداء منيعة .  
ولقد أمكن لطرفة أن يصف الناقة وصفاً مفصلاً مستوعباً بأكثر من  
ثلاثين بيتاً : أى بما يساوى قصيدة كاملة ، لأنه وصف حيواناً له حركات  
وأفعال متنوعة ، ولكن هذه الشاعرية المبدعة كانت تحس حتماً بالعجز  
والقصور لو تصدت لوصف شيء مستقر كالجبل والتل والكثيب مثلاً ،  
وما استطاعت أن تتفق إلا عن أبيات معدودة لا تروى ظمناً الفنان .

### هيئة الحركة في المركب الحسى :

تأتى هيئة الحركة في المركب الحسى على ضربين :

١ — أن تقترن الحركة بغيرها من أوصاف الجسم كالشكل واللون  
كما فى قول أبى النجم العجلى :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل لما رأيتها بدت فوق الجبل  
أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ، ومع الإشراق  
والتلألؤ على الجملة ، الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ، ثم ما يحصل  
فى نورها من أجل تلك الحركة ، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى  
غاية السرعة ، ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجب ،  
ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل ، لأن حركته  
تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد ، حتى ترى المرآة لا تقر فى  
العين ، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب



الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحدد النظر وتنفذ  
البصر حتى تقبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها ، فإنك ترى شعاعها  
كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، ثم يبدو له فيرجع في الانبساط  
الذى بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط .  
وحقيقة حالها في ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره في النفس ،  
فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان ككنه صورته (١) .  
ومثله في غير المرأة قول الوزير المهلب :

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب  
كأنها بوتقة أحميت يحول فيها ذهب ذائب  
فإن البوتقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها في الاستدارة  
وأخذ يتحرك فيها بحملته تلك الحركة العجيبة ، كأنه يهيم بأن ينبسط حتى  
يفيض من جوانبها لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض  
لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ، ولذلك لا يقع فيه غليان على  
الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء (٢) .  
ومثله قول ظافر الحداد :

انظر لقرن الشمس بازغة في الأفق تبدو ثم ترتفع  
كسيكة الزجاج ذائبة حمراء ينفخها فتتسع  
ومن عجيب ما جمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبري :  
كأن في غدرانها حواجبا ظلت تمط  
أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صفار ، ثم  
إنك تراها تمتد امتدادا ينقص من انحنائها وتحدها كما تباعد بين طرفي القوس



وتثنيها إلى ناحية الظهر ، كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل  
التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر .

ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران  
كانت أشبه شئ بالحواجب إذا مدت ، لأن الحاجب لا يخفى تقويسه ،  
ومده ينقص من تقويسه .

وقريب منه قول شاعر يصف البرق :

أرقت لبرق سرى موهنا      خفيئاً كغمزك بالحاجب  
كأن تألقه فى السماء      يدا كاتب أو يدا حاسب

وقول أبى منصور البغوى :

ترامت لنا من خدرها بسوالف      كما لاح بدر من خلال سحاب  
وهز الصبا صدغاً لها فوق خدها      كما رُوحت نار بریش غراب

٢ - أن تجرد هيئة الحركة من كل وصف يكون فى الجسم كالشكل  
واللون ، فلا ينظر إلا للحركة فقط مجردة عن الجسم وسائر أوصافه : أى  
أن يميز ما به المشابهة عما به الامتياز .

كقول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم      مخاريق بأيدى لاعبيننا  
وقول ابن المعتز يصف فرساً له :

وله أربع تراها إذا هملج م تحكى      أنامل الحساب  
وأنامل الحساب يشبه بها ما يوصف بالسرعة .

وقول شاعر :

كأن فؤادى فى مخالب طائر      إذا ذكرتك النفس شدَّ به قبضا



وقول آخر :

تمشى فتثقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف  
ولاريب أن حركات الجسم تختلف ، فمنها الحركات غير المركبة  
كحركة الرحي والدولاب والسهم لأن الجهة واحدة .  
ومنها الحركات المركبة ، وقد تكثر هذه الحركات فيكون للجسم حركات  
مختلفة ، كأن يكون بعضها إلى اليمين وبعضها إلى الشمال ، وبعضها إلى العلو  
وبعضها إلى السفلى ، ليتحقق التركيب وإلا لكان وجه الشبه مفرداً وهو  
الحركة لا مركباً .

فمن الحركات المركبة قول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قار فانطباقاً مرة وانفتاحاً

اكتفى من جميع أوصاف البرق ومعانيه بالهيئة التي يراها من انبساط  
يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوّه انضمام ، ثم التمس له شبيهاً فأصابه في حركة  
المصحف الخاصة ، دون اعتبار شيء معها من صفات الجسم كالشكل واللون  
كما في « المرأة في كف الأشل » .

فالمصحف يفتح القاريء مرة فيتحرك إلى أسفل ، ويطبقة أخرى  
فيتحرك إلى أعلى ، ولا شك أن هذه الحركة في الانطباق والانفتاح فيها  
تركيب ، لأنه يتحرك في كل حال إلى جهتين ، ففي حالة الانفتاح يتحرك اليمين  
إلى اليمين واليسار إلى اليسار ، وفي حالة الانطباق يتحرك اليمين إلى اليسار  
واليسار إلى اليمين .

ولم يكن حسن حال التشبيه لكونه جامعاً بين المختلفين من جنس ، بل  
لحصول الاتفاق بينهما من ذلك الوجه ، فلأجل اجتماع الأمرين : أعني  
الاتفاق التام والاختلاف التام كان حسناً بديعاً .



ومثله قول القلعي المغربي :

والسحب تلعب بالبروق كأنها قار على عجل يقلب مصحفها

وقول أبي طالب المأموني يصف دارا :

وكان الأبواب صعب تلاقين م انقلا ثم افترقنا انفتاحا

وكان الستور قد نشر الطاووس منها في كل باب جناحا

وكلها كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاد الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة التحرك أكثر .

فما جاء من ذلك ولطف وعرف ؛ لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتلاعب الأمواج بها .

يقص السفين بجانيه كما ينزول الرباح خلاله كراع<sup>(١)</sup>

شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا - ولا سيما في الماء وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول النشء - كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى ، فلا يثبت الطرف مرتفعا حتى يراه منحطاً متسفلاً ، ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ومنه قول بعضهم :

حفت بسرو كالقيان تلفجت خضر الحرير على قوام معتدل

فكأنها والريح جاء يملها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

ففي البيت الثاني تفصيل ظريف فائن ، فقد راعى الحركتين : حركة التهوى

(١) تقص : تثب ، الرباح كرمال : الفصيل وقيل : القرد ، والكرع : ماء السماء .



للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدنى ما يكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية لطيفة تحسب معها السمع بصرا ؛ تبينا للتشبيه كما هو وتصويرا ، لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في حال خروجها من مكانها من الاعتدال . وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدا من حركته إذا هم بالدنو فإزعاج الخوف والوجل أبدا أقوى من إزعاج الرجاء والأمل ، فع الأول تمهل الاختيار وسعة الحوار ، ومع الثاني حفز الاضطراب وساطان الوجوب <sup>(١)</sup> .

وقريب منه قول البحترى :

ولم أنس ليلتنا في العناق      لف الصبا بقضيب قضيبا  
كما أقبلت الريح في مرها      فطورا خفوتا وطورا هبوبا

وكما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه ، فكذلك تعتبر هيئة السكون نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك ، فإذا وقع شيء من هيئات الجسم ، في سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن مثل قول المتنبي — في صفة كلب صاد ظييا من غير صقر — :

يُقعى جلوس البدوى المصطفى      بأربع مجدولة لم تُجدل

فقد نال التشبيه حظا من الحسن ، لأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل من الكلب في إقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك المواقع في حكم أشكال مختلفة تؤلف ، فتجىء منها صورة خاصة مؤلفة من جميعها .

وكذلك صورة جلوس البدوى عند الاصطلاء بالنار .



فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تقارن سكنات الأعضاء حالة وقوع كل عضو منه موقعه المخصوص به في إقعائه .  
وخص البدوى بالذكر لأنه في الغالب هو الذى يقع منه الاصطلام على هذا الوجه .

ومنه قول الأهوازى <sup>(١)</sup> فى صفة مصلوب :

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل  
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل <sup>(٢)</sup>  
لطف التشبيه لكثرة حظه من التفصيل ، فلم يقف عند وصفه بالتمطى  
لأنه قريب التناول .

فهذا القدر يقع فى نفس الرأى للمصلوب ابتداء لكونه من باب الجملة ،  
ولكن قيده بما يفيد استدامة تلك الحال ، ثم ذكر علة ذلك وهو اللوثة  
والكسل فيه ، وهذا يحتاج إلى قوة تأمل وفضل تدقيق لحاجته أن ينظر إلى  
ثلاث جهات ؛ فيقول : هو كالمتمطى ، ولكن المتمطى يمد ظهره ويده مدة ثم  
يعود إلى حالته ، فيزيد فيه أنه مواصل لذلك التمطى ، ثم يطلب علة وهى قيام  
اللوثة والكسل فى القائم من النعاس .

وفى البيت الأول اعتبر هيئة سكون عنقه وصفحته فى حال امتدادهما ،  
واعتبر مع ذلك السكون صفة اصفرار الوجه بالموت ، لأن تلك الهيئة  
موجودة فى العاشق الماد عنقه وصفحته لوداع المعشوق ، فهى هيئة أضيف  
إلى السكون فيها غيره من أوصاف الجسم .

---

(١) قال أبو الحسن : هو رجل محدث من أهل البصرة ويعرف بالأخيطل ويلقب برقوفا  
السكامل « شرح المصنف » ٦ - ١٧٢ .  
(٢) اللوثة بالضم : الاسترخاء .



## الفصل السابع

### تشبيه الصورة بالمعنى

أو

### المحسوس بالمعقول

كانت العرب تعنى بصب المعانى فى القوالب المحسوسة ، وتبالغ فى ذلك كل المبالغة ، سواء فى ذلك ما تقع عليه الحاسة من الأوصاف ، أو كان تعبيراً عن الخواطر النفسية ، ونبضات العواطف .

وكانت تستعين على إبراز ذلك بالتشبيهات والاستعارات المادية وما إليها من صور البيان ، ولم تكن تلقى بالها إلى ما يسمى بالتشبيهات الخيالية والوهمية لأن البيان عندها كما يدل عليه معناه اللغوى بل كما ينطق به اسمه : ظهور ووضوح .

فنتاجها على العموم صور مادية لا تخرج عن نطاق الحواس الظاهرة ، تلمس الحقائق وتعنى بالتفصيلات ، وتهتم بالأجزاء ، وتنفر من الغموض والإبهام ، وتدور حول الخصوص لا العموم ، وتكره التدسس إلى ما وراء الماديات المنظورة ، لسبر أغوار النفس واستنباط سوانح العقلية الباطنية . ولعل ذلك هو السبب الأكبر فى أنهم لم يبرعوا فى فنون القصص براعتهم فى الشعر فقد وجهوا كل عنايتهم إلى الفن الأخير ، وأنفقوا فيه ما يملكون من كنوز الألفاظ والصيغ اللماعة ، التى توائم هذه النظرات المتظامنة السطحية ، وازوروا عن القصص لاقتضائه التغلغل إلى ما وراء الظاهر ، والانسياب إلى أعماق النفوس النائية ، وتحليل العواطف والخوارج المتشابهة المتعقدة .



ولقد بالغوا في التوضيح حتى وصلوا إلى ما يعرف الآن بالتجسيم والتشخيص .  
فهذا المهلهل بن ربيعة يصف النجوم فيشبهها بالكائنات الحية من أناسي<sup>١</sup>  
وبهائم في قوله (١) :

كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ عُوذُ      مُعْطَفَةٌ عَلَى رُبْعٍ كَسِيرِ  
كَأَنَّ الْجَدَى فِي مَثْنَةٍ رِبْقِ      أَسِيرٌ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسِيرِ  
كَأَنَّ النِّجْمَ إِذْ وَلَّى سُحَيْرًا      فَصَالٌ مُجَلْنٌ فِي يَوْمٍ مَطِيرِ  
كَوَاكِبُهَا زَوَاحِفٌ لَا غَبَاتَ      كَأَنَّ سَمَاءَهَا بِيْدَى مَدِيرِ

وفي رواية أخرى لهذه القصيدة جاء هذان البيتان في آخرها :

كَأَنَّ الْجَدَى جَدَى بَنَاتٍ نَعَشَ      يَكُبُّ عَلَى الْيَدَيْنِ بِمُسْتَدِيرِ  
وَتَحْبُو الشَّعْرِيَّانِ إِلَى سُهَيْلٍ      يُلُوحُ كَقَمَةِ الْجَبَلِ الْكَبِيرِ

يقول : كأن كواكب الجوزاء نوق حديثات النتاج ، عطفت على فصل  
مكسور ، فهي لا تتركه وهو لا يقدر على النهوض ، وكأن الجدى قد شد  
بحبل مثني فهو أحكم لشده ، وكأن النجم — وهو الثريا — فصل تسير  
بطيئة معيات في يوم مطير خوف الزلق فلا تسرع ، وكأن سماءها أثقل  
من أن يديرها مدير ؛ فهو إذا تكلف إدارتها لم يقدر عليها .

ومن يتأمل هذه الأبيات يخيل إليه ، أنه بإزاء قطعة صاخبة من الحياة  
يملؤها الدأب والنشاط بما بث فيها الشاعر من معاني الحركة وعواطف  
الترايط والانجذاب ، وبما خلع عليها من سمات الأناسي<sup>٢</sup> العقلاء .

(١) أمالي القالي — ٢ — ١٣٢ .

(٢) العوذ بالضم : الحديثات النتاج من الظباء وكل أنثى جمع عائد .

(٣) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا .

(٤) الربيع بضم ففتح : الفصل يولد في الربيع .



وامرؤ القيس أضفى على الليل صفة الحيوان في قوله :  
 فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلـكل  
 فاستعار له صلبا ، واستعار لطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب ، واستعار  
 لأوائله لفظ الكلـكل — وهو الصدر — واستعار لما أخيره لفظ الأعجاز .  
 ويقول الأمدى : وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف  
 موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة .  
 وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه  
 وتناقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئا .  
 وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد  
 ما يكون على من يراعيه ويتقرب تصرفه ، فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازا  
 رادفة للوسط ، وصدرأ متناظرا في نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم  
 الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، لأنه تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ،  
 وصح له أن يستعير للصدر اسم الكلـكل من أجل نهوضه .  
 وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة وأشدها ملائمة لمعنى ما  
 استعيرت له (١) .

وشبه الوادى بجوف الحمار الوحشى إذا خلا من العلف في قوله .  
 وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يجرى كالخليع المعيل (٢)  
 وشبه الجبل من انهمار المطر عليه وتكاثفه حوله بسيد أناس تلفف  
 بكساء مخطط في قوله :  
 كأن أبانا في عرانيں وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

(١) الموازنة بين الطائيين — ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) الخليع المعيل : المقامر الكثير العيال .



قال قوم : أراد أن المطر قد خنق الجبل فصار كاللباس على الشيخ المتزمل .  
وقال آخرون : إنما أراد أن المطر كساه من خضرة النبات ، وكلاهما حسن .

وفي رواية كأن ثيراً . . . . .

والنابغة جعل الليل راعياً في قوله :

وصدر أراح الليل عازب همه      تضاعف فيه الحزن من كل جانب  
وهذا مستعار من إراحة الراعى الإبل الى مباءتها : أى ردها إلى موضعها  
الذى تأوى إليه .

فجعل الهم يأوى إلى قلبه بالليل كالنعم العازبة تريحها الرعاة مع الليل  
إلى أماكنها ، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل (١) .

والأعشى يجعل الحرب فخلاً هائجاً صائلاً من الإبل :

فإن الحرب أمسى فخلها م في الناس      مُغتلماً  
وليد يجعل للبرد زماماً ولريح الشمال يداً :

وغداة ريح قد كشفت وقرّة      إذ أصبحت بيد الشمال زمامها  
القرة : شدة البرد ، والشمال أبرد الرياح .

والمعنى : كم غداة شديدة البرد كفت فيها حدته عن الناس بإطعامهم الطعام .  
وعمر بن كاثوم يجعل اللؤم قارحاً في قوله للنعمان بن المنذر :

ألا أبلغ النعمان عن رسالة      فمجدك حولي ولؤمك قارح  
والقارح : المسن من ذوى الحافر بمنزلة البازل من البعير .

والمعنى أن مجده حديث ، ولؤمه عتيق عريق .

وطفيل الغنوى يجعل الرحل من أكلة اللحوم في قوله يصف هزال الناقة  
بطول السفر :



فوضعت كورى فوق ناجية يقات شحم سنامها الرجل  
ومعن بن أوس يجعل للضغن أظفارا :  
وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بجلعى عنه وهو ليس له حلم  
وأبو ذؤيب الهذلى يجعل للمنية أظفاراً تنشبه فى فرائسها فلا تنجى منها  
العود والتألم :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع  
وأوس بن مغراء يجعل للؤم ثدياً فى هجائه بنى عامر :  
يشيب على لؤم الفعال كبيرها ويغذى بثدى اللؤم فيها وليدها  
وأوس بن حجر يكنى عن شدة الحرب ونكارتها ؛ فيجعل لها ناباً معوجاً كالخا.  
وإنى امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشر أعصلا  
ويعتدل هذا الأسلوب المحسوس أكثر ما يعتدل فى مدرسة زهير بن أبى  
سلى ، وراويته : الخطيئة ، وراوية الخطيئة : هذبة بن الخشرم ، وراوية  
هذبة : جميل بثينة ، وراوية جميل : كثير عزة<sup>(١)</sup> .

وهى مدرسة يقول فيها الدكتور طه حسين باشا : كثر عندها التشبيه  
والمحاز والاستعارة ، واتكأت فى وصفها على التصوير المادى<sup>(٢)</sup> .  
والحق أن هذه المدرسة شديدة اللصوق بالمحسوس ، عميقة التأثير به  
تكب على صحائفه حين تقول ؛ فتتزع منها كل ألوان البيان من تشبيه واستعارة  
وكناية ، كما ترى فيها الشغف بالتجسيم والتشخيص واضحا كل الوضوح .  
فزهير يصف آثار الحرب وقبح نكابتها فى المتحاربين على السواء فى  
آيات جامعة حكيمة ، فيصورها بالوحش فى ضراوته ، وأنها تلقح فى السنة  
مرتين ، وتلد فى كل مرة توأمين ، وأن هذا النسل جميعاً مشثوم كعافر ناقة

(١) الأغاني - ٨ - ٩١ - « طبع دار الكتب » .

(٢) فى الأدب الجاهلى - ٢٨٦ .



صالح ؛ ولد من الشر وخلق للشر ، فالشر يجرى على أثره أينما حل !  
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم  
مى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرّ يتموها فتضرم  
فتعركم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتنتم<sup>(١)</sup>  
فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتفطم  
والخطيئة جعل لقلبه نظرات حادة شديدة :

ألا من لقلب عارم النظرات بقطع طول الليل بالزفرات  
هذه كانت صورة البيان العربى الأصيل إلى انقضاء العهد الإسلامى :  
متانة سرد ، وصدق عاطفة ، وبساطة فكرة ، وبعد عن الرمزية والتجريد ،  
ونفور من التلبيس والإيهام ، والإغراق فى الخيالات والأوهام ، ومبالغة  
فى إلباس الأشياء صور المحسوسات ، لإخراجها من الخفاء إلى الجلاء  
ومن الغموض إلى الظهور .

وهذا يلائم طبيعة العربى الخالص ويوافق مزاجه ؛ فهو إنسان طليق حر  
صرىح لا يوارب ولا يحتشم ، ويأنف الخضوع والتعبد للقوانين ، ويكره  
عبارات الملق والنفاق والدهان ، ولا يدين بأساليب الدهاء والنكراء  
والدبلوماسية الناعمة ، ولا يستطيع أن يكتم ما يحوك فى صدره ، وينطق بما  
يرضيه وإن أغضب غيره ، بل وإن جر عليه الشر ، باطنه كظاهرة وسره  
كعلانيته ، وما فيه ينضح على فيه .

ولكن فى العصر العباسى تبدلت الحال غير الحال باختلاط الدماء وتمازج  
الثقافات وتلاقح العقول والأفكار ، وتلاقى الحضارات ، فنشأ عن تلك الروافد

(١) الكشاف بالكسر : أن تلقح النعجة مرتين فى السنة ، والإتمام : أن تلد الأنثى



من الثقافات التي أمدت الأدب العربي والإسلامي بخصائصها وخصبها ودمجها  
أن ظهر لوانان من الشعر وهما :

- ١ - الشعر الصوفي الذي يمثل الزرابة على الدنيا ، ويدعو إلى كبت  
الشهوات والتفلات من قيود الجسد وأغلال المادية كسر - سورة النفس ،  
والانطلاق في رحاب الملاء الأعلى ، والهيام بالذات القدسية التي هي مصدر  
كل جمال في الكائنات ، وظهرت فيه النزعة الرمزية التي تسمى بقصائد النسيب  
والغزل والخمریات وغيرها إلى أصول مواجد الصوفية وفنائهم في حب الله .
- ٢ - الشعر المتأثر بعقلية اليونان بعد ترجمة مصادر الثقافة اليونانية  
وبخاصة في عهد المأمون .

وهكذا لم تعد صور البيان كما كانت في العهد القديم جملاً مادية ملموسة  
تمثل خصائص أمة واحدة ، بل أصبحت نتاج عصبية أمم انصهرت في بوتقة  
واحدة ، بل أخذت عند بعض الشعراء كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي  
تبدو وكأنها تتمرد على قوالبها المألوفة ، وتخلع عنها مادتها الكشيفة ، وتشف  
وتصفو حتى تلحق بالوهميات التي تذاق بالحس الباطني وحده .

استمع إلى قول البحتری يصف ليلة مرت به - مع أن هذا الشاعر  
عرف بلزومه عمود الشعر - :

وليلة كأنها	يوم أمل	ظلامها كالدهر	ما فيه خلل
كأنما	الإصباح فيها باطل	أزهقه الله	بحق فبطل
ساعاتها أطول من	يوم النوى	وليلة الهجر	وساعات العذل
مؤصدة على الوري	أبوابها	كالنار لا يخرج فيها	من دخل

ففي هذا الوصف يبدو التأمل والتجريد ، كما يبدو الخفاء الناجم من  
تشبيه الحسى بالمعنوى ، وفيه تجميل للصورة وإن عده القدماء غير جميل<sup>(١)</sup> .

(١) نثار الأزهار - ١٧ نقلا عن شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل - ٢٣٧ .



وهذا أثر من آثار الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني بما أدخله على  
الذهن العربي من صفات عقلية جديدة ، وكأني بالشاعر يتأثر بعناصر  
أفلاطونية في تفكيره ، فهي صياغة ذهنية باطنية أبعد غوراً ومناً من  
من الصياغة الحسية الظاهرة ففي ذلك تجريد ووهم وفرض وبعد وإغراق  
في الخيال .

وليس من شك في أن هذا التجريد والوهم لم يكن يعتمد إليهما الشاعر  
القديم ، إذ كان يتكئ في وصفه على المادة والحس ، وحقاً أن صانع  
الشعر العربي تغيرت صفاته العقلية القديمة <sup>(١)</sup> .

ومثل هذا الأدب المتأثر بالعقلية اليونانية نلاحظ في بعض نواحيه  
انصرافاً عن المادة وزهداً في الواقعية ، ورغبة عن المحسوسات ، وجنوحاً  
إلى اقتناص الفكرة المجردة من أغوارها العميقة ، فلا بدع إذ رأينا فيه  
تراكم الفكر ، وتعانق المعاني ، وتزاحم الصور حتى تكاد تختنق ، فيشوبها  
الغموض واللبس ، وتمعن في البعد عن الأسلوب الشعري التقليدي ، فتدق  
على ذهن القارئ فلا يفهمها ، أو يفهمها توهماً وتحس نفسه العجز عن شرح  
معناها ، بل لعل ناظمها نفسه يشعر بهذا العجز أيضاً .

ويظهر أن مسلم بن الوليد هو السابق إلى تلك الطريقة يبالغه في اختيار  
اللفظ والتأنق في المعنى ، وقد صرح ابن قتيبة : بأنه أول من ألطف في  
المعاني ورقق في القول وعليه يعول الطائي « أبو تمام » في ذلك وعلى  
النواصي <sup>(٢)</sup> .

ونحن نشم عبقة من الإلطاف في المعاني حينما نقرأ قوله :  
إذا شئتما أن تسقياني مدامة      فلا تقتلوهما كل ميت محرم  
خلطنا دما من كرمه بدمائنا      فأظهر في الألوان منا الدم الدم

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي - ٧٠ - ٧٢

(٢) الشعر والشعراء - ٥٢٨



فقد جعل مزج الخمر بالماء قتلا لها ، ولكنه علق على هذا بأن القتل إماتة ، وأكل الميتة حرام في غير حال الاضطرار .  
ثم جعلها دما لحرمتها وخططها بدمه حين شربها فنضح هذا المزاج دما على وجهه : يعنى حمرة اللون التي تبدو على الشارب .  
وهذه المعاني في جملتها مسبوق بها ، ولما كان الذي لم يسبق به هذا التدقيق والتعمق في المعنى ، والتماس العلل ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستخدام القضايا العلمية ، واختيار القوالب الموحية المناسبة لذلك .  
وقوله :

يا واشيا حسنت فينا إساءته      نجى حذارك إنسانى من الغرق  
ففيه حسن تعليل بإثبات صفة ممكنة لموصوف ، فإن استحسان إساءة الواشى شيء ممكن ، لكنه لما خالف رأى الناس في ذلك عقب عليه بذكر التعليل الكاشف المقنع : بأن حذاره أنقذ إنسان عينه من الغرق في سيل الدموع ، لأنه اضطر إلى حبسها وترك البكاء خوفا منه .  
وهو كقول الآخر :

عداى لهم فضل على ومنة      فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا  
هم بحثوا عن ذاتى فاجتنبتها      وهم نافسونى فارتقيت المعاليا  
وجاء بعده أبو تمام فأوغل في هذه الصناعة حتى عد سابقا لعصره ، وذلك أنه اطلع على العلوم والآداب المترجمة في عهده ، فدق عقله ورق خياله وصفا ذهنه ، واستخرج من كل هذا طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على سهولة الديباجة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية لكثرة لوازمها ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا .  
وقد انتشر أمر أبى تمام لذلك على معاصريه ومن جاءوا بعدهم فتفرقوا في شعره شيعا بين قادح ومادح .



فالمنكرون طريقته يرونه جافى نهج العرب وخرج عن جادتهم ، وأتى  
بشعر غامض عسير يرتقى عن منال الأفهام .

يقول ابن الأعرابي — وقد أنشد شعراً له — : إن كان هذا شعراً  
فكلام العرب باطل <sup>(١)</sup> .

وأنكر عليه أبو سعيد الضرير <sup>(٢)</sup> هذا الغموض — حينما رفعت إليه  
قصيدته في مدح عبد الله بن طاهر التي أولها — :

أهْنُ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ

فقال له : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟

فقال له : وأنت يا أبا سعيد ، لم لا تفهم من الشعر ما يقال <sup>(٣)</sup> ؟

وهو جواب يفهم الخصم ولكنه لا يقنع .

وسمعه إسحاق الموصلي ينشد شعراً في منزل الحسين الضحاك ، فقال له :

يا فتى ، ما أشد ما تنكئ على نفسك <sup>(٤)</sup> !

يعنى : أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وإنما يستقي من نفسه .

ويقول حذيفة بن محمد الطائي الكوفي — وكان من العلماء — : أبو تمام

يريد البديع فيخرج إلى المحال .

ويقول المرزبان : وهو يغوص على المعاني ولا يريد أن يعطل شيئاً

من كلام مستغلق <sup>(٥)</sup> .

وكان من أشدهم عليه القاضي الجرجاني والآمدي .

يقول فيه الأول : حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من

ألفاظه ، فحصل منه على توغير اللفظ ، وتبجح به في غير موضع من

شعره فقال :

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب

(١) الموازنة — ١٥ (٢) في هبة الأيام للبديعي — ١٣٤ : أنه أبو العميش .

(٣) الموشح — ٣٢٥ — ٣٢٦ (٤) المصدر السابق — ٣٢٧

(٥) المصدر السابق — ٣٠٤ — ٣١٢ — ٣٢٤



فتعسف ما أمكن ، وتقلقل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبيل . ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد خاطر والحمل على القريحة ، فإن ظفر به فمن بعد العناء والمشقة وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته الكلال ، وتلك حال لانهش فيها النفوس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف<sup>(١)</sup> . ويقول فيه الثاني - وكان معروفا بالتعصب عليه - : إنه اغتر بما سقط في أشعار المتقدمين من العيوب وعليها في العذر اعتمد ، طلبا منه للإغراق والإبداع وميلا إلى وحش المعاني والألفاظ ، وأسرف في ذلك كل الإسراف .

ويقول : وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارة متفرقة في أشعار القدماء لا تفتى في البعد إلى هذه المنزلة فاحتذاها ، وأحب الإبداع وأغرق في إيراد أمثالها واحتطب وأكثر منها<sup>(٢)</sup> .

ولم يقس هؤلاء النقاد على أبي تمام هذه القسوة إلا لأنه في رأيهم فارق عمود الشعر المألوف ، وخرج على مذهب الأعراب في تناول المعاني من غير كلفة ولا معاناة ، وهام في أودية العقل ومتاهات الفكر في ظلال التصفية والتدقيق وتعطيل الحواس الظاهرة في كثير من الأحيان ، مكثفيا بزفها في غلالة كالسراب فيه حلم وإلهام وإيحاء .

فقد ملأ شعره بالتجسيم إذ نراه يحسم المعاني في صورة مادية حسية حتى تثبت في نفوسنا كأن يقول :

راحت غواني الحى عنك غوانيا يلبسن نأيا تارة وصددودا

(١) الوساطة - ٢٢ - ٢٣ (٢) الموازنة - ٢٤٠



فقد جسم النأى والصدود فى هذه الثياب الغريبة غرابة ثوب الزمن فى قوله لبعض مدوحية :

ومن زمن ألبستنيه كأنه إذا ذكرت أيامه زمنُ الورد  
وهى كلها أثواب غريبة غرابة ذلك الشَّنْف من مآثر مدوحيه إذ يقول :  
حتى لو أن الليالى صورت لغدت أفعاله الغر فى آذانها شَنَفَا  
وقد صاغ أبو تمام من هذا التجسيم شيئاً كثيراً فى أشعاره ، وراح يضيف إليه وشياً آخر من التشخيص كأن يقول فى الربيع :

رقت حواشى الدهر فهى ترمز وغدا الثرى فى حليه يتكسر  
فقد مثل الدهر فى تلك الحواشى الزاهية المشرقة التى يتخايل فيها الثرى  
وكأنه عروس تتثنى فى حليها وتتكسر فى زينتها (١) .

والمادحون لأنى تمام يعرفون له فضله فى اقتناص المعانى وقوة الذكاء  
وإن كان بعضهم لا يخلية من اللوم .

ففيلسوف العرب الكندى يفتن إلى حدة قريحته وعمق تفكيره ،  
فيقول حين نظر فى شعره : هذا رجل يموت قبل حينه ، لأنه حمل على  
كيانه بالفكر .

وفى رواية : لأن ذكاه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده (٢) .  
ويقول محمد بن الجهم : يغوص على المعانى الدقاق فرمما وقع من شدة  
غوصه على المحال .

ويقول الخفاجى - بعد أن عرض لطرف من استعاراته - وهذا وأمثاله  
يعرفه الذوق ، ومثله يستحسنه شعراء العجم ، وتبعهم شعراء الروم ، فلعل  
مثله يتفاوت بحسب اللغات . (٣)

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - ١١٦

(٢) طراز المجالس - ٥

(٣) الموشح - ٢٣٧ - هبة الأيام - ٢٦



وفي هذه الكلمة تصوير لمذهب أبي تمام ، فالحق أن أكثر النقاد لم يفهموه حق الفهم ، لأنه لم يلتزم عمود الشعر الذي جرى عليه أسلافه في صور البيان كما التزمه البيهقي وغيره ، فالتوى عليهم شعره وعدوه بدعا من الشعراء .

ومن جميل التشخيص قول المتنبي :

ملامي النوى في ظلمها غاية الظلم      لعل بها مثل الذي بي من السقم  
فلو لم تغر لم تزو عني لقاءكم      ولو لم ترد كم لم تكن فيكم خصمي

جعل النوى تعشق فتصاب بالسقم مثله ، وتغار منه فتحجب عنه الحبايب اللواتي تشاركه في حبهن ، وجعلها تعقل وتفكر فتناصبه العداوة لأنها تريد من الحبايب ما يريد منهن .

وقول بعضهم :

إن المكارم أرواح يكون لها      آل المهلب دون الناس أجساداً  
فلم يكفه أن يشخص المكارم فينفخ فيها الحياة ، بل جعلها قوام الحياة وملاكها وهي الأرواح ، وجعل الأناسي الحية لها أجساداً .  
وهي مرتبة فوق مرتبة التشخيص .

وقد أشار عبد القاهر إلى تشبيه الصورة بالمعنى في بعض كلامه فقال :  
إن تنزيل الوجود منزلة العدم — إذا أريد المبالغة في حط الشيء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به كقولهم : هو والعدم سواء — : معروف متمكن في العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا

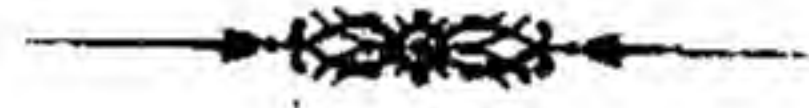


بعد العدم منزلة هي أدون منه حتى يقعوا في ضرب من التهوس كقول  
أبي تمام :

أفي تنظم قول الزور والفند      وأنت أنذر من لاشيء في العدد  
وقوله :

هب من له شيء يريد حجابَه      ما بال لا شيء عليه حجاب  
وقول ابن نباته :

مازلت أعطف أيامي فتمنحني      نيلا أدق من المعدوم في العدم





## الفصل الثامن

### مذاهب البلغاء في تشبيه المحسوس بالمعقول

اختلف النقاد من البلغاء في جواز هذا النوع من التشبيه اختلافاً يقتضينا أن نفضله فيما يلي :

(١) يقول العسكري : وليس هذا التشبيه بالمختار ، ولو أن بعض الناس يستملحه لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر (١) .  
وهذا الرأي : هو رأي جمهرة المتأخرين - وعلى رأسهم السكاكي والخطيب والزنجاني والرازي والجموي - فإن تشبيه المحسوس بالمعقول عندهم غير جائز أصلاً .

وسر ذلك : أن الحسّ أقرب إلى الإدراك من العقلي ، ومعرفة المحسوس والإلمام بأحواله أيسر من تمثّل المعقولات ، بل إن المعارف الحسية أساس المعارف العقلية غالباً ؛ فالمعقول فرع المحسوس لأنه مستفاد منه ومنته إليه ولهذا يقال : من فاته حس فقد فاته علم .

وما دام الأمر كذلك فإن هذا التشبيه يكون جارياً على غير الأصل المعروف ، وهو أن المشبه به أقوى في وجه الشبه من المشبه ، وتشبيه القوى بالضعيف لا يجوز .

ويجب لذلك أن ينزل المشبه به ، المعقول في هذه التشبيهات الواردة



جميعاً على هذا المنوال منزلة أوضح محسوس مشاهد ادّعاء ، حتى يصح تشبيه المحسوس — الذى هو أصل فى الوضوح — به على طريق المبالغة . وإذن فهذا التشبيه يعد فى الحقيقة من باب قلب التشبيه (١) .

( ٢ ) أجازة الرماني (٢) مع استقبحه ؛ لأن التشبيه عنده يأتي على ضربين تشبيه حسن وتشبيه قبيح .

فالحسن : هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بياناً .  
والقبيح : ما كان على خلاف ذلك .  
وشرحه : أن ما تقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة والمشاهد أوضح من الغائب ؛ فالأول أوضح من الثانى ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف .  
ثم عقب الرماني على ذلك بأن عاب على بعض شعراء عصره قوله :  
صدغه ضد خده مثلها الوعد م إذا ما اعتبرت ضد الوعيد  
من قبل أنه شبه الأوضح بالأغمض ، وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه .

وكذلك عاب قول بعضهم :

وله غرة كلون وصال فوقها طرة كلون صدود

( ٣ ) أجازة ابن رشيق فقال — يرد على الرماني — :

أما ما شرط فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، إلا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إذ كان قد قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليلاً بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ، ولعله يقول أو

(١) مواهب الفتح — ٣ — ٣١٢ — ٣١٣ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٨ — نهاية

الإيجاز للرازي — ٥٩ . (٢) العمدة — ١ — ١٩٥ .

( م ٧ — فى التشبيه > ٢ )



يقول المحتج له : معرفة النفس بالمعقول أعظم من إدراك الحاسة ، ولا سيما وقد جاء مثل هذا في القرآن الكريم وفي الشعر الفصيح <sup>(١)</sup> .

وكذلك أجازة ابن السبكي أصالة دون أن يعده من القلب ، ورد على السكاكي والخطيب فيما ذهبوا إليه : من أن وجه الشبه التخيلي كله من قلب التشبيه ؛ فأورد عليهما : يانه إن قيل : إن الخيالي أضعف من الحسي فلا يجعل أصلا ، لزم منع تشبيه الحسي بالخيالي والعقلي <sup>(٢)</sup> .

( ٤ ) ذهب ابن الأثير <sup>(٣)</sup> إلى أنه أطف الأقسام الأربعة <sup>(٤)</sup> ، لأنه نقل صورة إلى غير صورة .

ويقول العلوي : هو من لطيف التشبيهات وأرقها ، وأدخلها في البلاغة وأدقها ، ووجه البلاغة فيه : هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلال ، فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس ، وهذا في نهاية المبالغة . <sup>(٥)</sup>

( ٥ ) يرى بعضهم جواز بعض ألوانه ، فالمغربي <sup>(٦)</sup> يقول : إن الإدراك العقلي وإن كان مستنداً إلى الإدراك الحسي ، إلا أنه لا يلزم من ذلك أن المحسوس أقوى أبدأ في الشبه من المعقول وأشهر به ؛ لأنه إنما يكون كذلك حين يكون الوجه أصله الحسي ، ونحن نجوز أن يكون أصله العقلي ، فيكون العقلي به أشهر وفيه أظهر .

فتشبيه العطر بخلق الكريم مثلاً في استطابة النفس له ، يكون من عكس التشبيه — كما قيل — ، لأن استطابة النفس للمشمووم المحسوس أقرب من

(١) العمدة — ١ — ١٩٥ .

(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٣٢٧ .

(٣) المثل السائر — ١٥٧ .

(٤) يريد بالأقسام الأربعة : تشبيه صورة بصورة ، ومعنى بمعنى ، وصورة بمعنى ، ومعنى بصورة

(٥) الطراز — ١ — ٣٠٦ (٦) مواهب الفتاح — ٣ — ٣١٣



استطابة العقل للمعقول ، اذ تثبت له الاستطابة من طريق التوهم والقياس على الحسى ، فوجه الشبه هنا أقوى وأظهر فى المشبه الذى هو العطر .

ولكن تشبيه العطر بالخلق فى الشرف والارتفاع والتلذذ الروحانى ، يكون به وجه الشبه أتم وأوضح فى المشبه به وهو الخلق ، فلا يكون هناك حاجة إلى اعتباره من قلب التشبيه .

وزبدة هذا القول عند هؤلاء : أن تشبيه الحسى بالعقل لا يكون دائماً من قلب التشبيه ، وأنه جائز الوقوع بلا استنكار .

وأورد التنوخى رأياً غريباً فى تشبيه المعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول .

وخلاصته : أنه لا بد من التجوز فيهما جميعاً ، وأنه لا معنى لترجيح أحدهما على الآخر ، فإما أن نجيزهما معا أو نمنعهما معا .

وقد نبه ابن السبكي : إلى أن هذا رأى ثالث يقول : بنى تشبيه المعقول بالمحسوس على سبيل الحقيقة .<sup>(١)</sup>

روس الشياطين .<sup>(٢)</sup>

وقد سرى الخلاف بينهم إلى وقوعه فى القرآن الكريم ، فأنكر بعضهم وقوعه فيه محتجا : بأن الكتاب الكريم جرى على الأصل الأبلغ فى أن الحسى أصل للعقل .

وقال بعضهم بوقوعه ، وعد منه قوله — تعالى — : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعتها كأنه رموس الشياطين » .

وقد سأل إبراهيم الكاتب العريانى أبا عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع

---

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٣١٣

(٢) عرضنا لذلك بإيجاز فى فصل « التشبيه عند القدماء » - ٣٤ ج - ١



عن معنى الوعيد في ذلك ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف .

فقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :  
أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ  
وَهُمْ لَمْ يَرَوْا الْغَوَالَ قَطْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْغَوَالِ يَهُولُهُمْ أَوْ عَدُّوا بِهِ  
فَاسْتَحْسَنَ الْفَضْلُ ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَهُ السَّائِلُ (١) .

ويقول الجاحظ : وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ،  
ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور  
الشياطين واستسماجها وكراهتها ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في  
ذلك ، رجع بالإيحاء والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله  
في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع  
جميع الأمم .

ثم يقول : وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين : أن  
رموس الشياطين نبات ينبت باليمن (٢) .

ويعود مرة أخرى فيقول : زعم ناس : أن رموس الشياطين ثمر  
شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه .

والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقد قالوا : ما عني إلا رموس  
شياطين معروفة بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم .

وقد قال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم  
نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ،  
ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزع منها ، وعلى أنه

(١) تذهة الأنباء الأتبارى - ١٤٣ - وفيات الأعيان - ٢ - ١٣٨ - ١٣٩ - ثمار

القلوب - ٦١ . (٢) الحيوان - ٤ - ١٣ ( ط . الساسى )



لو كان شيء أبلى في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشياطين كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ؟

ويجب الجاحظ بقوله : وإن كنا نحن لم نر شياطين عور رموسها لنا صادق بيده ، ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين .

أحدهما أن يقولوا : هو أقبح من الشيطان !

والوجه الآخر : أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير به ، كما تسمى الفرس السكرينة شوهاة ، والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير به .

وفي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان ، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم غاية التثبت .

.... فما القول في ذلك إلا كالقول في الزبانية وخزنة جهنم ، وصور الملائكة الذين يتصورون في أقبح الصور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار ، وكذلك في صورة منكر ونكير ؛ يكون للمؤمن على مثال وللکافر على مثال (١) .

ويقول المبرد : وقد اعترض معترض من الجهة الملحدين في هذه الآية فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورموس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها !



وهؤلاء في هذا القول كما قال الله - جل وعز - « بل كذبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .  
وهذه الآية قد وقع تفسيرها في ضربين :  
أحدهما : أن شجراً يقال له « الأستن »<sup>(١)</sup> ، منكر الصورة يقال لثمره رموس الشياطين .

وزعم الأصمعي : أن هذا الشجر يسمى : الصَّوم .  
والقول الآخر : - وهو الذي يسبق إلى القلب - : أن الله - جل ذكره - شنع صورة الشياطين في قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس<sup>(٢)</sup> .  
ويقول ابن رشيقي : قال قوم : إن شجرة الزقوم - وهي أيضاً الأستن - لها صورة منكرة وثمره قبيحة يقال لها رموس الشياطين .  
وقال قوم : الشياطين : الحيات في غير هذا المكان .  
ثم يقول : والأجود الأعرف : أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح ، لما جعل الله - عز وجل - في قلوب الإنس من بشاعة صور الجن والشياطين وإن لم يروها عياناً ، نخوفنا الله - تعالى - بما أعد للعقوبة وشبهه بما نخاف أن نراه .  
وقد قال امرؤ القيس :

أَيَقْتَلَنِي وَالمَشْرِفِي مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ  
فَشَبَّهَ نَصَالَ النَّبْلِ بِأَنْيَابِ الْأَغْوَالِ لَمَّا فِي النَّفْسِ مِنْهَا .

---

(١) عن أبي حنيفة الدينوري : الأستن وزن أفعل : شجر يفشوفي منابته ويكثر ، إذا نظر إليه الناظر من بعيد شبهه بشخص الناس . رغبة الآمل للمرصفي - ٦ - ٢٣٩ .  
(٢) الكامل « شرح المرصفي » - ٦ - ٢٣٨ - ٢٣٩



وعلى هذا التأويل قال أبو تمام — وفيه عكس التشبيه — :  
وأحسن من نور يفتقه الندى      بياض العطايا في سواد المطالب  
وقال أعرابي قديم :

يزمّلون حديث الضغن بينهم      والضغن أسود أو في وجهه كلف  
فوصفه بما يتصور ويقوم في النفس ، كأنه يقول : لو كان صورة  
لكان هكذا .

وقال بعض المولدين :

وتدير عيناً في صحيفة فضة      كسواد يأس في بياض رجاء  
فاليأس على الحقيقة غير أسود ، لأنه لا يدرك بالعيان ، لكن صورته  
في المعقول وتمثله كذلك مجازاً ، والرجاء أيضاً على هذا التقدير في البياض<sup>(١)</sup> .  
ويقول ابن قتيبة الدينوري : والعرب تسمى الحية شيطاناً .  
ويقال : منه قول الله — عز وجل — : « طلعتها كأنه رموس الشياطين »<sup>(٢)</sup> ،  
وصفوة القول : أن في الآية ثلاثة أقوال :

١ — أن الشياطين : هم متمردة الجن القباح الصور والمناظر كما وقر في  
أذهان الناس .

٢ — أن الشياطين هم الحيات على جاري تسمية العرب .

٣ — أن الشياطين : شجر مخصوص منكر الصورة .

وعلى القولين الآخرين لا يكون التشبيه في الآية الكريمة بما نحن فيه  
من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وعلى القول الأول يكون منه .  
وبأدنى تأمل يظهر رجحان قول من ذهب إلى أن الشياطين هم المعروفون  
في أخيلتنا وتصوراتنا .

---

(١) العمدة — ١ — ١٩٥ — ١٩٦ (٢) أدب الكاتب — ١١٦



وقد كانت العرب تتمثلهم كما نتمثلهم اليوم على غاية الشناعة والبشاعة ،  
كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال ، ولهذا زعموا : أنهم بنات الله —  
تعالى عن ذلك علواً كبيراً !

وقد قال أبو النجم العجلي في بنته ظلامه :

كَأَنَّ ظِلَامَةً أَخْتُ شَيْبَانَ      يَتِيمَةٍ وَوَالِدَاهَا حَيَّانُ  
الْعُنُقُ مِنْهَا عُطْلٌ وَالْأَذْنَانُ      وَلَيْسَ فِي الرَّجْلِ إِلَّا خَيْطَانُ  
وَقُصَّةٌ قَدْ شَيَّطَتْهَا النَّيْرَانُ      فَهِيَ الَّتِي يُذْعَرُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ  
أَوْ تِلْكَ الَّتِي يَضْحَكُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ !

أفلا تراه قال ذلك وإن لم يره ، لما قُرِرَ في القلوب من نكارتة وشناعته  
وقال آخر في البقل :

وَفِي الْبَقْلِ إِنْ لَمْ يَدْفَعْ اللَّهُ شَرَّهُ      شَيَاطِينُ يَعْذُوبُ بَعْضُهُنَّ عَلَى بَعْضٍ  
وَقَالَ الرَّاجِزُ :

أَبْصَرْتُهَا تَلْتَهُمُ الثَّعْبَانَا      شَيْطَانَةٌ تَزُوجُ شَيْطَانَا  
وَيَذْكُرُ الثَّعَالِي : أَنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ كَانَ يَسْتَمْلِحُ قَوْلَ أَبِي عَلِيٍّ الْبَصِيرِ  
فِي أَبِي هَفَّانٍ وَيَسْتَظَرُّهُ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَفْشِدُهُ وَيَرُدُّهُ وَهُوَ :

لِي صَدِيقٌ فِي خَلْقَةِ الشَّيْطَانِ      وَعُقُولُ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ  
مَنْ تَظُنُّونَهُ فَقَالُوا جَمِيعاً      لَيْسَ هَذَا إِلَّا أَبَا هَفَّانِ

أَمثلة طريفة: لتسبيح المعقول بالمحموس .

قال مسلم بن الوليد :

أَذْكَى مِنَ الْمَسْكِ أَنْفَاساً وَبَهْجَتِهَا      أَرْقُ دِيَابَجَةً مِنْ رَقَةِ النَّفْسِ  
كَأَنَّ قَلْبِي وَشَاحَاهَا إِذَا خَطَرَتْ      وَقَلْبُهَا قُلُوبَهَا فِي الصَّمْتِ وَالْخَرَسِ (١)

(١) القلب بالضم : السوار .



تجري محبتها في قلب عاشقها جري السلامة في أعضاء منتكس

وقال أبو نواس — وبعدهونه غاية الغايات في هذا الباب — :

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لمنظومها سلك  
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك  
وأدرك منها الآخرون بقية من الروح في جسم أضربه النهك  
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك  
وقال :

وبدما ن سقيت الراح صرفا وأفق الليل مرتفع السجوف  
صفت وصفت زجاجتها عليها كعنى دق في ذهن لطيف  
وقال :

فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم  
وقال أبو تمام :

ومسافة كمسافة الهجر ارتقى في صدر باقى الحب والبرحاء  
وقال البحترى :

مشيب كنت السر أعيا بحمله محدثه أو ضاق صدر مذيعة  
وقال ابن الرومي :

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والغدر  
ففي وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر  
وقال ابن الزيات أو ماني الموسوس :

رب ليل أمد من نفس العا شق طولا قطعته بانتحاب  
وحديث ألد من نظر الرا مق بدله بسوء العتاب



ووصال أقل من لمحة البيا  
وقال السرى الرفاء فى الشمعة :

مفتولة مجدولة  
كانها عمر الفتى  
تحكى لنا قد الأسل<sup>(٢)</sup>  
والنار فيها كالآجل

وقال أبو هلال العسكرى :

وليلة كرجائى فى بنى زمنى  
وقال الصاحب بن عباد فى القاضى أبى الحسن مع هدية عطر بعث بها إليه :  
مسودة الوجه منسوباً إلى الفحّم  
يأبى القاضى الذى نفسى له  
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه  
فكأنما أهدى له أخلاقه  
وقال ابن حيدر :

مرحباً بالتي بها قُتلَ الهم م وعاشت مكارم الأخلاق  
هى فى رقة الصباية والشو  
لست أدرى أمن حدود الغوانى  
وقال العلوى الأصفهاني :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه  
وقال عبد الله بن حجاج :

وقينة تنعيمها فى الغنا  
أملح من قهقهة القمرى<sup>(٣)</sup>

غناؤها الممدود بى فاعل  
فعل الغنى المقصور بالعسر

وقال القاضى التنوخى :

أما ترى البرد قد وافى عساكره  
وعسكر الحركيف انساب منطلقا

(١) لهذه الأبيات قصة أقرأها فى زهر الآداب — ٣ — ١٦٤

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) لم ترو قهقهة القمرى فى غير هذا الشعر .



فانهض بنار إلى فحم كأنهما  
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا  
وقال يصف الشمس يوم غيم :

ويوم كأن الشمس من تحت غيمه  
إذا طلعت من فرجة فيه خلتها  
وقد مد ستراً فوقها فكأنها  
وقال أمين الدولة التنوخي :

أتانا بكانون يشبُّ ضرامه  
كأن احمرار النار من تحت فحمة

وقال الشهاب محمود في بعض الحصون :

كأنه وكان الجو يكنفه  
وهم تكنفه في طيه الفكر

وقال ابن الزقاق :

وكم طرقت قباب الحى مرتدباً  
والليل يسترني غريب سدفته

وقال :

زارت على شط المزار متيام  
والطيف يخفي في الظلام كما اختفى  
وقال العماد الأصبهاني :

أجدك أن قد جاد وقت التعبس  
وعاطيته صهباء من فيه مزجها  
غزال بوصل لي وأصبح مؤنسى  
كرقة شعري أو كدين ابن يونس

(١) المعاجر جمع معجر كمنبر : ثوب تغطي به المرأة رأسها .



ويونس هذا : هو كمال الدين الشافعي ، وكان يتهم بغلبة العلوم العقلية عليه (١) .  
وقال الوراق التميمي :

أورد قلبي الردا لام عذار بدا  
أسود كالغنى في أبيض مثل الهدى  
وقال شاعر :

يسقيك من كفه مدا ما ألد من غفلة الرقيب  
كانها إذا صفت ورقته شكوى حب إلى حبيب  
وقال آخر :

اسقني إن يومنا يوم «رام» ولرام فضل على الأيام  
من شراب ألد من نظر المعشوق م في وجه عاشق بابتسام  
ورام : هو يوم الحادى والعشرين من كل شهر فارسى ، وهو يوم يلذون  
فيه ويفرحون .

وكذلك « بهرام » وهو يوم العشرين .  
وقال آخر :

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما ذلا بعز مؤبد  
وما بال ركن المجد أمسى مهدما فقللا أصبنا بابن يحيى محمد  
فقلت فهلا متما عند موته فقد كنتما عبديه فى كل مشهد  
فقللا أقننا كى نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد  
وقال آخر :

اسقنى خمرة كركة دينى أو كعقلى ولا أقول كحالى  
خيفة من توهم الناس أنى قلت هذا فى موطن لسؤال



وقال آخر :

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول  
وقال آخر :

فصرت أذل من معنى دقيق به فقر إلى مبنى جليل  
وبما سارت به الأمثال قول القاضي التنوخي - وهو ممن يسلك هذه  
الطريقة كثيراً - :

وكان النجوم بين سناها سنن لاح بينهن ابتداع  
فإنه لما شاع وصف السنة باليباض والإشراق ، كقوله - عليه الصلاة  
والسلام - : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها ، واشتهرت البدعة وكل  
ما ليس بحق بالظلمة والسواد كقوله : ليل الشرك ، أقام هذا الشاعر السنن  
مقام الأجناس التي لها إشراق ويباض ، والبدع مقام أجناس السواد والظلمة  
فصار ذلك عنده كشبه محسوس بمحسوس ، فجاز له التشبيه على هذا التقدير  
كقول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق  
فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد ، كقول من  
يناله مكروه : أسودت الدنيا في عيني ، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر  
بالسواد من الظلام فشبهه فؤاده به ، ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق ،  
والقلب القاسي يوصف بشدة السواد ، فصار هذا القلب عنده أصلاً في  
في السواد على هذا التقدير .

ومثل فؤاد الخلى من العشق وجه الناصبي<sup>(١)</sup> .

والشيعة تصف وجه الناصبي بالسواد ، ويشبهه به كل شديد السواد كما قال  
الناشي الأصغر :

---

(١) الناصبي : الذي يدين ببعض على - كرم الله وجهه - !



يا خليلي وصاحبي من لؤي بن غالب  
حكم الحب جائز موجب غير واجب  
يلدغ الناس إذ تعقرب م لدغ العقارب  
ومثله قول شاعر :

لك صدغ كأنه قلب فرعو ن ووجه كأنه يد موسى  
وفم قد أتى برهان عيسى فهو بالطيب منه يحيي النفوسا  
وقال المطرزي : يجعل البياض مثلاً للصلاح ، والسواد مثلاً للفساد والخيبة  
كقول البستي :

حكمت معانيه في أثناء أسطره أثارك البيض في أحوالي السود  
وقال :

ليس السكواكب في الظلماء أحسن من نعمائك البيض في آمالي السود  
ولعله مأخوذ من قول أبي تمام :

وأحسن من نور تفتقه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب  
ومما يتصل بذلك قول الشاعر :

أسفر ضوء الصبح عن وجهه فقام خال الخد فيه بلال  
كأنما الخال على خده ساعة هجر في ليالي الوصال  
فجعل ليالي الوصل بيضا وساعة الهجر سوداء .

وقد نظر إليه المعتمد بن عباد الأندلسي في قوله (١) :

أكثرت هجرك غير أنك ربما عطفتك أحيانا على أمور  
فكأنما زمن التهاجر بيننا ليل وساعات الوصال بدور  
ومما يتفق مع قول الشاعر الأول قول الأسعد بن بليطة (٢) :

---

(١) وفيات الأعيان - ٢ - ٣٨ (٢) الذخيرة - ٢ - ٢٩٣



تتنفس الصهباء في لهوانه      كنتنفس الريحان في الآصال  
وكأنما الخيلان في وجناته      ساعات هجر في زمان وصال  
وقول شاعر :

مليح كالغزال وكالغزاله      رأيت به هلالا في غلاله  
كان بياض غرته رشاد      كان سواد طرته ضلاله  
كان الله صيره نبيا      وصير حسنه أقوى دلاله  
إذا ما ازددت وصلازدت خبلا      كان حبال وصلك لي حباله

وما جاء في شعر العصريين قول البارودي :

وصاحب كهوم النفس معترض      ما بين ترقة منى وأحشاء  
وقول حافظ في وصف القطار :

مر كاللمح لم تسكد تقف العين م      على ظل جرمه المتراى  
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيه م      تولي في يقظة أم منام  
وقول الدكتور زكي مبارك :

وجنّ على الليل حتى حسبته      جفاء كريم أو رجاء لثيم

ومن النثر المترجم عن لغة الغرب :

إن القاطرة التي تجرى اليوم على السكة الحديدية جبارة كالإرادة الإنسانية .  
جسورة خفيفة كالأمل (١) .

ومن قصيدة للشاعر الروسي «لرمنتوف» ، عنوانها : ليلة شاعر عرييد :  
ما أحوجنى إلى مياه مطهرة وزنا بق ييضاء كأطياف ملائكة أبرار .  
وهذه هي الخمر ، الخمر المبدعة تهرق أمامي كالأمل ، وتسطع كالعزام ،  
وتضحك كالنسيان (٢) . . . .

(٢) أخبار اليوم ١ - ١ - ١٩٤٩

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٩٦



وهذا اللون من التشبيه دليل التأمل والنظر في الحالات النفسية المختلفة التي تظهر آثارها على الملاح ، كما أنه دليل على شدة تتبع الشاعر لهذه الحالات ، حتى أصبحت من الوضوح بحيث تشبه بها أوضح المظاهر الطبيعية وأشدّها بريقاً ولمعانا .

وإذا اتصل هذا بالتفكير الفلسفي القائم على التأمل في النفس ومعرفة أحوالها ، فإنه يتصل كذلك بالصفة العظيمة التي تؤدي إلى التفنن في طرق الأداء (١) .

ورأي أن هذا النوع من التشبيه عنوان الترف العقلي ، ودليل الثروة الفكرية والقدرة على اقتناص المعاني من أغوارها السحيقة ، وجوب آفاق الأخيلة الرحبة بجناح قوي الخفق .

وهو لا يسلس إلا لإنسان لماح الذكاء شفاف العقل ، عميق الملاحظة ، عامر الواعية الباطنية بالمعاني المختلفة ، والنظائر والأشباه الكثيرة .  
والنوع الجيد منه المتلائم الطرفين لا يعيا الذهن بفهمه ، ولا يشعر بغرابته ، بل يلذه ويستروح إليه ، ويحس له نداوة وحلاوة لما تضمنه من طرافة وملاحة .



## الفصل التاسع

### التشبيه الرمزى

هذا موضوع له صلة وثيقة بالفصل السابق لأن في كليهما تجريداً وتصفية وإرهافاً وإطافاً ونفوذاً إلى ما وراء الحواس الظاهرة ، واستلهاً القوى الباطنية ، واستشفاف الأشياء غير المنظورة وإن كانت الرمزية أكثر تغلغلاً في الخيال ، وتدسساً في الوهم ، وتدلّياً في أعماق الفناء .

ومها يكن فهذا اللون بدع من الشعر العربى دخيل عليه ، ولهذا لا تستسيغه الأذواق العربية الخالصة إلا في أحوال يسودها الاعتدال والائزان ، فتظل الألفاظ ممسكة بزمام المعانى مسيطرة عليها ولو بقدر محدود .

إن الرمزية المقبولة هى التى يكون لها سند من الفهم الإنسانى العام ، ومن الإدراك الصادق بالبصيرة الصافية ، ومن تعاون العقل الباطن والعقل الواعى ، أو من المثالية وما يكمن وراء المادة من قوانين طبيعية ، وبذلك تكون مظهرآ من مظاهر الفن ووسيلة للتعبير عما تعجز عنه اللغة المتعارفة ، ومنفذآ للخروج من الجوف الفكرى المألوف ، أو الميدان الحسى الرتيب الذى تواضع عليه الناس ، والتحرر من القيود التى تغل التفكير وتقف به عند حدود النظرات المباشرة للأشياء من زاوية واحدة دائماً <sup>(١)</sup> .

ونحن لا ننكر أن بعض الشاعريات المطبوعة الملهممة تستطيع أن تنفجنا بمعان إضافية غير المعانى الوضعية المستفادة من الألفاظ ، ولكننا لا نقر مسخ الألفاظ وتعطيل وظيفتها جملة ومواجهتنا بالمعانى عارية من صورها الطبيعية

---

(١) الأصول الفنية للأدب - ١٧٦



وأكسبتها التي تتبرج فيها وتطل علينا من نوافذها ، ففهم على وجوهنا ضالين في أودية مجهولة وفياف مهمة لاتحدها صُوى ولا معالم ، ولا تسلم سالكها إلى نهاية أمينة .

• إننا كما يقول أرسطو : في حاجة لاستعارة صور من عالم المراتبات ، لنستعين بها على التعبير الخفي<sup>(١)</sup> .

غير أن هذه الصور المستعارة لابد أن يشيع فيها الانسجام ، ويؤلف شملها التناسب ، وتؤاخي بينها لحة القرابة أو صلة المودة ، وعلى قدر منزلتها من ذلك يكون حظها من الوضوح أو الغموض .

خذ مثلاً قول « بودلير » من قصيدة عنوانها « الجمال » :

أنا جميلة أيها الفنانون كالم من حجر !

فهذا التشبيه غريب المعنى ، لأن الحلم لا يكون من حجر .

والواضح : أنه قصد الجمال الذي لا يبكي ولا يتألم ولا يضحك أو يفرح

دائماً ، وإنما هو صامت عميق الصمت<sup>(٢)</sup> .

ومثله قوله : تتبخر كل زهرة كالجمرة ، ويهتز السكان كفواد معنى ،

وقلس حزين ، وبحران كئيب ، والسماء واجمة جميلة كمدبح رحيب !

ويقول « ملارم » من قصيدة حوار :

وتذهل عيناها في انتظار المجهول ، وتتأمل أحلام صباها متناثرة كأنها

جواهر باردة !

ولاربية أن هذه التشبيهات مبهمة تكلمها هالة من الضباب وعدم الوضوح

الذي يحولها إلى رموز<sup>(٣)</sup> .

ومن يقرأ مثل هذه التشبيهات لابد أن تطول وقفته عليها ليصل إلى فهم

---

(١) خواطر الخيال المرحوم كامل حجاج - ٢٨ .

(٢) الرمزية والأدب العربي الحديث الأستاذ أنطون غطاس - ٨٧ - ٨٨ .

(٣) الرمزية والأدب العربي الحديث - ١٠ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٨ .



ما يراد منها ، ولكنه سيعود بعد طول الشوط والاستنجاد بمقوله  
ومنقوله بالخية المؤلمة لأن المعنى فى بطن الشاعر كما يقولون !  
فهذه المعانى لاتفهم فهما جليا ولهذا يعسر التعبير عنها ، لأنها لاتجرب فى  
فنهج الألفاظ القويم المأثور ولا تقاس بمقاييس التعبير المألوف ، ولكنها  
تذاق بالحس الباطنى وحده ، أو تذاق كما يذاق اللبن والماء ! وما طعم اللبن  
والماء ؟

وقد تستطيع أن تقول : إن شائنا مع بعضها المستحسن ، كشأن أبى تمام  
مع هذه المغنية الفارسية التى يقول فيها :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدى فأعجبني شجاها  
ولاشك أن ما مثلنا به يعد من الضرب المعتدل ، ولهذا يمكن أن نسيغ  
بعضه ، فنشبيه الزهرة تتبخر بالجمرة ، واهتزاز الكمان بالفؤاد المعنى  
لايكدنا تصوره لانتزاعه من عالم الحس الذى قرب فهمه منا ، ولكن تشبيه  
المرأة الجميلة بحلم من الحجر لاتجد له تأويلا مقنعا وإن جهدت فى الاحتيال له .  
واليس ذلك بعجيب فالأمر كما يقول « ملارمة » ، إننى ابتدع لغة منها  
ينبثق شعر جديد ، شعر لا يدور على وصف الشئ بل على تأثيره ، لايكون  
الببت الشعرى فيه من ألفاظ ذات معنى ، بل من ألفاظ ذات نوايا ، بحيث  
تغيب قيم الألفاظ المعنوية أمام شعورنا .<sup>(١)</sup>

ويقول : إن البرناسيين<sup>(٢)</sup> يتناولون الشئ كله فيفقدون بذلك سحر  
الخفاء ، ويسلبون الذهن نشوة الطرب التى ينشئها فيه اعتقاده بأنه يخلق .  
إن الشاعر إذا سمى الشئ باسمه فقد أفقد القصيدة ثلاثة أرباع المتعة ،  
وما هذه المتعة إلا أثر السعادة التى يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا  
رويدا فى أودية الحس ، وذلك هو الحلم .

(١) المصدر السابق - ٥٧

(٢) البرناسية : طريقة تبغض الشعر العاطفى وتؤثر جانب الصنعة على جانب الطبيعة .



فالشعر الرمزي ينكر الواضح ، وينفر من المحدود ، ويطلب المتخيل ، ويبحث عن المشتبه ، ويحملك على أن تحلم لآعلى أن تفكر فالألفاظ عندهم لم تعد تدل على الأفكار أو الصور التي وضعت لها ، وإنما تدل كما تدل الرموز على مناسبات بعيدة ومشابهات مبهمه<sup>(١)</sup> .

ولكن أصحاب الطريقة الرمزية يرون أنهم معذرون فهم يقولون : إننا لا نعرف الشعور والفكرة إلا بطريقتين : دراسة تعبيرها الفسيولوجي ، ومعرفة الوجدان .

ولكن الفسيولوجي ما هو إلا نتيجة الانفعال ، وليس بالانفعال نفسه ، ومعرفة الوجدان عمل بسيط لا يستطيع تمثيله أو تقليده .

وإذن ما هي الفكرة والشعور باعتبارهما الذاتى ؟

إننا لانستطيع أن نعبر عن حقيقتهما ، كل بيان لها نراه مناقضا للآخر ، لأنها أشياء غير مادية ، ويأتى التصور لإغاثتنا بهذا بأن يجعلنا نسند إلى العواطف والفكر أشكال الأشياء المادية .

وهذا الإسناد الإلهامى يحدث فى الكلام الاعتيادى عدة صيغ تضطرد فى الازدياد والتكاثر لدرجة لانهايه لها فى الكلام الفنى .

وربما استغرب القارىء أو استهجن الأوصاف التى يسندها علماء البسيكولوجيا إلى الفكرة ، ولكن الغاية تبرر الواسطة ، وما هى إلا وسائل يستعان بها على فهم الفكرة ، فتراهم يعيرون الفكرة وزنا ، فيقولون : فكرة ثقيلة وخفيفة .

ويعيرونها لونا ، فيقولون : فكرة قائمة وسوداء وصافية ، ويعيرونها أبعادا فيقولون . فكرة عريضة وضيقة ومرتفعة وعميقة وسميكة ، ويعيرونها خاصية المتانة ، فيقولون : فكرة متينة ، وينسبون إليها مذاقا ، فيقولون :

(١) دفاع عن البلاغة للأستاذ الزيات بك - ١٣٢ .



فكرة حلوة ومرة وتافهة ، ويعبرون الشعور حرارة ، فيقولون : قلب بارد وحار .

وهذا منبع الإنشاء الشعري ، ولولاه لاقتصر الشعراء على تبيان أسباب العواطف ونتائجها وأحجموا عن تصور العواطف نفسها .

وإن تعدد الرموز المستعملة في تمثيل الحب تكاد تضحكننا ، إذ تظهر عجز الكتاب عن تعيين شيء غير مادي ، مثل قول : تديو فيل جوتتيه ، عن المراهقين : إن نفوسهم كلون اللبن !

وحينما يجد الشاعر نفسه غير قادر على إظهار النفس ، يضطر لأن يبحث عن طرق غير رأسية ، وتشبيهات ليكشف عنها الحجب ، فالصور سر الكلام وروحه <sup>(١)</sup> .

أو كما يقول - تشارلتن - :

قد يريد الشاعر أحيانا أن يقول ما يستحيل قوله في ألفاظ ، فثم ضروب من الخيال الجامح تحطم حدود الألفاظ ثم تلوذ بالفرار لأن طبيعتها تأتي عليها السكينة والقرار .

وهناك من الشعراء من يشطحون بخيالهم إلى تلك الضروب الشموس الشرود فلا يرون من الحياة إلا جوانبها الغوامض الدقاق دون ألوانها المحددة الواضحة ، وهم من يطلق عليهم في الآداب الأوربية : اسم الشعراء الابتداعيين تميزا لهم عن فريق الاتباعيين الذين يدعون بخيالهم وتفكيرهم للقيود والحدود .

فهؤلاء الشعراء الابتداعيون يريدون أن يعبروا عن تجارب مرت بهم وخواطر طافت بأذهانهم مما يستعصى على التعبير لأنهم إن ساقوها في أدوات التعبير المألوفة باتت كالتجارب والخواطر المألوفة وهي ليست كذلك .

---

(١) خواطر الخيال - ٣٨ - ٣٩



وبديهي أنك لو جسمت الظل لم يعد ظلا ، لهذا نرى هؤلاء الشعراء ينتقون للتعبير عما في نفوسهم ألفاظا توحى بالمعاني ولا تحدد لها ، وذلك باستخدام كلمات لم يكثر دورانها على الألسنة ولم تألفها الأسماع ، فتكون غرابتها وندرتها سببا في إبهامها وعدم تحديدها ، لأنها عندئذ تكون كالوعاء المليء بمادة مجهولة لا تدرى على وجه التحديد والدقة على أى شيء يحوى . وفي مثل هذه الحالات يكون للإبهام قوة أكثر مما للوضوح <sup>(١)</sup> . ومن عاداتهم ألا يتقيدوا بهذه القواعد الجافة التي تضغط مشاعرهم ، وتكبل حياتهم ، وتعوقهم عن التوثب والانطلاق .

ولهذا نراهم قد أهملوا حروف التشبيه التي تجمع بين المشبه والمشبه به ولا ريب في أن بقاء عضوى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية بلا رابط يربط بينهما يستفز الصور المتقاربة في الضمير ويشيرها جميعا ، غير أن الإسراف والغلو في هذا الباب يجعل من الألفاظ مجرد إشارات تعجز عن توليد الجو النفسى فى القارىء . فتفقد الألفاظ غرضها ورسالتها .

وهم إلى ذلك يحسون علاقات وثيقة بين الألوان والأصوات والعطور وأن هذه الأشياء تعبر عن الفكر ولل فكر علاقة أكيدة بها ، لأن الله - سبحانه - عندما خلق الكون أبدعه كوحدة كاملة لا تتجزأ .

فالحواس إذا يتحول بعضها إلى بعض من حيث المعقول الذى تنقله إلى النفس ، والاختلاف البين بين مظاهر المادة ، إنما هو اختلاف فى العرض ، أما الجواهر فواحدة .

و « لرمبو » قصيدة تسمى : « قصيدة الحروف » ، الصوتية فيها نظرية السمع الملون ، وهو باب من أبواب نظرية « العلاقات » . وقد خلع رمبرو على الحروف فيها شخصية ذاتية تنطبق عليه وحده :



فالحرف A يوحى اللون الأسود فى بريق أجنحة الذباب تتمثل أسرابا حول الأقدار النتنه فى خليج عميق الظل .

و E يوحى طهارة الدخان وثلوج الذرا والملوك البيض .

و I يوحى الدم الأحمر ، وضحكة الشفاه الجميلة فى غضبتها وسكرتها .

و U يوحى هزة البحار ، وهـدوء مراعى انتشرت فيها القطعان ، وأخاديد الجين .

و O يوحى دقة التصوير الصارخ ، كما يوحى سكون العوالم والملائكة ، ولون البنفسج فى عيني حبيبه .

فالحروف قد حملت هذه الألوان عرضا واتفاقا .

وجاء بعده من رأى غير ذلك فألبسها ألوانا تختلف عن التى وشاها بها رمبو<sup>(١)</sup> .

واللون الأحمر إجمالا فى شعر « رمبو » ، يرمز إلى الحركة والحياة الصاخبة ، والدم والمبدأ وشهوة الحب والنشوة العارضة ، وقد يرمز إلى القتال والثورة والغضب والأعاصير .

واللون الأخضر يمثل السكون والطبيعة والبحر بما فيه من سعة الانطلاق . ويمتزج الأخضر بفكرة المستحيل الذى لا يبلغه الإنسان : من فردوس الطفولة والطهر والانعقاد والخلاص .

وقد يستخدم عنده الأخضر للوصف غير المألوف فيخلع على عازفى البيانو صفة الأخضرار .

وقد حظى اللون الأزرق عنده حظوة واسعة ، وفيه يرمز إلى العالم الذى لا يعرف حدوداً ولا تخوماً ، وفيه انطلاق إلى ما وراء المادة السكونية .

---

(١) الرمزية والأدب العربى - ٨٧ - ٨٨ - ٥٣ .



وهو غشاوة السكون التي تكشف عوالم الملائكة ، والألحان الموسيقية التي تبلغ الأعماق .

واللون البنفسجي لون الرؤى الصوفية .

وفي الأصفر والذهبي لون المرض والانقباض ، وقد يرتبط الأصفر بشعور الحزن والتبرم من الحياة ، والتحفز نحو عالم أظھر وأمثل .

ويترك اللون الأبيض في نفس «رمبو» جوا من الطهر المثالي الذي لا يبلغه الإنسان في رجسه وذنسه ، وفي البياض هدأة وسكينة ولون من الفراغ والجمود .

والحق أن الشعراء منذ القدم كانوا يرون في الألوان خصائص تتقارب من الاعتبارات الرمزية المذكورة ، إلا أن الرمزيين أسرفوا ، وجعلوا من الاتجاه نظريات مستقلة بذاتها .

وفيما سبق ورد شيء من هذا كتشبيه السنة والوصال والرجاء والعطايا والهدى بالبياض ، والبدعة والصدود واليأس والمطالب والغنى بالسواد إلخ . وفي انعكاس المؤثرات على النفس واختلاط الحواس في التعبير عنها نجد لمحات في الشعر العربي وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ الرمزيات الخالصة . فالمتنبى يقول في مدح كافور :

كأن كل سؤال في مسامعه      قيص يوسف في أجفان يعقوب  
يعنى أنه يفرح بسؤال السامع فرح يعقوب برؤية قيص يوسف .  
فجعل ما يسمع كأنه مما يبصر .

وقوله في أبي بكر الطائى - وقد نام وقت إنشاده - :

إن القوافي لم تُتمك وإنما      محقتك حتى صرت ما لا يوجد  
فكأن أذنك فوك حين سمعتها      وكأنها بما سكرت المرقد



فجعل الأذن تذوق وجعل القصيدة مما يشرب .  
ويقول من قصيدة في مدح سيف الدولة :  
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يُبصرن بالآذان  
فجعل الأذن تبصر .

ويقول في مدح عضد الدولة :  
تنشد أثوابنا مدائحها بألسن ماهر أفواه  
إذا مررنا على الأصم بها أغنته عن مسمعيه عيناه  
فجعل العين تسمع .

ويقول في مدح ابن العميد :  
فدعاك حسدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقك الرئيس الأكبر  
خلفت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ مسمعي من أبصرا  
فجعل العين تسمع .

والمعنى أن ما يراه الناس فيك من الصفات الشريفة التي خصك الله بها ،  
تؤذن بأنه قد فضلك على الرؤساء ، وجعلك الأكبر بينهم وإن لم ينطق بذلك  
لفظا ، فكانت هذه الصفات الظاهرة فيك كالخط لكلامه يفهم منها  
ما يفهم منه .

ثم مثلها بالخط ، فإن معناه إنما يتناول بالبصر فيستفيد منه القلب  
ما يستفيدة بسماع الآذان ، فكانه لفظ مسموع .  
هذا قول البازجي في تفسير البيت (١) .

والمعنى المراد في رأيي : أن هذه الصفات النبيلة التي منحها الله إياها قامت  
دلالة الحال مقام الكلام الإلهي بتفضيله على غيره من الناس .



وكلام الله — تعالى — لا يسمع بجارحة الأذن كما تسمع الأصوات  
الحادثة، بل يسمع بلا كيفية ولا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها<sup>(١)</sup>.  
كما في تكليمه لموسى — عليه السلام — .

وكذلك هذه الصفات — وقد خلفت كلام الخالق في ادعاء الشاعر —  
لا تدرك بالبصر ، ولكن بالحس الباطني الروحاني ، والإدراك على هذه  
الصفة يتسامى فوق الجوارح الظاهرة جميعاً ، ويلغىها إلغاء تاماً ، فيسمع  
الإنسان ويبصر ويذوق وما إلى ذلك بجميع كيانه ، وعلى هذا فليس غريباً  
أن يشبه هذه الصفات بالخط الذي يملأ مسمعى من أبصر ، لأن العين يصح  
أن تسمع في هذه الحال .

ولتقريب ذلك نضرب مثلاً بما يقع في الأحلام ؛ فقد يرى الإنسان  
في نومه أشياء لا جد لها ، ويسمع ألواناً من الأصوات ، وأفانين من  
القول ، دون أن يكون للعين والأذن دخل في ذلك ، فإنهما معطلتان  
بلا ريب .

وفي مثل ذلك يقول البحترى :

بنفسى خيالاً من أثيلة كلها	تأوّهت من وجد تعرض يطمع
ترى مقلتي ما لا ترى من لقائه	وتسمع أذنى رجع ما ليس تسمع

ويقول تميم بن المعز :

ترى عذاربه قد قاما بمعذرتي	عند العذول فيغدو وهو يعذرتي
ريم كأن له في كل جارحة	عقد آ من الحسن أو نوعاً من الفتن
كأن جوهره من لفظه عرض	فليس تحويه إلا أعين الفطن
أخفى من السر لكن حسن صورته	إذا تأملته أبدى من العلن

(١) تفسير النسفى — ١ — ٥٧٢ ط . المعارف . الانتصاف على تفسير الكشاف

لابن المنير — ١ — ٣٤٦ .



والشاهد في البيت الثالث وهو الرؤية بعين الفطنة .

وكقول العقاد يصف الكروان :

كم صيحة لك في الظلام كأنها دقات صدر للدَّجَنَةِ عانى

خفاقة النغمات تطفر في الدجى فوق النسائم طفرة النشوان

إني لأسمع منك إذ ناديتنى معنى يقصر عنه كل بيان

والشاهد في البيت الرابع حيث جعل المعنى يسمع .

ويقول صرَّدر :

وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت بتحية منه فعينى تسمع

فجعل العين أذنا تسمع .

ويقول :

مستنشق عطر الثناء بسمعه ما كل طيبة تشم بمنخر

فجعل الأذن أنفا تشم .

وتقول زوجة قتادة بن مغرب الشكرى تهجوه بالبخر :

فما جيفة الخنزير عند مغرب قنادة إلا ريح مسك وغالية

فكيف اصطبارى يا قتادة بعدما شمت الذى من فيك أثنأى صماخيه .

أثنأى : أفسد . والمعنى : أنها تخاطب زوجها بأنها لا تستطيع الصبر

على معاشرته بعد ما شمت من خبث نكته ما أثر في أذنها فكيف حال أنفها !

فجعلت الأذن تشم كالأنف كذلك .

ويقول ابن رشيق .

فشربتها من راحتيه م كأنها من وجنتيه

وكانها فى فعلها تحكى الذى فى ناظره

وأجازه أبو حديدة الشاعر فقال :

وشمت وردة خده نظرا ونرجس مقلته



فقال له ابن رشيق :

أحسننت في شمسك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حيث يقول :  
كالخط يملأ مسمعى من أبصرا<sup>(١)</sup>

وقال الدكتور طه حسين باشا من مقالة يرثي بها الأستاذ عبد الرحيم محمود<sup>(٢)</sup>.... فإن أراد الصمت فابتسامه طويلة ترسم على ثغره ، ويشبع نورها فيما يتحدث به إليك من الألفاظ ، وحتى في هذه الحال كنت أفهم من هذا النور الذى تحسه الأذن ، وقد لا تراه العين معنى ابتسامه وما أكثر ما كان لا ابتسامه من المعانى .  
فجعل الأذن تبصر .

ومما جاء من ذلك فى القرآن الكريم قوله - تعالى - : ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ،

جعل ما يرى مما يذاق ، لأن حس الذائق - كما يقول العسكري - لإدراك ما يذوقه قوى وللذوق فضل على غيره من الحواس ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى شيئا ولم يعرفه شمه ، فإن عرفه وإلا ذاقه ، لما يعلم من أن للذوق فضلا فى تبين الأشياء .<sup>(٣)</sup>

وصور البيان الرمزي فى جملة يكثُر فى شعر الغربيين ، وشعر المعاصرين من العرب الذين يتابعونهم فى مناهج تفكيرهم وأخيلتهم ، وبخاصة إخواننا شعراء المهجر الذين يقيمون بالدنيا الجديدة .

وشعراء لبنان أكثر البلاد العربية إيغالا فى هذا النوع لتأثرهم بالثقافة الفرنسية أكثر من غيرهم .

وفى مصر لا يظهر أثره واضحا فى الشعر ، لأن الشعراء الكبار الذين

(١) بدائع البدائة لابن ظافر الازدى - ١ - ١١٤ .

(٢) الاهرام - ١١ - ٨ - ١٩٥١ (٣) الصناعتين - ٢٦٥



لحقوا بالرفيق الأعلى أمثال شوقي وحافظ ومطران وغيرهم لم يتركوا للخلف رسوماً منه يسير على هداها ويتخذها إماماً ، وهم بموضع القدوة لمن بعدهم . والشعراء الذين تغلب عليهم الثقافة العربية ينكرونه أشد الإنكار ولا يتذوقونه بحال ، ويعدونهم عيا وحسراً وقصوراً في العبارة عن تأدية المعنى ، بل يعدونهم نوعاً من الهراء والعبث .

والعقاد وهو من زعماء الحركة الابتداعية يزرى عليه ويضيق به ويعد أهله مرضى وقد حمل عليهم حملة شعواء في بعض مقالاته<sup>(١)</sup> .

هذا كله مما فت في عضد المفتونين به فلم ينفق له سوق ولم تحقق له راية ولكنه مع هذا لا يعدم له أنصاراً وشيعة بمصر على رأسهم الدكتور ، بشر فارس ، وله في ذلك جولات شعرية منها قصيدته التي عنوانها : إلى زائرة<sup>(٢)</sup> ،

لو كنت ناصعة الجبين	هيات تنفضني الزيارة
ما روعة اللفظ المبين	السحر من وحى الإشارة
ظل على وهج الجبين	رسمته معجزة الإشارة
خط تساقط كالحزين	أرخی على العزم انكساره

يريد بالظل على وهج الجبين . . . . . مقلة العين . . . . . وبالخط المتساقط الحزين . . . . . جفونها الفاترة .

وكثيراً ما جادل النقاد دفاعاً عن مذهبه هذا بدون أن يقنعهم أو يقنعوه وكذلك تجد لهذا اللون لمحات واضحة لا تصل إلى حد الإغراق في شعر الدكتور زكي أبو شادي والأستاذ محمود حسن إسماعيل وإن كان الأخير لا ينطق بغير العربية .

وأستطيع أن أجزم بحكم تجاربي أن النفس المصرية السهلة البسيطة البيضاء

(١) الكتاب - ١ - ١٩٤٨

(٢) المقنطف شهر ١٢ / ١٩٤٤ .



القريبة الغور، الناشئة في بلاد منبسطة الرقعة، متطامنة الجبال، معتدلة الجو، صافية السماء، ضاحية الشمس، سافرة الأقطار والكواكب، بعيدة عن تقلبات الجو. وتغيرات الطبيعة، لا تطرب لهذا النوع ولا تستجيب إليه، وسيظل يمشى متعشراً حتى تنشأ أجيال جديدة ربما وجدت فيه شيئاً يذاق. فهذا الفن غريب على المزاج المصرى الذى تحيطه الواقعية من كل جانب ويطالعه الوضوح والصفاء فى الأرض والسماء، وتلفه الطبيعة الهادئة الوديعه الثابتة فى شملة من السكينة والطمانينة، فلا جبال تناطح السماء وتكفل قممها الثلوج، وتأوى إلى مغاورها العميقة شياطين الإنس والجن، ولا غابات فيح صفيقة الظلال تسكن تحت أشجارها المتشابكة ما لا يحيط به الوهم من أنواع الوحوش والزواحف والحشرات. ولا سماء قائمة الإهاب داكنة الجلباب ملثمة القمرين ضريرة النجوم تقهقه بهزيم الرعود وتبسم بشقيقة البروق ويوحى تلبد أساريرها وغموض قسامتها بالفراغ والرهبه والوجل ويشير الهواجس والوساوس ويبعث الفكر الخادر إلى اكتناه ما تحجب وراءها من حقائق واكتن من أسرار، والتماس تفسير لهذه الظواهر المهمة المعجبة المرعبة معا!

وكلنا يذكر حينما رأى قوس قزح أول مرة مبلغ ما أوحى إليه من التأويلات والتعليقات العريقة فى الوهم، وكيف ذهب به الخيال فى شأنه كل مذهب ومالت به الظنون كل ميل.

وأحسب أن هذا من الأسباب التى جعلت شعراء سوريا ولبنان أقرب إلى اعتناق الرمزية من إخوانهم المصريين، فوق ما قدمناه من تأثيرهم بالثقافة الغربية.



## الفصل العاشر

### التشبيه المتعدد

الأصل في التشبيه : أن يأتي مفرد الطرفين ؛ كان تشبه شيئاً بشيء في فقرة من النثر أو بيت من الشعر كقول الحسن البصري : بدن لا يشتكى مثل مال لا يزكى .

وقول ابن قيس الرقيات في مدح عبد الملك بن مروان :  
يأتلق التاج فوق مفرقه      على جبين كأنه الذهب  
ولهذا لم يقع التشبيه متعدداً في القرآن الكريم ، فلم يحىء فيه تشبيه شيئين بشيئين ولا أكثر من ذلك ، وإنما جاء تشبيه واحد بواحد فيما ورد من أنواع التشبيه جرياً على أعراق البلاغة الأصلية التي تتفرع من التكلف والإغراق كقوله — تعالى — : « فكانت وردة كالدهان » فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبراً .

ولكن يتراخى المدة عدل الشعراء عن البساطة والقصد ، إلى التعقيد والإسهاب ، ورغبوا في التزيين والتتميق ، والمبالغة في الوصف ، والافتتان في التصوير ، فكان أن رأينا هذا التعدد الذي بلغ حيناً حد الإملال .  
وأبسط ألوان التعدد :

١ — أن يتعدد المشبه دون المشبه به ، ويسمى تشبيه التسوية .  
سمى بذلك للتسوية فيه بين مشبهاته ، كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالي      كلاهما كالليالي  
وثغره في صفاء      وأدمعى كاللآلي



وقول البحترى :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجون نجوم  
٢ — أن يتعدد المشبه به دون المشبه وهو أكثر من الأول ،  
ويسمى تشبيه الجمع .

سمى بذلك للجمع بين المشبهات به .

كقول العطوى :

وكم قالوا تمن فقلت كأس يطوف بها قضيب في كшиб

وندما ن يساقطني حديثاً كاحظ الحب أو غص الرقيب

وقول بعضهم في الفضل بن الربيع :

كم من مقيم ببغداد على طمع لولا رجاء أبي العباس لم يقم

البدر إن نظروا والبحر إن رغبوا والحصن إن رهبوا والسيف ذو النقم

وقول آخر :

والثريا كأكرة أو لجام أو بنان أو طائر أو وشاح

وقول البحترى في وصف ضمور المطايا :

كالقسي المعطفات بل الأسهم م مبرية بل الأقم — لام

وقوله :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح

ويقول المرتضى : إنه جمع فيه كل ما وصف به الثغر <sup>(١)</sup> .

وقد زاد عليه الحريري في قوله :

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلوع وعن حجب

وبعض الناس يروى بيت البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ أوفضة أو برد أو أقاح

(١) أمالي المرتضى — ٤ — ٨٦



وهى — كما زعموا — رواية أهل الأندلس والمغرب ، فيكون الشجر حينئذ مشبها بأربعة أشياء .

وقد تقدم البحترى أبو تمام بقوله :

وثناياك إنها إغريض ولآل توم وبرق وميض <sup>(١)</sup>  
فشبه الثنايا بثلاثة أشياء حقيقية ، لأن حكم الواو غير حكم أو ، لاسيما وقد أتى بالتشبيه بغير كاف ولا شيء من أخواتها ، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق <sup>(٢)</sup>  
وقول البحترى أيضا :

كالسيف فى إخذامه والغيث فى إرهامه والليث فى إقدامه <sup>(٣)</sup>  
وعده العسكرى من نوع تشبيه ثلاثة بثلاثة : أى من تعدد الطرفين على تقدير تكرير المشبه ، والخطب سهل .  
وقول العسكرى :

كالسيف فى غمراته والبدر فى ظلماته والغيث فى أزمامته  
وقول عبيد الله بن طاهر :

واحرّبا من فراق قوم هم المصاييح والحصون  
والأسد والمزن والرواسى والأمن والحفض والسكون  
وقول الثعالبي فى الأمير أبى الفضل الميكالى :

لك فى المحاسن معجزات جمة أبدا لغيرك فى الورى لم تجمع  
بحران : بحر فى البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمى <sup>(٤)</sup>  
وترسل الصابى يزين علوه خط ابن مقلّة ذى المحل الأرفع  
كالنور أو كالسحر أو كالدرأو كالوشى فى برد عليه موشع

(١) الإغريض : ما ينشق عنه طالع النخل من الحبيبات البيض .

(٢) العمدة — ١ — ١٩٨ — ١٩٩ (٣) الصنائع — ٢٣٩

(٤) الوليد : البحترى .



وقول ابن طباطبا :

أتانى قريض كنظم الجمان وروض الجنان وأمن الفؤاد  
وعهد الصبا ونسيم الصبا وبرد الفؤاد وطيب الرقاد  
وقول الصاحب فى آيات أهديت إليه :

أتنى بالأمس آياته تُعلل رُوحى بروح الجنان<sup>(٢)</sup>  
كبرد الشباب وبرد الشراب وظل الأمان ونيل الأمانى  
وعهد الصبا ونسيم الصبا وصفو الدنان ورجع القيان  
ويلاحظ أن بيت ابن طباطبا وبيت الصاحب قد اتفقا فى الشطرين  
الأولين ، وذلك يحتمل الأخذ أو توارد الخواطر .

وقول آخر :

أفدى حبيبا له بدائع أو صاف تعالت عن كل ما أصف  
كالبدريعلو والشمس تشرق والغزال م يعطو والغصن ينعطف<sup>(٣)</sup>  
وقول بعض العصريين :

ولست الثقيل ولا المستطيل على الصحب بين ذوات الحجال  
ولكننى كنسيم الرياض وصفو المدام وعذب الزلال  
والسابق إلى ذلك امرؤ القيس فى قوله — يشبه الأصابع — :  
وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظي أو مساويك إسحل  
والأساريع واليساريع : دود يكون فى البقل والأماكن الندية ، وظي :  
موضع بعينه ، والإسحل : شجرتدق أغصانها فى استواء .  
يشبه بنانها الرخص الناعم غير الغليظ ولا الكز فى التناول ، بدود هذا  
المكان ، ومساويك هذا الشجر .

ومن النثر الرائع قول الثعالبي يصف شعر السرى الرفاء . وكتبت من

(٢) الروح بالفتح : الراحة والرحمة ونسيم الريح .

(٣) يعطو : يتناول .



ذلك محاسن وملحاً وبدائع وطرفاً كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة  
البيض ، وأجنحة الطواويس ؛ وسوائف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ،  
وغمزات الحدق الملاح .

وقول ابن شهيد - يصف الماء من رسالة التوابع والزوابع - :  
أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل  
بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، كأنه عصير صباح ،  
أو ذوب قمر ليّاح (١) ، ينصب من إنائه انصباب الكوكب من سمائه ، العين  
حانوته ، والفم عفريته ، كأنه خيط من غزل فلق (٢) ، أو منحصر يضرب به من  
ورق ، يرفع عنك فتردي ، ويصدع به قلبك فتحيا .  
ولبعض الظرفاء في وصف خط رديء : نظرت في خط منحط ،  
كأرجل البط على الشط ، أو أنامل السرطان على الحيطان .  
ولآخر في وصف رجل : كان والله سمحاً سهلاً ، كأنما بينه وبين القلوب  
نسب ، أو بينه وبين الحياة سبب ، إنما هو عيادة مريض ، وتحفة قادم ،  
وواسطة عقد .

وأقل تعدد المشبه به أن يحى اثنين كقول المتنبي :  
تحمي السيوف على أعدائه معه كأنهن بنوه أو عشائره  
وقول المعري :  
وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الحفقان  
وقول القطامي :  
فهن كالحلل الموشى ظاهرها أو كالكتاب الذي قد مسه الليل

---

(١) الليّاح بالكسر والفتح : الأبيض . (٢) الفلق : الصبح .



وقد يتعدد كل من طرفي التشبيه ، فإن أتى بالمشبهات أولاً عن طريق العطف أو غيره ، ثم بالمشبهات بها كذلك سمي ملفوفاً ، كقول امرئ القيس في وصف العقاب — وهو مما انفرد به <sup>(١)</sup> — :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العُنب والحشف البالى  
شبه شيئين بشيئين مع التفصيل في بيت واحد فأحسن التشبيه ، وجاء به في غاية الجودة .

وقد قالوا : إنه لم ير مثله في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين <sup>(٢)</sup> . وتقديره : كأن قلوب الطير رطبا : العنب ، ويابساً الحشف البالى ، وهو أردأ التمر ، أو الضعيف الذي لانوى له ، أو اليابس الفاسد ، فشبه الطير من القلوب بالعنب ، والعقيق اليابس بالحشف .

وخص قلوب الطير لأنها أطيب اللحوم ، وإنما كثرت هذه القلوب عند وكر العقاب ، لأن أفراخها تأكل لحوم الطير ما خلا القلوب فتلقها خارج الوكر ، أو لسكونها — ما دامت صغيرة — لا تأكل سواها فلا تأتى الكوااسب لأفراخها إلا بهذه القلوب <sup>(٣)</sup> .

وظاهر أن التشبيه هنا لا يراد منه التركيب ، فالكلام معقود على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة ، إلا أن أحدهما لا يداخل الآخر في الشبه . وذلك أنه لم يقصد أن يجعل من الشيين اتصالاً ، وإنما أراد اجتماعاً في مكان فقط ، كيف ولا يكون لمضامنة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها أو يعنى بأمرها . . . . كيف ولا فائدة لأن ترى العنب مع الحشف أكثر من كونهما في مكان واحد .

ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطوبة كذلك في ناحية

---

(١) الشعر والشعراء — ٥٥ (٢) الحيوان — ٣ — ١٥ .

(٣) المواهب الفتحية — ١ — ١٢٧



أخرى لكان الشبه بحاله ، ولذلك لو فرقت التشبيه هنا فقلت : كأن الرطب  
من القلوب عنب ، وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد الشيتين موقوفا في  
الفائدة على الآخر ، وليس كذلك الحكم في المركبات .<sup>(١)</sup>

ومثله قول الوزير أبي عبد الله بن الحداد :

إذا ما بدا سربلته العيون وخرت وجوه إليه سجودا  
هو البدر والغصن خدا وقدا كما أنه الظبي لحظا وجيدا  
وإن أتى فيه بمشبه ومشبه به ثم آخر وآخر سمي مفروقا ، كقول  
امريء القيس أيضا :

وكشح لطيف كالجديل مُخَصَّر وساق كأنبوب السَّقَى المذلل  
شبه كشحها في ضموره بخطام الجلد ، وساقها في صفاء لونه بأنبوب  
البردى المسقى المذلل بالإرواء .

وقول فضل الشاعرة<sup>(٢)</sup> في قبيحة<sup>(٣)</sup> جارية المتوكل :

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر  
يديرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب أهيف ناضر

وقول البحترى :

يُبدوى الرجال ويشفيهم بمبتسم كابت الغمام وريق كابتة العنب  
وقول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وحف أسحم  
فكأنها فيه نهار ساطع وكأته ليل عليها مظلم

---

(١) أسرار البلاغة - ١٥٦ - ١٥٧ (٢) مدامع العشاق - ٧٥

(٣) سميت قبيحة لجمالها الرائع من باب تسمية الأضداد.



وقول أبي بكر الخوارزمي :

رب ليل كطلعة الناصبي<sup>(١)</sup> ذي نجوم كحُجَّة الشيعي<sup>(٢)</sup>

وقول بعض الشعراء :

وليل كعين الظبي غيّرت لونه بكأس كعين الديك بل هي ألمع

فلما مزجت الروح مني براحها ترحل عنى الغم والههم أجمع

قال الثعالبي : جمع بين عين الظبي وعين الديك في يد واحد ولعله

لم يسبق إليه .

وعين الظبي تشبه بها العيون المستحسنة ، وما يوصف بالسواد<sup>(٣)</sup> .

وقد يشبه شيطان مختلفان بشيئين من جنس واحد ، كقول بشار :

من كل مشتهر في كف مشتهر كأن غرته والسيف نجهان

وقد كثر تشبيههم شئين بشيئين حتى لم يصر عجباً — كما يقول ابن رشيق<sup>(٤)</sup> .

ويتدرج هذا النوع :

١ — من تشبيه شئين بشيئين كما تقدم في الأمثلة إلى تشبيه :

٢ — ثلاثة بثلاثة — بأداة أو بدونها — ، كقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

العنم : شجر لين الأغصان يشبه بنان النساء ، وقال أبو عبيدة : هو أطراف

الخروب الشامي ، وقيل : شجر له أغصان حمراء ، وقيل : هو ثمر العوسج

يكون أحمر ثم يسود إذا عقد ونضج .

وقوله :

إن أقبلت فالبدر لاح وإن مشيت فالغصن ماد وإن دنت فالريم

(١) الناصبي : من يبغض علياً — كرم الله وجهه — .

(٢) ثمار القلوب — ٣٢٧ (٣) العمدة — ١ — ١٩٩



وقول أبي نواس :

يا قمرأ أبصرت في مآتم يندب شجوا بين أتراب  
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب  
وقد أعجب الناس بقوله هذا ، حتى لقد سئل ابن مناذر : من أشعر الناس ؟  
فقال الذى يقول : وأنشد البيتين .  
ثم قال : هذا أشعر الجن والإنس .

ويقول ابن رشيق : وقد جاء بالشعر على سجيته ، وشاهد ذلك في لفظه ،  
ولأف هو قادر أن يجعل مكان الدر الطل ، حتى يتناسب الكلام ، لكنه  
لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة .  
ثم يقول ومن الناس من يرويه كذلك ، ومنهم من يرويه :  
فيذرى الدر من جفنه (١)

وقد أخذه بعض المتأخرين فقلبه هجاء بقوله (٢) :

يا قردة أبصرت في مآتم تندب شجوا بتخاليط  
تبكى فتذرى البعر من كوة وتلطم الشوك بياوط (٣)  
وقول ابن المعتز — وهو من المقالوب — :

بدر وليلى وغصن وجه وشعر وقد  
نمر ودر وورد ريق وثغر وخد  
وقد عده المرتضى من تشبيه ستة بستة ، فقال : وأما تشبيه ستة بستة  
فلم أجده إلا لابن المعتز في قوله (٤) ، وأورد البيتين .  
وهو وهم منه ، فإن كل بيت مستقل عن الآخر بتشبيهاته الثلاثة .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٠٠

(٢) الصناعتين — ٢٣٩ ، وفي ديوان المعاني — ١ — ٣٧ : وأعور أبصرت في مآتم .

(٣) الكوة بالفتح والضم : النافذة في الحائط .

(٤) أمالى المرتضى — ٤ — ٤٣



وقول ابن رشيق :

كأن ثناياه أقاح وخده شقيق وعينه بقية نرجس

وقول تميم بن المعز بن باديس :

وخمر قد شربت على وجوه إذا وصفت تجل عن القياس

خدود مثل ورد في ثغور كدر في شعور مثل آس

وقول ابن حيوس :

ومُقرطَق يغني النديم بوجهه عن كأسه الملائى وعن إبريقه (١)

فعل المدام ولونها ومذاقها من مقلتيه ووجنتيه وريقه

وقول حمدونة (٢) الأندلسية :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماق عند ذاك وأنصارى

غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وقول ابن نباته :

عرج على حرم المحبوب منتصباً لقلبة الحسن واعذرني على سهري

وانظر إلى الخال فوق الخدتحتلى تجد بلا لا يرأى الصبح في السحر

وقول بعض الطالبين يفخر :

وأنا ابن معتلج البطاح إذا عدا غيرى وراح على متون ظواهر

يفتر عنى ركنها وحطيمها كالجن يفتح عن سواد الناظر

كجبالها شرفى ومثل سهولها خلقي ومثل ظلمات مجاورى

يريد أنه من قريش البطاح وهى عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل

وعبد الدار وأسدوتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم .

(١) المقرطق : لباس القرطق ، وهو لباس قصير أشبه بالقباء .

(٢) فى خزانة الأدب للحموى - ٨٢ : حميدة .



وقريش الظواهر : بنو الحارث وبنو محارب ابنا فهر ، سموا بذلك  
لأنهم نزلوا حول مكة وليست لهم .<sup>(١)</sup>  
وقول بعضهم :

روضُ وردٍ خلَّاهُ نرجسُ غضٍ م يحفانُ أقحوانا نصيراً  
ذا يباهي لنا خدوداً وذا يحكي عيوناً وذا يضاهي ثغوراً  
وقول آخر :

كان ضلوعى والزفير وأدمعى طول وريح عاصف وسيول  
٣ — أو أربعة بأربعة ؛ كقول امرئ القيس فى وصف الجواد  
من معلقته :

له أبطالا ظي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل  
شبه خاصرقي هذا الفرس بخاصرتي الظبي فى الضمور ؛ وساقيه بساقي  
النعامة فى الانتصاب والطول ، وعدوه بإرخاء الذئب وتقريب التفل ،  
وهذه الأشياء أحسن ما تكون فى هذه الحيوانات .  
فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله :  
له أبطالا ظي إنما هو على أنه له أبطالان كأبطالا ظي ، وكذا ساقان  
كساقى النعامة .<sup>(٢)</sup>

وقول يزيد بن معاوية :

ومدامة حمراء فى قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء  
فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

وقول ابن حاجب النعمان وزير القادر بالله :

ثغر وخذ ونهد واختضاب يد كالطلع والورد والرمان والبلح

(١) العقد الفريد ٢ - ٢٠٣ - ٢٠٦ (٢) نقد الشعر - ٦٨



وقول الوأواء الدمشقى ، وقيل : هما لغيره : (١)

مجرة جدول وسما آس وأنجم نرجس وشموس ورد

ورعد مثلك وسحاب كأس وبرق مدامة وضباب ند (٢)

وقول المتنبي لابن عبد الوهاب - وقد جلس ابنه إلى جوار المصباح - :

أما ترى ما أراه أيها الملك كأننا في سماء ما لها حُبك (٣)

الفرقد ابنك والمصباح صاحبه وأنت بدر الدجى والمجلس الفلك

وقول ابن سكرة الهاشمي :

في وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعن في أحد

فالخذ ورد والصدع غالية والريق خمر والثغر من برد

وقول الزغاري :

كأن السحاب الغرما تجمعت وقد فرقت عنا الهموم بجمعها

نياق ووجه الأرض قعب وثلجها حليب وكف الريح حالب ضرعها

وقول ابن رشيق :

بفرع ووجه وقد وردف كليل وبدر وغصن وحقف (٤)

ومن لطيف قول بعضهم - وقد أهدى إليه نرجس وأقحوان وشقائق

وآس - فكتب إلى من أهداه :

لله ما أظرف أخلاقك م يا بحر الكرم

أهديت ما ناسبتها حسنا وظرفا وشيم

فما رأينا مهديا قبلك في كل الأمم

أهدى العيون والثغو ر والخدود واللّم

(١) النجوم الزاهرة - ٥ - ٣٢٣ (٢) المثلث : ثالث الأوتار، والمراد: العود نفسه.

(٣) الحبك : طرائق النجوم في السماء .

(٤) الحقف : بالكسر : الموج من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير ، أو المستطيل

المشرف .



ومن بديعه قول الصنوبرى — يفضل الربيع على غيره من الفصول: — (١)  
 إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة      فالأرض مستوقد والجو تنور  
 وإن يكن فى الخريف النخل مُحترفاً      فالأرض عريانة والجو مقرر (٢)  
 وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلاً      فالأرض محصورة والجو مأسور  
 مالدهر إلا الربيع المستنير إذا      جاء الربيع أتاكَ النور والنور  
 فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة      والنبت فيروزج والماء بلور  
 تبارك الله ما أحلى الربيع فلا      تُفرّر فقائسه بالصيف مغرور  
 من شم طيب جنّيات الربيع يقل      لا المسك مسك ولا الكافور كافور  
 والشاهد فى البيت الخامس .

وقول البارودى :

من كل مائسة كالغصن قد جمعت      بدائعا كلها للحسن أوضاع  
 فالعين نرجسة والشعر سوسنة      والنهد رمانة والحد تفاح  
 ٤ — وخمسة بخمسة ، كقول الوأواء الدمشقى — وقد أتى به من غير أداة — :  
 قالت متى النأى يا هذا فقلت لها      إما غدا — زعموا — أو لا فبعد غد  
 فأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت      وردا وعصّت على العنّاب بالبرد  
 وفيه يقول العسكرى ولا أعرف لهذا البيت ثانياً فى أشعارهم (٣)  
 وقد وجد له ثان بقول الحريرى المتقدم :

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد      وعن أقاح وعن طلّع وعن حبّ  
 وقول ابن برون الأکشونى الأندلسى — يصف فرسا وردا أغر محجلاً :  
 فكأن غرته وتحجلاته      خمس من السوسان وسط شقائق

(١) نثر النظم للشعالى — ١٥٠

(٢) الاختراف : الاجتناء .

(٣) الصنائع — ٢٣٩



قال أبو عامر بن شهيد: وهذا على التحقيق ستة بسة ، ولم أسمع بمثله من قبل :  
وقال ابن الجلاب : وكلام أبو عامر هذا لا يخلو من النقد <sup>(١)</sup> .

ذلك لأن الغرة مضافا إليها أربعة تحجيلات في قوائمه الأربعة خمس  
لا ست .

ولكن لعله جعل السادس لون الفرس نفسه المشبه بالشقائق في حرته .  
وقول ابن حزم :

كأنى وهى والكأس والخمر والدجى ثرى وحياً والدر والتبر والسَّجج <sup>(٢)</sup>  
وقد علق عليه بقوله : وهذا أمر لا مزيد فيه ولا يقدر أحد على أكثر  
منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك <sup>(٣)</sup>  
ونسى ابن حزم أن يقول : إن بيته متكلف سخيف ، وليته أعنى نفسه  
من نظمه .

هـ — أوستة بسة ، كقول صفي الدين الحلى — وقد جاء به مع الطي  
والنشر المرتب — :

زنبق بين قُضْب آس وبان وأقاح وعبهر وورود <sup>(٤)</sup>  
كجبن وعارض وقوام وثغور وأعين وخدود  
وقول ابن جابر الأندلسي :  
إن شئت ظيماً أو هلالاً أودجى أوزهر غصن في السكيب الأملد  
فللحظها ولوجهها ولشعرها ولخدها والقدر والردف اقصد  
وفي هذين البيتين يقول الحموي : صبرنا على « الأملد » لكونه صفة

(١) نفح الطيب — ٢ — ٢٣٩ (٢) السبج : الحرز الأسود .  
(٣) طوق الحمامة — ١٥ (٤) العبهر : الترجس والياسمين .



الكشيب ، ولكن لم نصبر على دخول « القصد » يريد : « اقصد » فإنها زيادة أجنبية <sup>(١)</sup> .

ولو انصف لقال : لا نستطيع الصبر على البيت كاه لأنه تلفيق محض .

٦ - أو سبعة بسبعة كقول قاضي القضاة نجم الدين البارزى .

يقطع بالسكين بطيخة ضحا على طبق فى مجلس لا صاحبه

كيدر بىرق قد شمس أهلة لدى هالة فى الأفق بين كواكبه

وقد نقده شهاب الدين أبو جعفر : بأنه نص فى اللف على ستة ، ونص

فى النشر على سبعة ، لأن الأهلة راجعة إلى الأشرطة وهى غير مذكورة فى اللف .

وكذلك قوله « ضحا » فى بيت اللف مطرح لانظير له فى النشر .

وقد رد عليه الحموى : بأن الأشرطة تفهم من قوله : يقطع .

وقوله : « ضحا » ليس له عنده فى الحسن نظير ، وهى تقابل قوله : « شمس <sup>(٢)</sup> » ،

وهذا خطأ من الحموى لأن الذى يقابل الشمس هو البطيخة لا الضحا

وهذا لا يحتاج إلى بيان .

وقد قطع مصححو نهاية الأرب : أن البيتين كالآتى :

يقطع بالسكين بطيخة ضحا على طبق فى مجلس لان صاحبه

كشمس بىرق قد بدرا أهلة لدى هالة فى الأفق شتى كواكبه

وقالوا : إن هذا هو الصواب وما سواه تحريف <sup>(٣)</sup> .

والتحريف ما صوبوه لأنه ظاهر التكلف ، فلا معنى لقولهم : لان

صاحبه وقولهم : شتى كواكبه ، وخلو الفعل « قد » من تاء التأنيث العائدة على

الشمس خطأ نحوى ، وجعل البطيخة بدرا يزرى بها ، لأنها تكون بطيخة قرعاً .

(١) خزانة الأدب - ٨٣ (٢) المصدر السابق والرقم .

(٣) نهاية الأرب - ١١ - ٣٥ .



ويشهد لقولنا قول الآخر :

أَتَانَا الْغَلَامُ بِبَطِيخَةٍ      وَسَكِينَةٍ جَمَلُوهَا صِقَالَا  
فَقَطَعَ بِالْبَرْقِ شَمْسَ الضُّحَا      وَنَاوَلَ كُلَّ هَالَالٍ هَلَالَا  
عَلَى أَنْ قَوْلَ الْبَارِزِيِّ كُلَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْعَنَاءَةَ .

٧ - أَوْ ثَمَانِيَةً بِثَمَانِيَةٍ ، كَقَوْلِ عَلَاءِ الدِّينِ بْنِ مِقَاتِلِ الْحَمَوِيِّ :

خُدُودٌ وَأَصْدَاغٌ وَقَدْ وَمَقَلَةٌ      وَثَغْرٌ وَأَرْيَاقٌ وَلَحْنٌ وَمُعْرَبٌ  
فُورِدَ وَسُوسَانٌ وَبَانَ وَنَرْجِسٌ      وَكَأْسٌ وَجِرْيَالٌ وَجَنَكٌ وَمَطْرَبٌ<sup>(١)</sup>  
٨ - أَوْ عَشْرَةَ بِعَشْرَةٍ ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

شَعْرُ جَبِينٍ مَحْيَا مَعْطَفٌ كَفَلٌ      صَدَغُ فَمٍ وَجَنَاتٌ نَازِرٌ ثَغْرٌ  
لَيْلٌ صَبَاحٌ هَلَالٌ بَانَةٌ وَنَقَا      آسٌ أَقَاحٌ شَقِيقٌ نَرْجِسٌ دَرٌ  
وَيَلَا حَظَّ أَنْ تَشْبِيهِ تِسْعَةً بِتِسْعَةٍ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِمْ .  
وَمَا تَقْدُمُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ نَسْتَنْبِطُ مَا يَأْتِي :

١ - أَنْ أَفْضَلَ هَذَا النَّوْعِ ، الْمُتَعَدِّدِ الطَّرْفَيْنِ ، وَأَقْرَبَهُ إِلَى الْفَطْرَةِ ، وَأَبْعَدَهُ  
مِنَ التَّعْسُفِ وَالتَّعْقِيدِ ، مَا وَقَعَ فِيهِ تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ .  
وَقَدْ مَدَحَهُ قِدَامَةُ وَعَدَهُ مِنْ دَلَائِلِ الْبَرَاعَةِ وَالْمَقْدَرَةِ ، فَقَالَ : اعْلَمْ أَنَّ  
الشَّاعِرَ إِذَا أَتَى بِالْمَعْنَى الَّتِي يَرِيدُ أَوْ الْمَعْنِيَيْنِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، كَانَ فِي ذَلِكَ  
أَشْعَرُ مِنْهُ إِذَا أَتَى بِذَلِكَ فِي بَيْتَيْنِ ، وَلِذَلِكَ فَضَّلَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :  
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا هَ الْبَيْتِ «

عَلَى قَوْلِهِ :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا      وَأَرْحَلُنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ  
لَأنَّهُ جَمَعَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَصَفَ شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ ، وَإِنَّمَا وَصَفَ فِي الْآخِرِ  
شَيْئًا وَاحِدًا<sup>(٢)</sup> .

(١) الْجَنَكُ : آلَةٌ لِلطَّرَبِ مُعْرَبٌ . (٢) نَقْدُ النَّثْرِ - ٩٠



٢ — أن تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه أكثر ما ورد من هذا النوع في شعر الشعراء المولدين .

٣ — أن المقبول منه ينتهى عند تشبيه أربعة بأربعة — كما يؤخذ من التأمل في الأمثلة — ولا بأس بخمسة حينما يعدل عن التشبيه إلى الاستعارة ؛ كقول الوأواء المتقدم :

فأسبات لؤلؤاً . . . .

٤ — تشبيه خمسة بخمسة إن جرى على غير طريق الاستعارة ، لا يسعه البيت الواحد إلا بعسر وكلفة ، وأما ما فوق ذلك فلا يقع إلا في بيتين .

٥ — ما زاد على تشبيه أربعة بأربعة يشوبه التعقيد والتعسف وضعف الفسج ونضوب الماء والرونق ، ويزداد قبحه بزيادة صعوده في العدد حتى يستحيل إلى لون من الثقل والتنافر اللفظي كتوالي الروابط والإضافات والأفعال وما أشبه ذلك .

٦ — لم يرد عن الأقدمين أكثر من تشبيه أربعة بأربعة كقول امرئ القيس :

له أبطلاظي . . . .

وفي ذلك بقول المرتضى : تأملت ما اشتملت عليه تشبيهات الشعراء ، فوجدت أكثر ما شبهوا فيه الشيء بالشيء الواحد ، أو الشئين بالشئين . وقد تجاوزوا ذلك إلى تشبيه ثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة وهو قليل<sup>(١)</sup> .



## الفصل الحادي عشر

### نشأة التشبيه المتعدد

قدمنا أن الأصل في التشبيه الإفراد ؛ فيشبه شيء بشيء في بيت واحد .  
وأول من ابتدع التعدد في طرفي التشبيه امرؤ القيس حين وصف  
العقاب بقوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا      « البيت ،

فشبه شيتين بشيتين في بيت واحد ، واتبعه الشعراء في ذلك ، فقال لبيد :  
وَجَلَّا السَّيُولُ عَنِ الطَّلُولِ كَأَنَّهَا      زُبُرٌ تُجَدُّ مَتُونَهَا أَقْلَامُهَا  
الزبر بضميتين : الكتب جمع زبور .

يقول : كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب  
إياها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها .  
وأقلام مضافة إلى ضمير زبر ، واسم كأنها : ضمير الطلول .  
فشبه الطلول بالزبر ، والسيول بالأقلام ، بل زاد فشبه جلاء هذه عن  
هذه بتجديد تلك لتلك .

ثم جاء بشار من المحدثين فقال :

كَأَنَّ مِثَارَ النِّقْعِ فَوْقَ رَمُوسِنَا      وَأَسْيَافُنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ  
ويحكون عنه أنه قال : ما قرَّبني القرار منذ سمعت قول امرئ القيس .  
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ . . .

حتى صنعت :

كَأَنَّ مِثَارَ النِّقْعِ . . . . .

قال ابن رشيق : فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت



أمرى القيس في ترتيبه كيبته ، وإن كان المراد تشبيهين في بيت ، فقد قال  
الطرماح في صفة ثور وحشى :

يدو وتضمرة البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد  
وهذا في نهاية الجودة (١) .

ويقول الباقلاني : واستبدعوا تشبيهه - أى أمرى القيس - شيئين بشيئين  
على حسن تقسيم ، ويزعمون : أن أحسن ما وجد في هذا للمحدثين  
قول بشار :

كأن مثار النقع . . .

وقد سبق أمرؤ القيس إلى صحة التقسيم والتفصيل ، ولم يتمكن بشار  
إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل (٢) .

ويقول العسكرى في بيت بشار : شبه ظلمة الليل بمثار النقع ، والسيوف  
بالكواكب ، وبيت أمرى القيس أجود ، لأن قلوب الطير رطبا ويابسا  
أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب (٣) .

والحق أنه لا معنى للموازنة بين البيتين ، لأن بيت أمرى القيس من  
تشبيه المفرد بالمفرد ، لأن انضمام الرطب إلى اليابس من القلوب ، والعناب  
إلى بالي الحشف لا يتألف منه هيئة ولا يقصد ذلك .

وأما بيت بشار فتشبيه مركب في طرفيه ، وفي وجهه كذلك ، وهو  
الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة  
في جوانب شتى .

ولذلك وجب الحكم - كما يقول عبد القاهر - : بأن الكلام إلى قوله  
« وأسيفنا ، في حكم الصلة للمصدر وجارى مجرى الاسم الواحد ، لئلا يقع

(١) العمدة - ١ - ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) إعجاز القرآن - ٧٣ - ٧٤ (٣) الصناعتين - ٢٣٨ .

(٤) ( ١٠٠ - فن التشبيه - ٢٠ )



في التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع : ليل ، وكأن  
السيوف : كواكب .

ونصب الأسياف لا يمنع من تقرير الاتصال ، ولا يوجب أن يكون  
في تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » . . . . وهي إذا كانت  
بمعنى مع لم يكن في معطوفها الانقطاع ، وأن يكون الكلام في حكم جملتين <sup>(١)</sup> .  
وبهذا يسقط تفضيل الباقلاني بيت امرئ القيس على بيت بشار بما ذكره  
من صحة التقسيم والتفصيل ، لأن بشار لم يرد التقسيم ، وإنما أراد انتزاع  
هيئة مكتملة من طرفي التشبيه المركبين ، وقد جاء فيها بتفصيل أوسع وأكثر .  
وأما موازنة العسكري بين البيتين فلا يقام لها وزن ، لأنه عد التشبيه  
مفردا ثم هو — إلى ذلك — قصر نظره على جزئيات تافهة لا تقدم  
ولا تؤخر .

وقد أعجب النقاد بيت بشار ، فقليل له <sup>(٢)</sup> — وقد أنشد البيت  
المتقدم — : ما قيل أحسن من هذا التشبيه ؟ فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط  
ولا شيئا منها ؟

فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بما ينظر  
إليه من هذه الأشياء ، فيتوفر حسه وتذكو قريحته .  
ثم أنشدهم قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى      فجئت عجيب الظن للعلم مونا  
وغاض ضياء العين للعلم رافداً      لقلب إذا ماضيع الناس حصلا  
كأنه أخذ هذا من الأثر : « ما انتقصت جارحة من إنسان إلا كانت  
ذكاء في عقله » .

ولذلك ضرب المثل بعين بشار ، لأنه كان أعمى لكنه لم يبصر شيئا قط

(١) انظر أسرار البلاغة من — ١٤٠ — إلى — ١٥٩

(٢) معاهد التنصيص — ١ — ١٤٣ .



وهو قائل هذا البيت (١).

وإذا كان امرؤ القيس سبق الشعراء بتشبيه شيئين بشيئين ، فقد سبقهم  
أيضا بتشبيه شيء بشيئين في قوله يصف البنان .  
وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل  
وتشبيه أربعة بأربعة في بيته المتقدم .  
له أطلاظي . . .

فكان أول من فتح هذا الباب (٢).

وبهذا الابتكار وأمثاله استحق امرؤ القيس أن يلقب « أمير الشعراء »  
لأن شعره في جملة أقل من شعر زهير تنقيحا وتهذيبا ، ومن شعر  
النابعة صفاء ونقاء .

#### قيمة التشبيه النعمر.

لا خلاف أن التشبيه المتعدد في بعض صورهِ ينتزع منا الاستحسان ،  
لأننا نرى فيه مظهر الاستيعاب والتقصي ، وقوة الملاحظة ، والبراعة في الجمع  
بين الأشياء المتناسبة . والقدرة على نظمها في سلك قصير ، ولكن النقد  
— مع هذا — لا يرتفعون به إلى منزلة التشبيه المركب لخلوه من الهيئة ذات  
التفاصيل الكثيرة والجزئيات المتضامة المنسجمة ، يفعل فيها الخيال فعله ،  
ويبدع — ما وسعه — في تأليفها وتنسيقها وتوشيتها وتحييرها وتحليلتها  
في صورة كلية موقنة خلاصة تهز أنفسنا من الأعماق ، وتثير فيها ألوانا مختلفة  
من الانفعالات .

وفي هذا يقول عبد القاهر : واعلم أن ما كان من التركيب في صورة  
بيت امرئ القيس .

كأن قلوب الطير . . . . .



فإنما يستحق الفضيلة من حيث اللفظ ، وحسن الترتيب فيه ، لأن  
للجمع فائدة في عين التشبيه <sup>(١)</sup> .

ويقول ابن يعقوب المغربي : ليس فيه هيئة يعتد بها ويستحسنها الذوق ،  
أو يستطرفها السامع ، وإنما الفضيلة في اختصار ما تعلق به هذا التشبيه المتعدد  
من ترتيبه ، ولا فضيلة له باعتبار الهيئة لانتفاء حسناتها . <sup>(٢)</sup>

ويقول الحموي : المراد من حسن التشبيه وبلغه غير كثرة العدد  
في الصفات ، فقد أوصله البارزي إلى سبعة ، وأوصله الناس إلى أكثر من ذلك .  
ولكن جلّ القصد هنا غير كثرة العدد ، فإن المراد من التشبيه غرابة  
أسلوبه وسلامة اختراعه . <sup>(٣)</sup>

ويقول ابن شهاب العلوي الحضرمي : التشبيه المقصود عند البديعيين  
هنا : هو التشبيه المركب ، وهذا هو العزيز الممنوع ، أما تعدد التشبيه من غير  
تركيب فهو أمر سهل ، وقد بلغ فيه الشعراء إلى ثمانية ثمانيّة وتسعة بتسعة <sup>(٤)</sup> ،  
وعشرة بعشرة <sup>(٥)</sup> .

وربما كان في بعض هذه الأقوال شوب من المبالغة ، ولكن فيها  
حق كثير .

وحفظ الترتيب في هذا النوع غير واجب ، فإن حفظ فيه الترتيب  
فلاجل الشعر فقط ، كما يقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا      نير وأطراف الأكف غم  
فإنه يصح في غير الشعر ألا يتبع هذا النظام المخصوص فتبدأ بأها شئت  
والمعنى على حاله .

(١) أسرار البلاغة - ١٥٨ (٢) مواهب الفتاح - ٣ - ٤٤٨

(٣) خزانة الأدب - ٢١٧

(٤) ذكرنا فيما سبق : أننا لم نعثر على مثال للتشبيه بتسعة بتسعة .

(٥) إقامة الحجة على النقي بن حجة - ٣٦



## الفصل الثاني عشر

### القريب المبتذل ، والبعيد الغريب

هذا فصل لم يخل كلامهم فيه من اللبس والاضطراب ، ومرد ذلك إلى الخلط بين الأشياء وعدم التدقيق في بيان معنى كل منها .

فالخطيب مثلا جعل القريب والمبتذل شيئا واحدا ، وكذلك البعيد والغريب ، فكان أن قال : القريب المبتذل ، والبعيد الغريب دون أن يذكر حرف العطف بين كل اثنين ، ثم عرف كل اثنين منهما تعريفا واحدا ، فالقريب المبتذل : هو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر ، لظهور وجهه في بادىء الرأى .

والبعيد الغريب : هو ما لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر ، لخفاء وجهه في بادىء الرأى .<sup>(١)</sup>

واقصر الرازى<sup>(٢)</sup> من هذه الأسماء الأربعة على القريب والغريب وجعلهما متقابلين .

والقريب عنده : ما يخطر ببالك عند ذكر المشبه ، كنظرك إلى السيف عند سله ، فإنه يذكر بك بلمعان البرق .

والغريب : هو الذى تحتاج فى إدراكه إلى دقة نظر وقوة فكر ، كتشبيه البرق بإصبع السارق فى قول كشاجم :

أرقت أم نمت لضوء بارق      مؤتلق مثل فؤاد العاشق  
كأنه إصبع كف السارق

(٢) نهاية الإيجاز — ٧١

(١) الإيضاح — ١٨٢



ويفهم من كلام عبد الفاهر : أن البعد والغرابة عنده سواء ، فهو يقول :  
والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا ينزع  
إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهته النظر إلى نظيره الذي يشبه به ،  
إلا بعد تثبت وتذكر ، وفكر للنفس عن الصور التي تعرفها ، وتحريك الوهم  
في استعراض ذلك واستحضار ما غاب عنه <sup>(١)</sup> .

أما شرح التلخيص فقد وافقوا في بعضها وخالفوا في بعضها الآخر ،  
فالقريب عندهم : ما يحصل من غير تدقيق نظر .  
وهو مثل كلام الرازي والخطيب .

والبعيد : ما كان كثير التفصيل ، أو كان قليل التفصيل ، إلا أن المشبه به فيه  
غير غالب الحضور في الذهن : أي عند ذكر المشبه .  
والغريب : ما كان قليل الاستعمال <sup>(٢)</sup> .

والمبتذل : الكثير الاستعمال ، أو هو كما يقول الزمخشري : الملهوج  
بذكره المستعمل <sup>(٣)</sup> .

إذا الابتذال في الأصل : الامتهان ، أطلق وأريد به التداول وكثرة  
الاستعمال ، لأن الشيء المتداول بين الناس يكون ممتها <sup>(٤)</sup> .  
وهم بهذا التقسيم يجعلون القريب في مقابل البعيد ، والمبتذل في مقابل  
الغريب .

ونحن لانجد فرقا بين البعد والغرابة واللغة تساعد على ذلك ، ففي المعاجم  
اللغوية : الأبعد : ضد الأقارب ، والأبعد : الغرباء أيضا ، واغترب فلان :  
إذا تزوج إلى غير أقاربه .

لذلك نستطيع أن نوافق الرازي على جعله البعد والغرابة شيئا واحدا ،

---

(١) أسرار البلاغة — ١٢٥ وقرأ كذلك من ١١٠ إلى ١٢٠

(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٤٤٨ (٣) أساس البلاغة .

(٤) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٤٣



ولكنه لا نستطيع أن نوافق الخطيب على أن القريب هو المبتذل ؛ إذ ليس كل قريب مبتذلا ، ذلك لأن الابتذال يرجع إلى كثرة الاستعمال أكثر من القرب ، فمثلا قول العباس الصولي :

فسكن كيف شئت وقل ما تشا وأبرق يمينا وأرعد شمالا

نجابك لو ملك منجى الذباب حتمه مقاذيره أن يُنالا

يعد قريبا فضلا عن شهرته ولكنه لا يعد مبتذلا .

وكذا قول سعيد بن حميد :

أهاب وأستحي وأرقب وعده فلا هو ييداني ولا أنا أسأل

هو الشمس مجراها بعيد وضوءها قريب وقلبي بالبعيد موكل

فإن الحصري يقول فيه : وهذا المعنى ، وإن كان كثيرا مشهورا . فإيكاد يداني في الإحسان فيه <sup>(١)</sup> .

وقد فرقوهم بين القريب والمبتذل فقالوا :

١ — إن كان قريب التناول بحيث يمكن لكل أحد التشبيه به ، ولكن اتفق أنه لم يكثر استعماله فلا يكون مبتذلا .

٢ — إن كان قريب التناول وكثر استعماله يكون مبتذلا .

٣ — إن كان بعيدا عن كثير من الإدراكات بحيث لا يفوز بالتشبيه به إلا القليل من الأذكاء والبلغاء ، ولكن جرى استعماله كثيرا حتى عد مبتذلا من حيث كثرة ممارسة البلغاء له لا من حيث ظهوره لعامة الناس فيعد من البعيد الغريب <sup>(٢)</sup> .

فقولهم صريح إذن في أن القريب لا يكون مبتذلا إلا إذا صاحبه كثرة التداول .

(١) رعر الأدب — ٤ — ١٦٨ (٢) مواهب الفتح — ٣ — ٤٤٣



بل يجب أن نحتاط في هذا القول أيضا ، فهناك ألفاظ لا يمكن أن  
تخلق جدتها وينصل لونها أبد الأبد لأسباب كثيرة منها .

١ — أن تكون قد اكتسبت قداسة وروحانية وجلالا بورودها في الكتب  
المنزلة ، أو كانت مما نطق بها الرسل وأصحابهم وأئمة الأديان وحكماء  
البشرية .

فتشبيه القرآن الكريم للقمر في نقصه بعد الزيادة بالعرجون القديم .  
وتشبيه الرسول — صلوات الله عليه — الناس في أنهم سواسية بأسمان  
المشط ، سيظللان حين ما دامت الحياة .

٢ — أن تكون كثيرة الإشعاع موفورة الحظ من الرقة والدقة والبهاء  
والجمال ، أو القوة والعظمة والجبروت ، كالشمس والقمر والظي والريم والمه  
والغصن والزهر والندى والنسيم والمدام ، والأسد والجبل والبحر والنار  
والصاعقة والعاصفة ، إلى غير ذلك مما هو رقيق أو جميل أو قوى .

٣ — ألا يمكن الاعتياض عنها بغيرها كالشباب والهرم ، والحياة  
والموت ، والقوة والضعف ، والحرب والسلام ، والفقر والغنى ، والكبر  
والصغر ، والأم والأب .

٤ — أن تكون ألفاظا تاريخية كتب لها الخلود وسارت بها الأمثال  
مدحا وذما كحاتم في الكرم ، وما در في البخل ، وسحبان في الفصاحة ، وباقل  
في العي ، وعرقوب في الخلف إلخ .

ولذلك رأينا أبا تمام لا يرى بأسا أن يمدح ولي عهد الخلافة بهذا البيت :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

لأن هذه الأسماء صارت رموزا على المثل العليا في هذه الصفات .

فليس الغرض التشبيه بحاتم أو الأحنف وإنما الغرض الوصف بالغاية  
القصوى في هذه المعاني ، لذلك لم يكن معنى لاعتراض الفيلسوف الكندي



عليه ، ولعله أراد أن يمتحن ذكاه وقوة عارضته ، كما أن أبا تمام راغ عن الحقيقة حين قال :

فالله قد ضرب الأقل انوره      مثلا من المشكاة والنبراس  
وإن كان قد أفحم خصمه .

لأنه في بيته لم يشبه الأكثر بالأقل كما في الآية الكريمة التي قصد منها تقريب الفهم ، وإنما هو قد وصف عظيمًا بما هو أعظم منه ، لأنه أراد أن «ولى العهد» بلغ أسنى ما يمكن أن يصل إليه البشر في هذه الخصال التي تعال الناس أصحابها ، وهو كما تعلم ادعاء لا حقيقة لأنه ليس من الضروري أن توجد هذه الصفات أو بعضها في شخص لأنه ولى عهد أو ملك مثلا .

وقد جرت العادة أن يتمثل بجرأة الأسد حتى النسوان والصبيان ؛ لأن الأسد سيد السباع ، كما أن العقاب سيد الطيور ، والفرس سيد الدواب (١) . وسيظل ذكر السيف غضا لا يبلى مع ما عرف وما يعرف من أدوات القتال الجهنمية التي تركته أثرا من الآثار ؛ لأنه أصبح رمزا للحرب ولآلاتها جميعا ؛ لذلك لم نعجب من قول «هتلر» في بعض خطبه «أنتم في حماية السيف الألماني» ، وقول رئيس جمهورية فرنسا حينما استحررت المعركة في الحرب العالمية الثانية «لقد امتشقت فرنسا حسامها» .

ولبعض الألفاظ رسوخ في ميدان التفكير على توالي الحقب مما يجعلها مشبعة بالمعاني والتجارب والذكريات التي نسجها حولها الزمن وأودعها طياتها . وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة وتجعل أثره ممتدا إلى آفاق فسيحة . ولعل هذه الأنواع من الكلمات والعبارات هي التي لا تستغنى عنها اللغة في جميع عصورها مهما تبدلت حياة المتكلمين بها واختلفت بيناتهم ؛ لأن الزمن قد ثبت دعائمها وأوضح معالمها حتى أصبحت الأجيال المتعاقبة تحرص

---

(١) ثمار القلوب — ٣٠٦ .



عليها ، وتعمل على صيانتها ، كما تعمل على صيانة الآثار التاريخية التي تذكرها  
بماضيها ، وتربطها بحاضرها ومستقبلها ، وقد يكون هذا من بعض أسباب  
خلود الفن والأدب<sup>(١)</sup> .

ولاشك أنه توجد في اللغة العربية كما في غيرها تعبيرات ابتذلت بكثرة  
الاستعمال ، وهي ما يسميه الأستاذ « ديومبين » الفرنسي « كايشييه »<sup>(٢)</sup> ، .  
ولكن يجب أن يعرف أن هذا الابتذال عرض طارىء عليها ، وأن  
كثيراً منها بادية ذى بدء كانت ذات سنا وبهجة وروثق وماء تجمل في  
الأذان وتنبل في الصدور ، فمثلها كمثل الغيد الأماليد في طراءة السن وزهو  
نصبا ، ثم تدول دولتها وتحول حالها بتتابع السنين ، فإذا هن عجائز دميات  
تقنحمن العيون وكن فتنها ، وتصدف عنهن القلوب وكن كعبتها ، والله المتنبئ  
إذ يقول :

متّعينا بحسن وجهك مادام فحسن الوجوه حال تحول  
وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر : قد يسبق الأول إلى تشبيه لطيف  
بحسن تأمله ويدل على ذكائه ، وبشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك  
في أصله ، وحتى يجرى على دقة تفصيل فيه يجرى المجمال الذي تقوله الوليدة  
الصغيرة والعجوز الزرهاء . فإنك تعلم أن قولنا لا يشق غباره الآن في الابتذال  
كقولنا : لا يلحق ولا يدرك ، وهو كالبرق ونحو ذلك ، إلا أننا إذا رجعنا  
إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن  
قضى زمانا بطراءة الشباب وجدة الفناء وبغزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه  
وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يشق مطلبه ويصعب تناوله ، وأظهر منه  
قولنا : « أما بعد » منسوباً في الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن في

(١) الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد بك حسن - ١٨٨ .

(٢) الفن الفني في القرن الرابع للدكتور زكي مبارك - ١ - ١٨٠ .



البذلة ، كقولنا هذا بعد ذاك مثلاً ، وهذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى لخصها المتقدمون والقوانين التى وضعوها ، حتى صارت فى الاشتراك كالشىء المشترك من أوله ، والمبتذل الذى لم يكن الصون من شأنه ، والمبذول الذى يعترض دونه المنع فى شىء من زمانه<sup>(١)</sup> .

ورب نفيس جلب إليك من الأمانة الشاسعة وركب فيه النوى الشطون ، وقطع به عرض الفياضى ، ثم أخفى عنك فضله حتى جهلت قدره أن سهل مرامه واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى يحتاج إلى طلبه من مظنته لعلت إحسان الجائى به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولا كثرت من شكره بعد أن أقللت وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت ، وكذلك رب شىء نال فوق ما يستحقه من شغف النفوس به وأكثر مما توجهه المنافع الراجعة إليه ، لأنه لا يتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم وأكثر ووجود العوض عنه عند الفقر أعسر ، فكسبت عزة الوجود هذا عزاً لم يستحقه بفضله ، كما منعت سعة الآخر فضلاً هو ثابت له فى أصله .

### أسباب الابتزال .

ويرجع الابتزال إلى أشياء تمت إلى النفس بصلة قوية .

١ - إدراك الشىء بحملاً أسهل من إدراكه مفصلاً ؛ لعدم احتياجها فى فهمه إلى ملاحظات متعددة ؛ إذ التفصيل على أنظار كثيرة وتعريفات صعبة الإدراك ، ولذا كان العام أعرف من الخاص فإذا كان الوجه كذلك كان أمراً ظاهراً سهلاً تناول .

وهذا الحكم بأسبقية الجملة إلى النفوس من التفصيل ، يعم السمع وغيره من الحواس ، ويأتى التفصيل بعد ذلك فتستبين به أشياء كانت مطوية ، ولهذا قيل : النظرة الأولى حمقاء .

(١) أسرار البلاغة - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ .



وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسماع وسماع وهكذا ، وإنك في إدراك ما تراه أو تسمعه أو تذوقه كمن يلتقي الشيء من بين جملة ، وكمن يميز الشيء عما قد اختلط به ، فأما حين لا يهملك التفصيل فأنت كمن يأخذ الشيء جزافاً وجرافاً .

والأمر كذلك في القلب فالجمل أبداً هي التي تسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولاً ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، ونراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية والاستعانة بالتذكر ، وكلما أوغل الفكر في التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والعقل إلى التأمل والتأمل أشد .

فلاشتراك مثلاً في الصنعة من جهة الجملة على الإطلاق يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه ، نحو كلا الشينين أسود أو أحمر ، فإن دخل في التفصيل شيئاً احتيج بعد ذلك إلى إعمال الفكر مثل تشبيه حمرة الخد بشمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ، ويتعرف بفضل تأمل ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكرة وذلك مثل قول الشاعر :  
 كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازي من صريف اللوائك  
 فإنه أرفع طبقة من قول امرئ القيس :

كأن صليل المرو حين تُشذّه صليل زيوف يُنتقدن بعبقراً<sup>(١)</sup>  
 لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي أبين وأظهر منه في صليل الزيوف<sup>(٢)</sup> .

٢ — الشيء مع ما يناسبه أقرب حضوراً منه مع ما لا يناسبه .  
 فإن هناك مناسبة بين طرفي التشبيه ، فإن هذا التناسب من شأنه أن

(١) المرو : الحجارة البيض الرقاق ، وتشذه : تنجيه .

(٢) أسرار البلاغة — ١٣٠ — مواهب الفتاح — ٣ — ٤٥٥



يخطر في الذهن الأشياء المتقاربة في الصفات ، لأنها من واد واحد ، والطيور على أشكالها تقع كما قال الشاعر .

فإذا استحضر الخيال بعضها حضر غيره تبعاله بلا كلفة ولا مشقة ، لوضوح وجه الشبه الذي يقضى بسرعة الانتقال من أحد المتشابهين إلى الآخر ، كتشبيه العنب السوداء الكبيرة بالإجاصة<sup>(١)</sup> في الشكل والمقدار واللون ، والجزرة الكبيرة بالفيلة في الشكل والمقدار .

وهذه القاعدة خاضعة لما يسميه علماء النفس : « تداعى المعانى ، وهو ارتباط بين خاطرين يستدعى حضور أحدهما في الذهن عند حضور الآخر به ، ويسمى المعنى الداعى بالمقدم والمدعو بالتالى .

وذلك أنه لا توجد في العقل حقيقة منفردة ليس لها اتصال بغيرها من الحقائق ، ولا يلج الحواس شيء من غير أن يربط نفسه بحقيقة سابقة أو يذكر بمعنى قديم .

ومن عادة المعانى أن يدعو بعضها بعضا وتتأزر وتلتئم .

والنشاط العقلى فى أى لحظة زمنية ، هو حلقة من سلسلة متصلة هى مجرى شعور الإنسان الذى يبدأ منذ ولادته وينتهى بنهاية حياته ، فهو وحدة مستمرة وإن كانت دائمة التغير ، إذ أننا لو تأملنا فى حلقة من هذه السلسلة : أى ما يحتويه الشعور فى لحظة ما لوجدناها متصلة بالوحدة الشعورية السابقة لها ، كما أنها بدورها ذات شأن فى تعيين الحلقة التى تأتى بعدها .

وهذه العمليات الشعورية أو العقلية تستمر فى غير انقطاع ، حتى فى

---

(١) الإجاصة : البرقوق .



أثناء النوم وإن كان نشاطها وقتئذ في أحط درجاته (١) .  
ويرى الفيلسوف « هربارت » ، أن قوة دموع المدركات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية ، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم ، كذلك المعاني بتلك القوة تتآخى وتتآزر ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمزج معا في مادة معنوية يسيغها الذهن ويمتصها المخ ، كما تمتص الإسفنجية الماء . وتتوقف عليها الحياة .

ومن المعروف أن لتداعي المعاني جوامع كثيرة ، أهمها في موضوعنا هذا جامع التشابه ، كأن تكون بين الصورتين العقليتين شيء من التماثل يستدعى إحداهما إلى الحضور في الذهن ، وكلما عظم التشابه قويت الرابطة بين المعنيين وأسرع أحدهما للاتصال بأخيه (٢) .

٣ — كثرة تكرار المشبه به على الحس ودورانه على الفكر في كل الأوقات أو جعلها تثبت صورته في النفس وتجعله سريع الخطور بالبال ، لأن من عادة النفس أن تنتقل بسرعة إلى ما ألفته وأنست به قبل غيره لما بينهما من علاقة قديمة ، وهكذا يلحق التشبيه الابتذال .

فمثلا تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة في الاستدارة والاستنارة لا يخلو من التفصيل ، ولكن كثرة شهود المرآة وتكررها على الحس أوجب ابتذالها ، لأن كل شبه يرجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن تحس أبدأ ، فالتشبيه المعقود عليها نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع . ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل ، وما كان

(١) مبادئ علم النفس التعليمي — ٩٤ .

(٢) علم النفس وآثاره في التربية والتعليم — ١٤٧ إلى ١٥٠ — الغرائز — ٩٤ — ٩٥ .

علم النفس الأدبي — ٣٩ إلى ٤٢ — علم النفس التعليمي — ١٣٢ .



إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر .  
٤ - استحضار الأمر الواحد أيسر من استحضار غير الواحد ،  
وهذا الأصل له علاقة بالأصل الأول بالتفصيل والإجمال ، ومن هنا كانت  
وحدة الجبهة بين الطرفين تسقط التشبيه عن درجة الاعتبار كتشبيه الزنجي  
بالفحم ، لأن المتعدد صعب الاستحضار بخلاف الواحد الداعي إلى القرب .  
ومما يلاحظ أن قدامة (١) يؤمن بقرب التشبيه الذي يدنى إلى الاتحاد  
بين الطرفين .

ولهذا رأيناه يعد قول امرئ القيس :

له أيتلاظي وساقا نعاماً وإرخاء سرحان وتقريب تتفل  
من أحسن التشبيهات .

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي بعينها ، وأفعال بأفعال هي أيضاً  
بعينها إلا أنها من حيوان مختلف .

والأمر كما قال في قرب التشبيه إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ  
لأنه كتشبيه نفس الشيء ، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى  
تصير بينهما مناسبة واشتراك كما قال الأشجعي :

كأن أزيز الكير إرزام شخبها إذا امتاحها في محلب الحى ماتح  
فشبه ضرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء  
البعيدة .

ولو كان الوجه ما قال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعي ضرع  
عنزه بضرع بقرة حتى تتناسب أو خلف ناقة ، لأنه إنما أراد كبره وكثرة  
ما فيه من اللبن ، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذي دل به على أعظم  
ما يكون من كبر الضرع وكثرة لبنه (٢) .

(١) نقد الشعر - ٦٥ - ٦٨ (٢) العمدة - ١ - ٩٧



## الفصل الثالث عشر

### قيمة التشبيه البعيد الغريب

للتشبيه البعيد الغريب في النفس وقع شجاج يتغلغل إلى قراراتها ، ويهز أعمق أوتارها ، ويلبس مكان الطرب والاستحسان منها ، لأنه هبط عليها من أفق عال لا تستطيع أن ترتفع إليه بقوتها الذاتية ، وأطل عليها من نافذة سحرية لم تكن تترقب أن تطالعه منها .

والنفس مجبولة على أن تهش لمثل هذا العزيز النادر الذي ترى فيه اتساعاً لمداركها ، وتوشية لخيالها ، وامتداداً لصلتها بالكائنات ، وترويحاً لكدها ولغوبها ، وهدى هدة لهما وانقباضها ، برؤية الصور الجميلة المونقة من أثقال الحياة وأوزار العيش .

ثم هي إلى ذلك تشعر بما يشعر به الصائد عند الظفر بصيد ثمين بعد طول المصابرة وإنفاد الجهد ؛ فإن سروره بما لم يكن يقع في حسابه لا يعدله إلا طول الحنين إلى نيله ، وفرط الصبابة بالحصول عليه ، ومقاساة اللوعة في ترقب اقتناصه ، ولولا تفاوت الكلام في دقة معناه ولطف ترتيبه وملاحظة تركيبه واحتياج العقول إلى هتك أستاره عن أسرارهِ الحفية ، لما كان لكلام فضل على كلام ، ولتساوى في الفضل جميع الأنام ، ورحم الله الجاحظ إذ يقول : وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ، ولذة السبع بلطع<sup>(١)</sup> الدم وأكل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه .

---

(١) لطم الدم . شربه .



وفي هذا يقول القطامي :

وهن يَنْبِذْنَ من قول يُصْبِن به  
ويقول ابن الزيات في أبي تمام :

رأيتك سمح البيع سهلاً وإنما  
فأما إذا هانت بضائع بيعه  
هو الماء إن أجمته طاب ورده

ويقول العسكري :

بقدر الصباية عند المغيب  
وأطيب ما كان برد الثغور  
تكون المسرة عند الحضور  
إذا هو صادف حر الصدور

ويقول ابن وكيع :

قالوا عشقت كثير التيه ممتنعاً  
لو جاد هان وقلت الجود غايته  
فقلت هيهات عنكم غاب أطيبه  
ولأنما عزّ لماء عزّ مطلبه

ويقول آخر :

لولا أطراد الصيد لم تلك لذة  
هذا الشراب أخو الشباب وماله  
وما نقرؤه في تاريخ الأدب من تهلل الخلفاء والملوك والأمراء لسماع  
بيت من الشعر لشاعر غواص على المعاني الدقيقة ، رسام للصور المبتكرة ،  
فسّاج للديباجة الفاخرة ، فيزحف بعضهم عن دسته آوثة ، ويجلس من اتكاه  
مرة ، ويقوم من قعود أخرى ، وينادى بعضهم : أحشوا فاه درأحينا ، إنما  
هو الطرب لهذا البزّ النفيس يجلبه الشاعر من سوقه إلى سوقهم ، والانبهار

(١) يَنْبِذْنَ . يرمين .



بهذه القدرة على استئزال المعاني النافرة العسية من سمائه إلى أرضهم ، والبهجة بهذا التوفيق الخارق في التأليف بين أشياء يرونها بعيدة كل البعد ، ويراها قريبة كل القرب .

إن ما يميز الفنان العظيم هو إحساسه الأصيل بالأشياء ، وهذه الأصالة لا ترجع إلى الإدراك الأسهل والأرهف والأسرع ، ولكن إلى الفكر الأوسع المنظم المملوء بالفلسفة ، وإلى قوة الاستقراء والتعميم التي تجعله يستخرج من الشيء المدرك كل المعاني المبهمة الغامضة التي كان يحويها .  
لذلك كانت عظمة العباقرة كما يلاحظ ، رسكن ، تظهر في طريقته في النظر إلى التفاصيل .

إنهم في نفس الوقت الذي يدركون فيه الطابع المميز للشيء يدركون جميع ملامح الجمال التي يشترك فيها هذا الشيء مع مراتب من الوجود أعلى وأرفع ، أفليس هذا الإدراك للتشابه الكلي في الاختلاف الكلي هو بعينه ما كان يطلق عليه ، ليفنتس ، اسم الإحساس الفلسفي الحقيقي <sup>(١)</sup> .

ألمست ترى السحر عيانا بيانا في قول ابن طباطبا يهجو على بن رستم :  
أنت أعطيت من دلائل رسل الله م آياها علوت الرؤسا  
جئت فرداً بلا أب وبئمناء لك بياض فأنت عيسى وموسى  
فقد رماه بأنه دعوى وهو أخش ما يهجي به إنسان ، وعيره بالبرص وهو  
أخبث الأدوية المنفرة المعضلة . ثم غاص غوصة في أغوار الفكر خرج  
بعدها بكرة فائقة لا تقع إلا للآحاد في الزمن المتطاوول ، وهي تشبيهه بنبيين  
من طواويس الأنبياء ، خصا بمعجزات باهرة خرقت العوائد فكيف أتبع  
لهذا الشاعر أن يلعب بعقولنا ويلهو بعواطفنا ، فيلبس الظم في أبشع شياته  
لباس المدح في أبهى سماته ! فهل حام في خيالك - وأنت تقرأ البيت الأول



أن الشاعر يتخلص منه إلى هذا المعنى العجيب: هجاء إنسان أشد الهجاء، بانه  
نبي من الأنبياء !

وأنت ترى كل يوم الصباغان من الناس - ولعلك واحد منهم -  
وتشاهد كيف يتحيف الصلح شعورهم تدريجاً فيمتد بياض جباههم على مدى  
الأيام ، وينقص سواد رموسهم شيئاً فشيئاً ، ولكن هل أتيح لك أن ترسم  
هذه الصورة التي رسمها ابن الرومي :

يجذب من نقرته طُرة إلى مدى يقصر عن نيله  
فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

واسمع قوله أيضاً يشبه القوادة بالمقص :

تسعى لكي تجمع وسطياً كأنها مسمار مقراض

فهل يمكن أن توصف القوادة بأبلغ وأدق وأوضح وأوجز من هذا  
المعنى ! مسمار مقراض يضم وسطين !

أليست هذه الصورة من نوادر ما يقذفه الشيطان على السنة الشعراء أحياناً !  
قد كان مبلغ الشعراء أن يشبهوا القوادة بالخر في تيسيرها عسر النساء  
كما يقول بعضهم .

لقد لقبوا الراح بالعجوز وما تخرج ألفاظهم عن العادة  
ألانت الغادة التي امتنعت فصح أن العجوز قواده  
ولكن أين هذا المعنى من ذاك ! أين سنبلة الأرض من سنبلة السماء !  
وقد أكثر الشعراء من وصف الخال فأحسنوا وأجادوا ، ولكن هل  
استطاعوا مجتمعين أن يقولوا فيه مثل قول ابن حمديس :

يا سالباً قمر السماء جماله البستني للحزن ثوب سمائه  
أضرمت قلبي فارتى بشرارة وقعت بخدك فانطفت في مائه



ما الذى يقوله هذا الشاعر ؟ .

يقول : إن محبة سحر قلبه ناراً ، فطار من شرارة وقعت على خده  
الغض البض ، فانطفأت فى مائه ، فاستحالت فوقه نقطة سوداء !  
وهل تلد النار غير الرماد ، وهل يسلم من يلعب بالنار من أن  
يحرقه الشرار ؟ .

ألست ترى أن الشاعر قد أبدع فى جمعه بين الماء والنار ، وأنه علل  
فأحسن التعليل !

ثم انظر إلى قول المتنبي :

كأن الهام فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد  
شبه الروس فى الحرب بالعيون ، والسيوف بالرقاد ، والرقاد لا ينزل  
عادة إلا العيون كما قال عبد المطلب بن هاشم :  
كالنوم ليس له مأوى سوى المقل .

فكذلك هذه السيوف لا تجد مجداً عن الهام ، فلا تنزل إلا فيها .  
ولا توصف السيوف فى إصابة المقاتل بأبرع من هذا .  
وليس كل شاعر يستطيع أن يأتي بهذا المعنى الدقيق اللطيف ، بل إن  
هذا المعنى فى فهمه محوج إلى فكر دقيق لطيف ..  
ولكن ما مدى هذا البعد ؟

أهو الاستغلاق والعموض بسبب الوحشية والغرابة والمعاظلة  
وهو التعقيد اللفظي ؟

أهو تعسير الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى المراد من اللفظ ،  
وهو المسمى بالتعقيد المعنوي ؟

أهو عدم التلائم بين الطرفين فيدفع أحدهما فى قفا الآخر ويصك  
وجهه وينادى بالبرامة منه ؟



إن هناك بعدا يرجع إلى عمق المعاني وخصبها واكتنازها وطرافتها وترتيب بعضها على بعض ، ودقة المسالك في التقاط الشبه من نواح تعز على غير الفكر اللماح والنظر النافذ ، فترى الصلة بين الطرفين واضحة وضوح الشيء المتعين في مكانه . ولكنك مع هذا تؤمن بأنها صلة غريبة لأنها لم تكن تخطر لك على بال ، وكيف لا تكون غريبة وأنت ترى الشئيين المختلفين وضعاً موضع المؤلفين !

وهذا الحسن تجده في الألوان أيضا ، فلا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ماينه وبين الأصفر وبعد ماينه وبين الأسود ، وهذه هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة ولهذا جاء قول الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيض      والشعر مثل الليل مسود  
عندان لما استجمعا حسنا      والضد يظهر حسنه الضد<sup>(١)</sup>

وهناك بعد أقرب من القرب ، ولكنه اختفى في ظلام دامس من رداءة الصنعة : وسوء الفسج ، ووهن الربط ، وفساد المقايسة ، فأفته من معرضه الذي نص فيه ، وصورته التي تقمصها .

ومع هذا يجب أن يكون معروفا أن هذا البعد المحمود الذي نعينه ، ليس هو الإفراط في التدقيق حتى تأتى بما يجهد ذهن الخاصة ويسمو على تناول أفهامهم ، فالشأن — كما يقول عبد القاهر — : إني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه في نحو قوله :

فإن المسك بعض دم الغزال



فأنت تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهرية في الصدف لا تبرز لك إلا أن تشقه عنها ، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه . ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه ، وما كل أحد يفاجئ في شق الصدفة ويكون في ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له .<sup>(١)</sup>

ومذهب عبد القادر هذا لا يزال هو المذهب السائد حتى عصرنا الحاضر . فهذا الدكتور طه حسين باشا يقول : كنت أقرأ في كتاب « ليون فاريري » ، عن « مالارميه » . فإذا بيول فاريري عندما أراد أن يحدد الشعر بقول : إن الشعر هو الكلام الذي يراد به أن يحتمل من المعاني ومن الموسيقى أكثر مما يحتمل الكلام العادي .

والشاعر المجيد حقاً يمتاز من غير المجيد : بأنه إذا تحدث إليك لم يتمكنك أن تسير معه كما تسير مع نفسك ، وإنما يضطرك أن تفكر وأن تجهد نفسك في أن تفهمه وتحسه وتشعر معه ، فأبوتام هذا هو الشاعر الذي يأتيك بأشياء لا تكاد تسمعها حتى تأخذك الدهشة . وإذا أنت قد خرجت عن طورك واضطرت إلى أن تفكر مع الشاعر وإلى أن تسير معه .<sup>(٢)</sup>

وقد كشف عبد القاهر عن هذا البعد وبين حدوده وقيوده بقوله : واعلم أني لست أقول لك : إنك متى ألقت الشيء بعيد عنه في الجنس على الجملة ، فقد أصبت وأحسنت . ولكن أقول بعد تقييد وبعد شرط : وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبيهاً صحيحاً معقولاً ، ونجد للملاممة والتأليف السوى بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً ، وحتى يكون اتلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس في وضوح اختلافهما

(١) أسرار البلاغة - ١١٠ - ١١١ (٢) من حديث الشعر والنثر - ١٥٧



من حيث العين والحس، فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا ؛ لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الآخرق يصنع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة ويحىء فيها تنوء ، ويكون للعين من تفاوتها نبو ، ولم أرد بقولي : إن الخدق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس ، أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدرر .<sup>(١)</sup>  
فتلا قول جرير في الأخطل :

والتغلي جنازة الشيطان

من البعيد المرغوب عنه لغموض معناه حتى عدوه من العى كما يقول  
المرزبانى .<sup>(٢)</sup>

وكذا قول أبى نواس :

وإذا ما الماء واقعا أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها كأنحدار الدر من جبل

شبه الحب في انحداره بنمل صغار تنحدر من جبل ، وهذا من البعد

على غاية لا يحتاج إلى بيان وإيضاح .<sup>(٣)</sup>

وقول بعض الشعراء :

ملا حاجيك الشيب حتى كأنه ظباء جرى منها سنيح وبارح

فالتشبيه في غاية البعد لفقد الملائمة بين طرفيه ، فأى علاقة بين شيب

الحواجب ، وبين الظباء التى يجرى بعضها يمينا وبعضها شمالا ؟

(١) أسرار البلاغة - ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) الموشح - ١١٨ (٣) المثل السائر - ١٦٤ (٤) ثمار القلوب - ٣٩



ولكن انظر كيف شبه إسحاق الموصلي أباريق الخمر بالطباء فأجاد التشبيه في قوله :

كأن أباريق المدام لديهم      طباء بأعلى الرقتين قيام  
وقد شربوا حتى كأن رقابهم      من اللين لم تخلق لهم عظام  
فهذا من البعيد القريب معا .

ثم انظر إلى البعيد المخترع في قول ابن الرومي :

مديحي عصي موسى وذلك أني      ضربت به بحر الندى فتضحضحا  
فيا ليت شعري إن ضربت به الصفا      أبيعث لي منه جداول سبيحا  
كتلك التي أندت ترى الأرض يابسا      وأبدت عيوننا في الحجارة سفحا  
سأمدح بعض الباخرين لعله      إن اطرده المقياس أن يتسمحا

قال الثعالبي : ولولم يفتزع غير هذا المعنى البكر لكان أشعر الناس ، إذ شبه مديحه بعصا موسى التي ضرب بها البحر ، فيبس وضرب بها الحجر فانجس ، وذلك أن ابن الرومي مدح جوادا فيخل ، فقال سأمدح بخيلا قلعله أن يجود على هذا القياس .

#### سبب البصر .

قدمنا أن البعد والغرابة في التشبيه ترجع إلى خفاء وجه الشبه في بادية الرأي ، فيحتاج الأمر إلى إمعان وتدبر في استخراج ما يكمل به القصد .

وهذا الخفاء يرجع إلى أشياء كثيرة :

١ - كثرة التفصيل في وجه الشبه ، وهو أن يكون أمورا كثيرة بعيدا كل منها عن الآخر في الخيال كما في تشبيه سقط الزند بعين الديك في الشكل واللون ، وكتشبيه الإنسان بالخنفساء في اللجاج .



وكقول الراجز — <sup>(١)</sup> وهو من بديع ما قيل في انقلاب الشمس عند الغروب <sup>(٢)</sup> — :

صب عليه قانص لما غفل      والشمس كالمرآة في كف الأشل  
وفي رواية :

والشمس كالمرآة في كف الأشل      لما رأيتها فوق الجبل  
وهو يشبه الشمس بذلك عند طلوعها <sup>(٣)</sup> .

والشبه على كل حال يصلح للشمس في حال الشروق والغروب .  
وجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق ، والحركة  
السريعة المتصلة مع تموج الإشراق واضطرابه بسبب تلك الحركة ، حتى يرى  
الشعاع كأنه يهيم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة ، ثم يبدو له  
فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى انقباض كأنه يجمع من جوانب الدائرة  
إلى الوسط ، فالشمس إذا أحد الإنسان النظر إليها ليتبين جرمها وجدها  
مؤدية إلى هذه الهيئة ، وكذلك المرآة في كف الأشل .

ومثله عند العسكري قول أبي النجم  
وصارت الشمس كعين الأحول

ومن ذلك قول المعوج الشاعر في معناه :  
كأن شعاع الشمس في كل غدوة      على ورق الأشجار أول طالع  
دنانير في كف الأشل يضمها      لقبض قهوى من فروج الأصابع  
وهو مأخوذ من قول أبي الطيب :  
وألقي الشرق منها في ثيابي      دنانيراً تفرّ من البنان

(١) اختلف فيه قليل : الصباح أو ابن أخته أو ابن المعتز أو أبو النجم . معاهد التنصيص

— ١ — ١٤٤ . (٢) ديوان المعاني — ١ — ٣٥٩

(٣) بغية الإيضاح الأستاذ عبد المتعال الصمدي — ٣ — ٢٤

(٤) الشرق : الشمس .



وقول القاضي الفاضل :

والشمس من بين الأرائك قد حكت سيفاً صقيلاً في يد رعشاء

وقول التلعفري :

أفدى الذى زارنى فى الليل مستتراً أحلى من الأمن عند الخائف الدهش  
ولاحت الشمس تحكى عند مطالعها مرآة تبردت فى كف مرتعش

وقول إدريس بن اليماني العبدى :

وكان النجم حين بدا درهم فى كف مرتعش

ونقله بعضهم إلى معنى آخر فقال فى الخمر :

كانت سراج أناس يهتدون بها فى سالف الدهر قبل النار والنور  
تهتز فى الكأس من ضعف ومن هرم كأنها قبس فى كف مقرر

٢ - ندرة حصول المشبه به فى الذهن إما عند حضور المشبه لبعده

المناسبة بينهما كما مر فى تشبيه البنفسج بنار الكبريت .

ولما مطلقاً : أى بصرف النظر عن حضور المشبه ؛ لكونه مركباً خيالياً

كالنار نجمة وشمس من عقيق فى سماء زبرجد ، أو وهمياً كأناب الأغوال ، أو

عقلاً كاليهود والحمار يحمل الأسفار .

وقد تكون الندرة لقلة تكرره على الحس كما سبق .

وذهب الخطيب : إلى أن ندرة حضور المشبه فى الذهن موجهة للغرابة

على الإطلاق ولو كان الوجه جليلاً لا تفصيل فيه ، وقد يكون الإجمال حيناً

أبلغ من التفصيل لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب كما سبق فى

باب الإيجاز <sup>(١)</sup> .



### أنواع التفصيل .

وأنواع التفصيل في وجه الشبه الموجهة للخرابة له كثيرة العدد ، وقد ذكر الدسوقي : أنها تبلغ اثني عشر نوعاً (١) .

وذكر عبد القاهر : أن القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعراف ، وإلا فدقائقه لاتكاد تضبط (٢) .

وأعرف هذه الأنواع ثلاثة :

١ - أن تأخذ بعض الأوصاف وتدع بعضها الآخر كقول امرئ القيس :

حملت رُدينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

فإن الشاعر عمد إلى تفصيل دقيق جميل لا يمكن أن يسنح بديهية في الخاطر من غير تفكير ولا ترو فيه ، فهو قد عرف بعد التثبيت والموازنة بين الأصل والفرع أن سنان الرمح لا يشبه اللهب على إطلاقه ، لأن اللهب لا ينفك عن دخان يخالطه ، فرأى أن ذلك يقدر في حقيقة التشبيه ويئلم كماله . وإذن فلا مناص من استثناء الدخان ونفيه عن السنان ؛ لأنه لا يوجد في رأسه ما يشبهه وبذلك تم التشبيه من غير عيب لحقه .

وإنك لتحس الفرق واضحاً بين البيت المتقدم وبين قول عنتره العبسي :

يصف حملة ورد بن حابس على نضلة الأسدى :

يتابع لا يلتغى غيره بأبيض كالقبس الملتهب

مع أن المشبه به واحد فيهما وهو شعلة النار ؛ لأن الأول فصل حين استثنى الدخان ، والثاني أجمل بترك الاستثناء .

ومثل قول امرئ القيس قول السرى الرفاء يصف الخمر :

كأن الشرب ينتهبون ناراً لها لهب وليس لها دخان

(٢) أسرار البلاغة - ١٣٥ .

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٤٥٣



وقول النمرى :

أهدى لنا برداً بلوح كانه      فى الجو حبّ لآلىء لم يثقب  
أو ثغر حواء اللّات تبسمت      عن واضح مثل الآقاحى أشنب  
وهذا النوع يسمى « الإيغال » فى علم المعانى ، وهو أن يستوفى الكلام  
معناه قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى المقطع فيضيف إليه معنى آخر يزيد به  
ووضوحاً وشرحاً وتوكيداً حسناً .

ومن ذلك أيضاً قول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول خبائنا      وأرحطنا الجزع الذى لم يثقب  
فقد أتى على التشبيه كاملاً قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة  
بالجزع ، وهو خرز يبنى صينى فيه سواد وبياض تشبه به العين .

ثم لما أتى بالقافية أو غل بها فى الوصف وجوده وأكده بقوله : لم  
يثقب وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه لأن عيون الوحش غير مثقبة .  
وقول زهير من معلقته :

كان فئات العين فى كل منزل      نزلن به حبّ الفنا لم يحطم  
فالعين : الصوف الأحمر ، والفنا : حب أحمر تنبتة الأرض وإذا كسر  
أيضاً ، فاستظهر فى القافية لما أن جاء بها بأن قال : لم يحطم .  
فأكد التشبيه بإيغاله فى المعنى .

وقد سئل الأصمعى من أشعر الناس ؟

قال : من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، وإلى الكبير فيجعله  
بلفظه خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى نحو  
قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل      رسوما كأخلاق الرداء المسلسل  
فتم كلامه بالرداء قبل المسلسل ، ثم قال : المسلسل فزاد شيئاً .



وقوله :

أظن الذي يجدى عليك سؤاها دموعا كتبديد الجمان المفصل  
فتم كلامه بالجمان ، ثم قال : المفصل ، فزاد شيئاً <sup>(١)</sup> .  
ومن ذلك قول حسان :

كأن ريحهم في الناس إذ خرجوا ريح الكلاب إذا مامسها المطر  
فاستوفى المعنى عند قوله : ريح الكلاب .  
ثم قال : إذا مامسها المطر فجاء بتميم حسن <sup>(٢)</sup> .  
والكلاب تزداد رائحتها خبثاً بالبلل ، قال الشاعر :

يزداد نثنا على المديح كما يزداد نثن الكلاب بالمطر

٢ — أن يكون التفصيل بالنظر إلى خاصة في بعض الجنس كالتى تجدها  
في صوت البازى وعين الديك حين تشبه صوت الناقة بالأول والخر الصافية  
بالثانية ، فليس كل صوت يشبه صوت البازى لأن له صرصرة متميزة يعرف  
بها ، وليست كل حمرة كحمة عين الديك ، لأن حمرتها رقيقة ناصعة .  
وسوادها صاف براق .

٣ — أن يكون التفصيل بأخذ الأوصاف جميعها التى يتألف منها التركيب  
في المعنى ، فتنظر إليها في المشبه على جهة التقصى ثم تطلبها في المشبه به كذلك  
حتى تعثر على وجه الشبه كاملاً كقول ابن وكيع التنبسى في البلح :

أما ترى النخل طارحاً بلحاً جاء بشيراً بدولة الرطب  
كأنه والعيون تنظره إذا بدا زهره على القضب  
مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرءوس بالذهب

فهو قد نظر من البلح إلى الحجم والقَد والهيئة واللون الجزئى ، ثم قصده

(١) الصناعتين — ٣٧٠ — العمدة — ٢ — ٤٦ (٢) ديوان المعاني — ٢ — ٤٦



مثالا فوجده في المسكاحل المخروطة من الزمرد المقمعات الروس بالذهب  
بخلاف قول عبد الصمد فيه .

كأنه في ناضر الأغصان زمرد لاح على تيجان  
فإنه لم ينظر لغير الاشتراك في اللون الأخضر .  
وقد مرت بك أمثال كثيرة من هذا النوع في مراعاة وجه الشبه .

### كرة التفصيل أفضل .

ويتفاوت التفصيل في الأفضلية فما نظر فيه إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث  
جهات أفضل مما نظر فيه إلى شيئين أو جهتين ، وما نظر فيه إلى شيئين  
أو جهتين أفضل مما نظر فيه إلى شيء واحد أو جهة واحدة .  
وذلك كقول الناجم :

نقذها مشعشة قهوة تصب على الليل ثوب النهار  
ويسبلها الخد جريالها فتهديه للعين يوم الخمار  
وقول العسكري :

شقائق كناظر الخمر وأقحوان كشغور الحور  
ونرجس كأنجم الديجور

فذكر الأول حمرة العين عند الخمار فقط ، وأما الثاني ، فشبه ما يعترى  
بياض العين والخالق من الحمرة عند الخمار مع سواد الحدقة بحمرة الشقائق ،  
فاعتبر عدة أشياء في الطرفين .

وقول بعضهم في الرمان :

لله رمانة من فوق دوحها مثالها بيدع الحسن منعوت  
فالقشر حق نضار ضم داخله والشحم قطن له والحب ياقوت  
وقال آخر :

رمانة صبغ الزمان أديمها فتبسمت في خضرة الأفنان



فكانت هي حُقَّة من صندل قد أودعت خرزا من المرجان  
فالأول راعى أربعة أشياء وهي حق من الذهب مضموم الداخل ،  
والشحم المشبه بالقطن ، والحب المشبه بالياقوت .  
والثاني راعى شيئين فقط ، وهما حقة الصندل والحب المرجاني .  
وقول ابن هانيء الأندلسي :

كان عمود الصبح خاقان عسكر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى  
وقول حازم الأندلسي :

كان بياض الصبح معصم غادة جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا  
فالأول اقتصر على ذكر البياض المتمثل في خاقان الترك ، وذكر السواد  
المتمثل في نجاشي الحبشة ، وكأنه قال : إن بياضا صاح بالسواد فاخفى ،  
على أن تشبيه الصبح والليل بالخاقان والنجاشي مطروق .

أما الثاني فقد تصرف وأكثر من التفصيل ، فبياض الصبح معصم غادة ،  
والدجى حديقة أزهارها النجوم ، وكف الغادة البيضاء تنحى على هذه  
الأزهار فتلقطها واحدة بعد أخرى ، وهو المناسب لطلوع الصبح وأقول  
النجوم ؛ لأنها لا تختفى مرة واحدة ، بل تزول مع الظلام شيئا فشيئا لا كما  
يفيده قول ابن هانيء .

ومن الاستقصاء في التفصيل قول ابن المعتز :

كاننا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غرابا ذا قوادم جون  
شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن  
تكون قوادم ريشها بيضا ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيتها من  
حيث يلي معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل منها في العين كشكل قوادم  
إذا كانت بيضاء .



وتمام التدقيق والسحر في هذا التشبيه في شيء آخر ، وهو أنه جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل في حركتها .

ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره في التشبيه أخيراً ، فقال : نظير غراباً ولم يقل غراب يطير مثلاً ، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعاً به حادثاً في مكان فآزعج وأخيف وأطير منه ، أو كان قد حبس في يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمد له وأبعد لأمدده ؛ فإن تلك الفرعة التي تعرض له من تنفيره أو الفرحة التي تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعتة إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق وبصير إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وألا يسرع في طيرانه بل يمشى على هينة ، ويتحرك حركة غير المستعجل .

وجملة القول أنك ما زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد وجهة واحدة ، فقد دخلت في التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلط المنازل في الفضل بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد <sup>(١)</sup> .



## الفصل الرابع عشر

### رفع الابتذال عن التشبيه

ليس الابتذال مما يصحب التشبيه دائماً وأبداً كالأعراض المعضلة التي نستعصى على الطب ، ولكنه سقم طارئ يمكن علاجه ، ففي قدرة البليغ الحاذق أن يضيف على التشبيهات المبتذلة معارض من نسجه الموشى أو أشعة من خياله الفضفاض ، أو يتصرف فيها نوعاً من التصرف بنقلها من جهة إلى أخرى ، أو يضيف إليها نكتة ييانية ، فينقلها من ذل الابتذال إلى عز الصيانة ، ومن ضعة القرب إلى شرف البعد .

ووسائل ذلك كثيرة منها :

١ - أن يأتي بالتشبيه مطوياً أو مشاراً إليه كقول الناجم :

طالبت من شرد نومي وذعر<sup>١</sup>      بقلة<sup>٢</sup> تحسن في القلب الأثر<sup>٣</sup>  
فقال لي مستعجلاً وما انتظر      ليس لغير العين حظ في القمر

فهو يسوى نفسه بالقمر في أن المتعة به مقصورة على العين فقط ، فجاء بالتشبيه ضمناً لا شتراكهما في هذه الصفة فأثبت له ضمناً أنه قمر ؛ وبذلك أخرج التشبيه عن دائرة الابتذال ، لأن التشبيه بالقمر لا كتبه الألسن من القديم .

ويقول ابن بسام في قول ابن دراج القسطلی :

حتى بدا الصبح مشمطاً ذوائبه      يطارد الليل موشياً أكارعه  
الأكارع : الأطراف .

أصاب في الإشارة إلى التشبيه لأنه أوماً إلى أن الصبح كالثور الوحشي



وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض وأكارعها موشية خاصة <sup>(١)</sup> .  
ويقول الشهاب الخفاجي في «الإيمان» <sup>(٢)</sup> : وهو إما إيمان إلى التشبيه  
كقوله :

جاموا بمذق هل رأيت الذئب قط

أو إيمان إلى غيره .

وكنيت قبل هذا سميت طيف الخيال ، وهو أن يرسم في لوح فكرك  
معنى صورته يد الخيال فتصبه في قالب المتحقق ، وترمز إليه بجعل رواده  
وآثاره محسوسة ادعاء ، كما أن ما يلقي إلى المتخيلة في المنام يرى كذلك .  
ولا يلزم من ابتناؤه على الكناية والتشبيه أن يعد منهما لأمر ما يدريه من له  
خبرة بالبديع .

وفي كتاب الإشارة لابن عبد السلام : من المجاز تنزيل المتوهم منزلة  
المتحقق .

ومن أمثاله قول المنازى <sup>(٣)</sup> :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنى علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألد من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى	فلمس جانب العقد النظيم

شبه الحصى بالدر ضمنا .

وقول المعري في درعياته :

إن يرها ظمآن في مهمه يسألك منها جرعة للفم

(١) الذخيرة - ١ - ٦٩ (٢) طراز المجالس - ٤

(٣) الصحيح أنه لحدونة الأندلسية كما حققه أبو جعفر الأندلسي . خزائن الأدب للعموي



وقوله :

وقد أهوت إلى درعى لميس      لئلا من جوانبها الإداوة (١)  
شبه الدرع بالماء فى صفائها ولآلائها ضمنا .  
وقول غالب الحجام فى ملبح يلعب بتفاحة :

عاينته      وبكفه      تفاحة      قد ألّبت من وجنتيه بردها  
يرى بها فى وجهه وبطنها      من خده سقطت فيبغى ردها  
شبه التفاح بالخذ ضمنا والتشبيه مقلوب .  
وقول البديع :

إذا اقتنصت منه خراسان لفظه      أماطت نساء الحى در المخاق  
أى استغنت النساء بدر لفظه عن در عقودها .  
ومن بدائع هذا النوع :

قول المتنبي :

رأت وجهه من أهوى بليل عواذلى      فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر  
وقوله :

ولما التقينا والنوى ورقبنا      غفولان عنا ظلت أبكى وتبسّم  
فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها      ولم تر قبلى ميتا يتكلم  
وقول الثعالبي :

وكان بابل أصبحت فى جفنه      وكأنما الأهواز فى شفّته  
يؤمى إلى أن جفنه ساحر ، لأن بابل موطن « هاروت ، و « ماروت »  
ملكى السحر .

وإلى أن ريقه حلوا كالسكر ، لأن الأهواز معروفة بالسكر .

(١) الإداوة : أداة التطهر .



وقد ذكر المرزبانى <sup>(١)</sup> : أنه لما وقع كالإيماء قول الفرزدق :  
 ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل  
 وتأويل الشعر : أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهى الضعيف .  
 وقوله : قضى عليك به الكتاب المنزل : يريد قول الله — عز وجل — :  
 « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .  
 وقول آخر :

برومون في غير المكان الذى له      خلقت وبعضى متكر ذاك من بعضى  
 فقولوا لبدر التم يترك سماه      ويحتل من أجل التواضع فى الأرض  
 وقول آخر :

وحديث إذا سمعناه لم ند      ربحمر نضحنا أم بشهد  
 أنفت من براقع الخز والقزم      م حدود قد برقعوها بورد  
 وقول آخر :

لا آكل التفاح دهرى ولو      جنته كفى من جنان الخلود  
 تالله لا أتركه عن قلى      لكننى أتركه للحدود  
 وقول آخر :

رصدت غفلة الرقيب فزارت      تحت ليل مطر ز بهار  
 فتعجبت من سراها فقالت      غير مستطرف سرى الأقمار  
 وقول ابن منير :

لا تخذعك وجنة حمرة      رقت فى الياقوت طبع الجلمد  
 وقول الإسعردى :

قد كدت أحرق خده يوم النوى      بتنفس لو لم يكن ياقوتا



وقول ابن زيدون :

لا يَهِنُ الشامت المرتاح خاطره      أنى معنى الأمان ضائع الخطر  
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة      أم الكسوف لغير الشمس والقمر  
إن طال فى السجن إبداعى فلا عجب      قد يودع الجفن حد الصارم الذكر

وقول أبى تمام :

أبا القاسم المحمود إن ذكر الحمد      وقيت الرزايا ما تروح وما تغدو  
فإن تك قد نالتك أطراف وعكة      فلا عجب أن يُوعك الأسد الورد  
بنا لابلك الشكوى وليس بضائر      إذا صح نصل السيف ما لقي الغمد

وقول شوقي :

هام      الفؤاد بشادان      ألف الدلال على المدى  
أبكى      فيضحك نغره      والكم يفتح الندى  
الكم بالكسر : كأس الزهرة يريد : أن فمه كالزهرة .

ومن نوادر المطوى ما كتب به ابن مطروح إلى البهاء زهير يستهديه  
ورقا ومداداً : (١)

أفـلـست ياسـيـدى من الورق      فابعث بدرج كعرضك اليق (٢)  
وإن أتى بالمداد مقترنا      فرحبا بالحدود والحدق  
يشير إلى أن الورق كالحدود والخبر كالحدق .

فسير إليه البهاء ما طلب وكتب معه :

مولاي سيرت ما رسمت به      وهو يسير المداد والورق

(١) ديوان البهاء زهير - ١٤١

(٢) اليق بفتحين : الشديد البياض ؛ يقال : أبيض يقق ، وأحمر قانق وأصفر قاقق ،  
وأسود حالك ، وأخضر ناضر ، وأزرق غامق ، ويقال : ناصع للجميع .



وعزَّ عندى تسيير ذاك وقد شَبَّهَ بالحدود والحدق  
وقد أفاض عبد القاهر فى قيمة التشبيه المطوى وأثره فى رفعة شأن  
التشبيه المبذل، وخلع أشعة الحسن عليه حتى كأنه شىء جديد !  
يقول . . . . من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ،  
وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلال ، ونفى الالتباس  
والخفاء .

وذلك فى المشترك العامى والظاهر الجلى . . . . فإذا ما ركب عليه معنى  
ووصلت به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز  
والتلويح ، فقد صار - بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستجد  
له من المعرض ، وكسى من ذلك التعرض - داخلا فى قبيل الخاص الذى  
يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل إليه بالتدبير والتأمل ، وذلك كقولهم  
- وهم يريدون التشبيه - : سلبن الظباء العيون ، كقول بعض العرب .

سلبن ظباء ذى بقر طُلاها      ونَجَلَّ الأعين البقر الصوارا (١)  
وقوله :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت      إلى نذاك فقاسته بما فيها  
وقوله :

لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا      إلا بوجه ليس فيه حياء  
وقوله :

واهتز فى ورق الصبا فتحيرت      حركات غصن البانة الأملود  
وقوله :

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة      أقابل بدر التم حين أقابله  
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما      لديه لأمسى حاتما وهو عاذله

(١) الطلا : الأعناق جمع طلبة بالضم ، والصوار ككتاب وغراب : القطيع من البقر .



فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ، واسكن كنى لك عنه  
و خودعت فيه ، وأتيت به من طريق الخلابة والسحر فى مسلك السحر  
ومذهب التخيل ، فصار لذلك غريب الشكل ، بديع الفن ، منيع الجانب  
للابدين لكل أحد .

وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه والحالة التى تراها تنفى  
الاشتراك وتآباه ، إنما هما من أجل أنهن جعلوا التشبيه مدلولاً عليه بأمر آخر  
ليس هو من قبيل الظاهر المعروف . . . . . فهو إذا قال : سرقن الظباء  
العيون فقد أوهى أن تم سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن  
كنت تعلم — إذا نظرت — أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء  
فى الحسن والهيئة وفترة النظر <sup>(١)</sup> .

٢ — أن يشترط فى تمام التشبيه وجود وصف لم يكن ، أو انتفاء  
وصف كان ولو ادعاء ، أو بعبارة أخرى . أن يقيد المشبه أو المشبه به أو كلاهما  
بشرط وجودى أو عدمى يدل عليه بصريح اللفظ أو سياق الكلام ، بشرط  
أن يكون ذلك على وجه دقيق .

ويسمى هذا التشبيه : التشبيه المشروط .

وذلك كقول أعرابي :

ألا حبذا البرد الذى تلبسينه	ويا حبذا من باعك البرد من تجر
فلو كنت ماء كنت ماء غمامة	ولو كنت دراً كنت من درة بكر
ولو كنت لهواً كنت تعليل ساعة	ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلاً كنت قراءاً جنباً	نحوس ليالى الشهر أو ليلة القدر

وقال رجل يهجو :

لو كنت ريحاً كانت الدبوراً      أو كنت غيماً لم يكن مطيراً

(١) أسرار البلاغة — ٢٧٧ إلى ٢٨٩ .



أو كنت ماء لم يكن طهوراً      أو كنت مخاً كنت مخاريراً<sup>(١)</sup>  
أو كنت برداً كنت زمهريراً

وقول آخر :

لو كنت ماء لم تكن بعذب      أو كنت سيفاً كنت غير غضب  
أو كنت لحماً كنت لحم كلب      أو كنت عيراً كنت غير ندب<sup>(٢)</sup>  
وقال رجل من بني تميم :

لو كنتم ماء لكنتم زبدًا ، أو كنتم لحماً لكنتم غُددًا ، أو كنتم غنماً  
لكنتم نقدًا<sup>(٣)</sup>

وقال عوف بن محمّ :

وصغيرة علّقتهم ——— كانت من الفتن الكبار  
كالبدر إلا أنها      تبقى على ضوء النهار  
وقال ابن الرومي يصف إنساناً بكثرة الأكل :

شبه عصا موسى ولكنه      لم يخلق الله له فاها  
رفقا بزاد القوم لاتفنه      ياناقة الله وسقياها

وقال المتنبّي :

لو كنت عصراً منبتاً زهراً      كنت الربيع وكانت الورداء  
وقوله :

لو كنت بحراً لم يكن لك ساحل      أو كنت غيثاً ضاق عنك اللوح<sup>(٤)</sup>  
وقال المعتمد بن عباد في أبيه :

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً      وبعد ذلك يُلّقى وهو معتذر

(٢) الندب : الجسور .

(٤) اللوح بالضم : الجو .

(١) الرير والرار : الرقيق الفاسد .

(٣) النقد بفتحين : صغار الغنم .



له يد كل جبار يقبلها      لولا نداها لقلنا إنها الحجر<sup>(١)</sup>  
وقال سيف الدين بن جبارة في الأهرام :

لله أى غريبة وعجيبة      فى صنعة الأهرام للألباب  
أخفت عن الأسماء قصة أهلها      ونضت عن الإبداع كل نقاب  
فكأنما هى كالخيام مقامة      من غير ما عمد ولا أطناب

وقال ابن سناء الملك :

نعم هى سعدى وهى لى قمر سعد      وصال ولا صد وقرب ولا بعد  
يعانقها من دونى العقد وحده      فيا عجباً يا قوم هل يعشق العقد  
هى البدر إلا أنه كله سنا      هى الغصن إلا أنه كله ورد  
ولو أبصر النظام جوهر ثغرها      لما شك فيه أنه الجوهر الفرد  
ولشاعر فى نار نجة :

يأرب نارجة يلهو القديم بها      كأنها كرة من أحمر الذهب  
أو جذوة حملتها كف قابسها      لكنها جذوة معدومة اللهب  
وقال آخر :

هو البحر إلا أنه عذب مورد      وذا عجب أن العذوبة فى البحر  
وقول البارودى :

قد أشبهتني فى الهوى لكنها      لم تحكني فى لوعتي وشقائي  
وقال :

طرف لو ان الظبا كانت كلحظته      يوم الكريهة ما أبتت على ودج  
وقال شوقي من أندلسية :

والنيل يُقبل كالدينيا إذا احتفلت      لو كان فيها وفاء للبصافيتا



والسعد لو دام والنعمى لو اطردت      والسيل لو عفَّ والمقدار لو دبرنا  
وقال بعض العصريين فى القرآن الكريم :

وكل فاصلة منه منغمة      لولا الجلال لقلنا جرسها وتر  
ومن هذا النوع قول البحترى :

كالبدر إلا أنها لا تجتلى      والشمس إلا أنها لا تغرب  
وقد قال فيه الأمدى : المعنى أن عيون الناس كلهم ترى البدر وتجتليه  
وهى لا تراها العيون ولا تجتلى، وإنما قال: لا تجتلى لأنها محجوبة؛ فإذا كانت  
فى حجاب فهى فى غروب، لأن الشمس إذا غربت إنما تدخل تحت حجاب.  
فظاهر المعنى أنها كالبدر إلا أن العيون لا تراها، وكالشمس إلا أن  
العيون لا تفقدها .

وهذا القول متناقض كما ترى .

قال الشريف المرتضى : وما المخطيء غير الأمدى .

ومراد البحترى بقوله أوضح من أن يذهب على تأمل ، لأنه أراد  
بقوله — والشمس إلا أنها لا تغرب — أى إنها لا تصير حيث تتعذر  
رؤيتها وتمتنع كما تتعذر رؤية الشمس على من غربت عن أفق بلده ، والمرأة  
وإن احتجبت باختيارها؛ فإن ذلك ليس بغروب كغروب الشمس لأنها إذا  
شامت ظهرت وبرزت للعيون ؛ والشمس إذا غربت فرؤيتها غير ممكنة ،  
ولهذا لا يصح أن يقال فيمن استظل بدار أو جدار عن الشمس : إنها غربت  
عنه وإن كان غير راء لها ، لأن رؤيتها ممكنة بزوال ذلك المانع ، ولا كذلك  
القول فى احتجاب المرأة فلا تناقض فى بيت البحترى على ما ظنه الأمدى .  
ولبعضهم فى هذا المعنى :

قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا      ما فىك يا بدر لى من وجهها خلف  
تبدى لنا كلما شئنا محاسنها      وأنت تنقص أحيانا وتنكسف



فمعنى قوله : — وأنت تنقص وتكسف — جار مجرى غروب الشمس لأنه فضلها على البدر من حيث كان بروزها لمبصرها موقوفا على اختيارها ، والبدر ينقص وينكسف على وجه لا تمكن رؤيته ، كما فضلها البحترى بأنها لا تغرب حتى تصبح رؤيتها مستحيلة والشمس كذلك (١) .

٣ — أن يكون الشعراء (٢) قد لزموا طريقة واحدة من تشبيه شيء بشيء ، فبأق الشاعر من تشبيهه بغير الطريق التي أخذ فيها عامة الشعراء .

من أمثال ذلك أن أكثر الشعراء يشبهون الخوذ بالبيض كما قال سلامة ابن جندل .

كأن نعاما باض فوق رؤوسهم

وقوله : كأن نعام الدو باض عليهم (٣)

وأكثر الشعراء يلتزمون هذا التشبيه .

وجاء أبو شجاع الأزدي فقال :

لم أر إلا الخيل تعدو كأنما سنورها فوق الرؤوس الكواكب (٤)  
فتشبهها بالكواكب .

وربما كان الشعراء يأخذون في تشبيه شيء بشيء والشبه بين الشيئين من جهة ما ، فيأتي شاعر آخر في تشبيهه من جهة أخرى فيكون ذلك تصرفا أيضا ، مثال ذلك أن جل الشعراء يشبهون الدرع بالغدير الذي تصفقه الرياح والعرض من ذلك الشكل ، وذلك أن الريح تفعل بالماء في تركيبها إياه بعضا على بعض ما يشبهه في حال التشكيل .

فقال سلامة بن جندل عادلا عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللين .

(١) أمالي المرتضى — ٤ — ١٠ — ١٢

(٢) نقد الشعراء — ٦٩ (٣) الدو : الفلاة الواسعة .

(٤) السنور : جملة السلاح .



وذلك أن اللين من جودة الدرع لصغر قتيورها وروس المسامير ، وحلقها  
فألقوا لنا أرسان كل نجية وسابغة كأنها متن خرق  
فشبهها في لينها بظهر الأرنب .

وقال يذكر بريقها وهو وجه غير الوجهين الأولين :

مداخلة من نسج داود سَكَّها      كمنكب ضاح من عَمَايَة مشرق (١)  
وكقول شهاب الدين الظاهري :

رأت شيبتي قالت عجيب مع الصبا      مشبك هذا صفه لي بحياتي  
فقلت لها ماذا شيب وإنما      سناك بقلبي لاح في وجناتي  
فقد جرت العادة ألا ينكر الشاعر الشيب وإنما تترف به مكرها ، ويأخذ  
في تحسينه وتحيينه إلى المحبوب وإن كان موقنا بأنه لا يحسن ولا يجب  
إذا كان شيبى بغضاً إلى      فكيف يكون إليها حبيبا  
ولكن هكذا رسمهم في ذلك وسنتهم من القديم ، والأمثلة على هذا  
يخطئها العد ، وحسبنا قول بعض العصريين .

عجى للحسان يزهدن في الشيب م      وما الشيب غير هالة نور  
قلت ياه نعم ، لا تُراعى لشيبى      إنه حلية الحلم الوقور  
ناسب الأوجه الرقاق بياضا      وحكى ومضه رفيف الثغور  
هو كالدُر في نحور الرايب م      وكالنور في حفاف الغدير  
ولكن شهاب الدين الظاهري لم يسلك هذا الطريق السلوك ، فيقر بالشيب  
ثم ينبرى لوصفه بأجمل الأوصاف لعل ذلك يغطى على عيبه ، ولكن جرده  
أصلا وادعى أن هذا البياض نور الحبيبة قر في قلبه وتألقت في عارضيه .  
وذلك كما ترى نهج طريف مستملح وقد سلكه البهاء زهير أيضا فقال  
وليس مشيبا ماترون بعارضى      فلا تمنعوني أن أهيهم وأطربا



فما هو إلا نور ثغر لثمه      تعلق في أطراف شعري فألهبا  
وأعجبني التجنيس بيني وبينه      فلما تبدى أشنبا رحت أشيا  
وقد سلك أبو تمام مسلكا وسطا ،      فقد اعترف بالشيب ثم انتقل إلى  
ما يشبه الإنكار في قوله :

ولا يروّعك إيماض القتير به      فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب<sup>(١)</sup>  
وأحسب أنه أول من فتح الباب للشعراء في ذلك المعنى .  
وجاء ابن المعتز فقال :

قالت كبرت وشبت قلت لها      هذا غبار وقائع الدهر  
وكقول الخالدي يصف النجوم :

كأنما أنجم السماء لمن      يرمقها والظلام منطبق  
مال بخيل يظل يجمعه      من كل وجه فليس يفترق

فقد جرى الرسم على تشبيهها بالمصاييح والدرر وأزهار النرجس إلى  
غير ذلك، ولكن الخالدي افترع طريقة لا تمت بصلة إلى طرائقهم فجاء بتشبيهه  
بكر غريب .

٥ - أن يقلب التشبيه ، أو يجمع بين عدة تشبيهات في بيت واحد  
سواء أعدد الطرفين أو أحدهما .

وقد سبق الكلام على ذلك بالتفصيل

٦ - أن يتصرف فيه بنوع من الصرف وهو أمر لا تخصي شعبه ،  
كقول الحلاوي الموصلي في وصف رسالة :

كتبت فلو لا أن هذا محال      وذاك حرام قست لفظك بالسحر  
فوالله ما أدرى أزهر خيالة      بطرسك أم در يلوح على نحر

(١) القتير : الشيب .



فإن كان زهراً فهو صنع سحابة وإن كان دراً فهو من لجة البحر  
فتشبيه اللفظ الحسن بالزهر والدر مبتذل، لكننه لما قيد الزهر بأنه زهر  
خميعة ، والدر بأنه يلوح على نحر .

ثم ضم إليه سر الحسن في الزهر وهو أنه صنع سحابة ، وسر الحسن  
في الدر وهو أنه من لجة البحر ارتفع شأنه ، وخرج بذلك من الابتذال  
إلى الغرابة .

وقول ابن المعتز :

«لنعم، أحاديث عذاب لو أنها جنى النحل لم يمجج حلاوتها النحل  
والناس كلهم يشبهون حلاوة الحديث بحلاوة العسل ، وهو قد انفرد  
بهذه الزيادة التي لا شك أنها ترفع الابتذال عن التشبيه .

وقول الوزير المغربي يصف خفقان القلب :

كأن قلبي إذا عن أدكاركم ظل اللواء عليه الريح تحترق  
وفي مثله يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة :

أبكيتمو عيني دما لفراقكم فكأنما إنسانها مجروح  
وكان قلبي حين يخطر ذكركم لهب الضرام تعاورته الريح  
فالأول اقتصر على تشبيه خفقان القلب ، والثاني شبه القلب المشوق  
باللهب في حرارته ، وشبه خفقانه باضطراب اللهب حين تختلف عليه الريح  
بالهبوب فزاد عليه زيادة بينة .

وقول عمر بن أبي ربيعة :

بينما ينعتنني أبصرني مثل قيد الرمح يعدو بي الأغر<sup>(١)</sup>  
قالت الكبرى ترى من ذا الفتى قالت الوسطى لها هذا عمر  
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر !

(١) الأغر : يريد فرسه .



وفي هذه الآيات ألوان شائقة من البلاغة يحسن بيانها ، وإن كان الشاهد في البيت الأخير .

فأولا تدل هذه الآيات على حذق عمر بوضع الكلام في مواضعه كما يقتضيه الإعراب .

فإن القوافي جميعها لو أطلقت من عقاب النظم لكانت مرفوعة ، فلو أن قائلها قال : إن عمر كان يعرف قواعد النحو لم يبعد ! وذلك أمانة السليقة العربية الأصيلة .

وثانياً أنه يتضمن بلاغة نفسية عميقة تدل على معرفة هذا الشاعر الغزلي بأخلاق النساء وأهوائهن واختلافهن في التصريح والإخفاء على حسب أسنانهن وعقولهن ، ولعل ذلك كان سبباً في شغف النساء به وانعطافهن نحوه . فقد ذكر أولاً ما يفهم منه أن الكبرى لم تكن رآته من قبل ، وأنها كانت تهواه على السماع - والأذن تعشق قبل العين أحياناً - وأنها كانت تؤد رؤيته فلما أتت لها الرؤية لم تتمالك أن أظهرت من الكلف به مادعاه إلى التحقن في المسألة عنه ، سالكة في ذلك أسلوب تجاهل العارف الذي يتضمن شدة الوله وعمق الصباية ؛ لأن عقلها بحكم سننها وإحكام التجارب لها ، وقدرتها على ستر ميولها وكبت عواطفها ، يمنعها من التصريح باسم من تحب .

ثم ثنى بأن الوسطى قد سارعت إلى تعريفه بالاسم العلم ، فكانت دون الكبرى في التوقر والثبات ، وهو ما يقضى به سننها وقلة ممارستها لتجارب الزمن وشئون الغرام .

ثم ثلث بأن بين أن الصغرى كثيرة التعلق به كبيرة الانجذاب إليه ، حتى إنها شبهته بالقمر الذي يشبه به كل بالغ الغاية في الحسن والجمال ، فلم يبق ريب في أنها تحبه وتهيم به .

وتصرحها بهذا الحب الذي جمجم به أختها يلائم سننها وبوائم عقلها .



فالصغيرات تغلب عليهن الغرارة والبراءة ؛ فلا يستطعن أن يكتمن شئنا  
عما يجول بخواطرن ويحك في صدورهن .

وذكر عمر شغف الصغرى به ، ووصفها له بالصباحة والملاحاة ، يريد منه  
أن يعبر بدلالة الالتزام على أنه قتي السن ، ريق الصبا ، جديد سربال الشباب  
لأن الكواعب النواشيء النواعم الدل لا يمنحن حبهن إلا لمن كان في مثل  
سنهن ، والله أبو تمام حيث يقول :

أحلى الرجال من النساء موقعا      من كان أشبههم بهن خدودا

ومن بدائع البيت الأخير : أن التشبيه بالقمر لم يجر على الطريقة الساذجة  
المسائدة التي فصل لونها وبلى ثوبها ، فأصبحت مبتذلة مملولة ، ولكنه أخرج  
مخرج المثل مع اتساق الوزن له ، فزاده عذوبة ورشاقة وحسنا .

ومن ذلك قول ابن المستوفى الإربلي :

رأت قمر السماء فأذكرتنى      ليالى وصلها بالرفقتين  
كلانا ناظر قمرها ولكن      رأيت بعينها ورأت بعيني

وفي تفسير البيت اختلفت المذاهب ، وقد قال فيه ابن حجلة : وللناس  
عليه كلام ، ولهم على فهمه زحام ، حتى إن بعضهم وضع فيه كتابا .

وأحسن ما قيل فيه : أنه كان ناظراً إليها وهي كانت ناظرة إلى قمر السماء ،  
فاستعار عينها لنظره واستعار عينه لنظرها ، وبهذا النظر المستعار للطرفين  
ينقلب الوضع ، فيصير قمر السماء قرأ مجازياً ، ووجهها قرأ على الحقيقة .





## الفصل الخامس عشر

### انتزاع التشبيه

يستطيع البليغ أن يجد مجالا رحبا لانتزاع صور التشبيه من مظاهر الطبيعة ، ومجالى الصناعة ، ومسائل العلوم ، وعادات المجتمع ، إلى غير ذلك مما يقع تحت بصره ، أو يطرق سمعه ، أو يحوِّك في صدره ، أو يجول بخاطره ولا سيما إذا كان غزير المعرفة ، ثاقب الفكر ، واسع الخيال ، نافذ البصيرة ، بعيد النظر ، دقيق الملاحظة .

ونحن إذا تأملنا وجوه التشبيهات المختلفة من رؤى حسية ، أو معان عقلية ، أو صور خيالية ، أو نبضات وجدانية ، وجدنا أنها أشياء التقطت من هذا الخضم الزاخر ، والمضطرب الواسع الذى نعيش فيه بأجسامنا وأفكارنا ومشاعرنا .

فهذا الكون بسمائه وما أظلت ، وأرضه وما أقلت ، كتاب ضخم مفتوح للنظر المتوسم ، والفكر المروى ، والعقل المتأمل القادر على الانتفاع بهذه الثروة الضخمة .

ومن هنا كانت كثرة الأسفار ، ومعاناة الأحداث ، وممارسة التجارب ، والاختلاط بالناس ، والانغماس فى غمار المجتمع ، والتزود من الثقافات المتنوعة ، مما يعين على استنباط التشبيه الصائب العميق الدقيق . وكلما امتدت الفتوحات العلمية ، وتعددت روافد الفكر ، وانبسطت رقعة الحضارة ، كثرت المنادح أمام البلغاء لصوغ صور البيان الأنيق ، والتفنن فى تنويعها وتلوينها .



## مصادر الانتزاع .

ومصادر الانتزاع لا يمكن حصرها ؛ لأن كل ما يحيط بالأديب اللامح الذكاء ، المستوعب النظر ، كنوز من المعاني السرية لا تنفذ على إنفاق .

بل كثيراً ما يستفيد الفطن من كلام الحشوة والعامّة والدهماء ، ولا يرى في ذلك غصاضة ولا معابة عملاً بالآثر الشريف ، الحكمة ضالة المؤمن يَشْدُها حيث يجدها . .

يحدث ابن الأثير<sup>(١)</sup> : أن بعض العبيد الأحايش الذين لا يستطيعون تقويم صنع الألفاظ فضلاً عما وراهم ذلك وذاك ، رأى صبياً في يده طاقة ريحان ، فقال : هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان ! فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة العجب ؛ وذكرت شعر أبي نواس الذي توأصفه الناس في هذا المعنى ، وهو قوله :

وردة جاء بها شادن في كفه اليمنى فحياناً  
سبحت ربي حين أبصرتها ريحانة تحمل ريحاناً  
ويذكر أنه سأل بعض أغتام<sup>(٢)</sup> الأعجم عن حاله - وكانت النكبات قد توالى عليه - فكان جوابه : لم يبق عندي ارتياح لوقوع نائبة من النوائب .

وهو معنى قول الشاعر :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر  
وقول المتنبي :

فصرت إذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال

(١) الأغتم : الذي لا يفصح . (٢) المثل السائر - ٢٢ - ٢٣



وأنه سمع امرأة توفى ولدها البكر تقول : كيف لا أحزن لذهابه ،  
وهو أول درهم وقع في الكيس !

ولا يستحي ابن الأثير أن يصرح : بأنه أخذ هذا المعنى وأودعه كتاب  
تعزية إلى بعض الإخوان — وقد توفى ولده الأول — فقال : وهو أول  
درهم ادخرته في كيس الادخار ، وأعددت له لحداث الليل والنهار .  
ويذكرون : أن أبا تمام حين قال صدر بيته المشهور :

وأحسن من نور تفتقه الصبا

وقف يردده وإذا سائل يسأل على الباب ويقول : من يياض عطاياكم  
في سواد مطالبنا .

فقال أبو تمام — متما البيت — :

بياض العطايا في سواد المطالب

وفي أخبار أبي نواس : أنه شاهد نصرانيا من العامة يرتكب بعض  
الفواحش في خربة من الخربات ، فأخذ أبو نواس يلومه ويعنفه ، فقال له  
الرجل : يا أبا نواس ، لا تلمني فإن لومك يجب لي أن أعود إلى مثلها .  
فأخذ أبو نواس هذا المعنى وقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغرام وداوني بالتي كانت هي إدام

وفي أخبار المعتمد بن عباد أنه في بعض خروجه للتنزه رأى ثمرة تين قد  
أدركت ، فسدد إليها عصا كانت في يده فأصابها وثبتت في أعلاها ، فأطربه  
ما رأى من حسناتها وثباتها ، فقال لابن حاج — وكان صبغا — أجز :

كأنها فوق العصا

فأجابه مسرعا :

هامة زنجى عصا

فزاد طربه وسروره وأمر له بجائزة سنية (١) .

(١) بدائمه البدائمه — ٦٦ — ٦٧



هذا قليل من كثير مما يسوقونه دليلا على أن المعارف قد تستفاد من غير أهلها ، وتستخرج من غير معدنها .

وقد كان ابن الخشاب البغدادي يتفقده طلبة العلم ، فيجدونه واقفا على حلقات القصاص والمشعبدين ، وقد ليم على ذلك — وهو من أئمة العلم — فقال : لو علمتم ما أعلم لما لمت ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، ففي ضمن هذيانهم تجري معان غريبة لطيفة ، لو أردت أنا أو غيري أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك ، وقديما قالوا : رب رمية من غير رام .

وصفوة القول : أن علماء البيان نظروا إلى التشبيه من جهة الصورة والشكل واللون والهيئة ، ومن جهة ما يدخل تحت الحواس ، ومن جهة الغريزة والطباع إلى غير ذلك ، وكان أساسهم في كل هذا هو الاسترشاد بما يعمل به العقل من انتزاع الصورة الجديدة من شيء واحد ، أو من عدة أشياء يجمع بعضها إلى بعض <sup>(١)</sup> .

وقد يكون الانتزاع من قصة دينية أو اجتماعية ، كقول المتنبي يرثي محمد بن إسحق التنوخي :

كفل الثناء له برد حياته      لما انطوى فكأنه منشور  
وكأنما عيسى بن مريم ذكره      وكأن عاذر شخصه المقبور  
يشير إلى قصة إحياء المسيح — عليه السلام — لعاذر بعد موته  
ياذن الله .

وقول ابن الحجاج الكاتب :

قد أذنب القوم وألزمته      كأنهم أولاد يعقوب  
إذ جعلوا يوسف في جبة      وأوقعوا الذنب على الذيب



وذئب يوسف يضرب مثلاً لمن يرمى بذنب جناه غيره وهو برىء  
الساحة منه .

ومثله قول أبي الشيص :

وقائلة وقد بَصُرْتُ بدمع	على الخدين منهمر سكوب
أتكذب في البكاء وأنتِ خلو	قديماً ما جسَّرت على الذنوب
جفونك والدموع تجول فيها	وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف حين جاءوا	على لبَّاته بدم كذوب
فقلت لها فداك أبي وأمي	رَجَمْتَ لسوء ظنك بالغيوب

وقول بشار في أبي مخَلَد :

أبا مَخْلَد ما زلت سباح غمرة	صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطي
كسَنُور عبد الله بيع بدرهم	صغيراً فلما شبَّ بيع بقيراط

وسنور عبد الله يضرب مثلاً لمن يكون مرجوًّا في صغره ، فإذا كبر  
تراجع ولم يفلح .

وقبله قال الفرزدق في هذا المعنى :

رأيت الناس يزدادون يوماً	فيوماً في الجميل وأنت تنقُصُ
كمثل الهر في صفر يُغالي	به حتى إذا ما شبَّ ينقُصُ

والعامة تقول عندنا : كالعبيد كلما كبروا صغروا .

على أن ابن خلدكان يقول : قد كشفت عن سنور عبد الله بالمظان ، وسألت  
أهل المعرفة بهذا الشأن فما عرف الخبر عن ذلك ولا عثرت له على أثر .  
ويقول : ثم ظفرت بقول الفرزدق السابق ، ومن هنا أخذ بشار قوله



وليس المراد هراً بعينه بل هراً يكون له قيمة في صغره وينقص منها في كبره<sup>(١)</sup>.

ويخيل إلى أن بشاراً لم ينسب السنور إلى من اسمه «عبدالله» اعتباراً ، بل لا بد أن يكون هناك هراً له حكاية يعلمها بشار ولم يتوصل ابن خلكان إلى معرفتها ، وإلا فغامض نسبته إلى عبد الله بالذات ، في حين أنه كان قادراً أن يأتي به خلواً من النسبة كما فعل الفرزدق ولا يقع في هذا الخشو المعيب !  
وقول شاعر في قواد :

من ذم إدريس في قيادته      فإني شاكر لإدريس  
من بمستصعب فجاء به      أطوع من آدم لإبليس  
وكان في سرعة المجيء به      آصف في حمل عرش بلقيس  
إشارة إلى قصة سليمان - عليه السلام - مع بلقيس ملكة سبأ ، وإحضار وزيره آصف لعرشها منكرأ كما جاء في القصص الديني .

وقول شوقي في الدستور :

يوم الخميس وراء فرك الهدى      صبح وللحق المبين نهار  
أقبلت بالدستور أبلغ زاهرا      يفتن في قسماته النظر  
يحمي لفائفه ويحرس مهده      شيخ يذود وفتية أنصار  
فكأنه عيسى الهدى في مهده      وكأن سعداً يوسف النجار

إشارة إلى قصة مريم - عليها السلام - وميلاد عيسى من غير أب .

ويوسف النجار كان خطيب مريم قبل حملها بالمسيح .

وقوله من أندلسية :

بقنا فلم نخل من روح يراوحنا      من بر مصر وريحان يغاديننا  
كأن موسى على اسم الله تكفلنا      وباسمه ذهبت في اليم تلقينا



إشارة إلى قصة موسى - عليه السلام - وهو طفل حين رُمته أمه  
في اليم خوفاً عليه من بطش فرعون .  
وقول محمود غنيم في وصف الراديو :

كأنما كل أذن أذن سارية وكل ناء ينادى نائياً عمر  
إشارة إلى قصة عمر وسارية بن زُئيم وندائه له - وهو على منبر المدينة -  
يا سارية الجبل .

وكان سارية بنهاوند ببلاد الفرس يغزو ، وقد اجتمع العدو بالجل .  
أو من مسائل دينية كقول بشار :

فؤادى فيك مجنون ولو أسطيع كبلته  
وأنت الحجر الأسود لو يخـلو لقبلته  
وقول كشاجم :

فدبت زائرة في العيد واصله  
فلم يزل خدها ركناً ألوذه  
وقول سراقه الأندلسي :

وصاحب كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين  
لم يحص إلا الجميل منى كأنه كاتب اليمين  
وهو عكس ما قاله المنازي :

وصاحب خلته خليلاً وما جرى غدره يبالى  
لم يحص إلا القبيح منى كأنه كاتب الشمال  
إشارة إلى ملكي الحسنات والسيئات : « رقيب » و« عتيد » ،  
وقول التنوخي في النيلوفر :

فكأنه في الماء صاحب مُذهب أغراه وسواس بأن لم يَظهر<sup>(١)</sup>

(١) المذهب بضم الميم وفتح الهاء وكسرهما : شيطان الوضوء .



وقول أبي تمام في مالك بن طوق — وقد حجه — :  
مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة      دوني وقد طالما استفتحت مقفلها  
كأنها جنة الفردوس معرضة      وليس لي عمل زاك فأدخلها  
وقول السري الرفاء :

عجب الناس كيف ضعت ومثلي      بفناء الأمير ليس يضاع  
قلت إذ أعوز الشفيع وأعيال الإذن      م فيما أروم والإستماع  
هذه جنة الخلود ومالي      من حميم ولا شفيع يطاع  
أو من حقائق التاريخ والسير      كالذي أنشده أبو أحمد العسكري :  
ليس له ما خلا اسمه نسب      كأنه آدم أبو البشر  
وقول الضرير القزويني :

وصاحب لي بطنه كالهوية      كان في أمعائه معاويه

وكان معاوية — ض — رغب البطن منهوما بالطعام .

وقول ابن المعتز :

فكان الهوى امرؤ علوى      ظن أني ولّيت قتل الحسين  
وكانني لديه نجل زياد      فهو يختار أوجع القتلين  
إشارة إلى قتل الحسين — عليه السلام — في عهد تولية عبيد الله بن  
زياد على العراق .

ومثله قول شوقي :

ظمئت ومثلي برى أحق      كأنني حسين ودهري يزيد  
وقول أبي مسهر الكاتب في بعض العراقيين :

حار في الكتابة يدعيها      كدعوى آل حرب في زياد



فدع عنك الكتابة لست منها      ولو أغرقت ثوبك في المداد  
إشارة إلى استلحاق معاوية زياداً بأبيه أبي سفيان ، وإثبات نسبه  
في بني أمية .

وقول ابن الرومي في صياد :

تستأنس الطير إلى قوسه      كأنها محراب داود  
وقد قيل : إن داود — عليه السلام — لحلاوة نغمته كانت الوحش  
والطير تعكف عليه إذا قام في محرابه يقرأ الزبور .

وقول العرجي في وصف بنية :

كأنها غير أن الإنس ترفعها      عما بنت سليمان الشياطين  
وقول البحري في بركة المتوكل :

كأن جن سليمان الذين ولوا      إبداعها فادقوا في معانيها  
وقول صبري في الأهرام :

كأنها والعوادي في جوانبها      صرعى بناء شياطين لشیطان  
وهو أبلغ من سابقه لأنه زاد عليهم بأنها تصرع الحوادث بقوة بنائها  
وإحكامها .

وقول شاعر كوفي :

بكت دار بشر شجوها أن تبدلت      هلال بن قعقاع يبشر بن غالب  
وما هي إلا كالعروس تنقلت      على رغمها من هاشم في محارب  
والتاريخ يحدثنا أن العرب كانت ترمي بالخنسة بعض القبائل مثل محارب  
وسلول وجرم وباهلة وعاملة .

وقول شاعر :

وثركتي نقي الخد ألى      بقدماس كالغصن الرطيب



له شعر حكى مجنون ليلي يخط إذا مشى فوق الكشيب  
وقد روى عن المجنون أنه في توحده بالقفار كان يخط بيده على الرمل.  
وقول آخر يهجو:

مطبخ داود في نظافته أشبه شيء بعرش بلقيس  
ثياب طباخه إذا اتسخت أنقى بياضا من القراطيس  
يرميه بالبخل لأن نظافة المطبخ والطباخ دليل على عدم الطبخ وانقطاع  
الضيوف .

أو من الاعتقادات الشائعة كقول بعضهم:  
لقاؤك للبكر يوم سوء ووجهك لأربعاء لا تدور  
والمراد بالأربعاء: أربعاء آخر الشهر وقد ورد أنها نحس .  
وقول آخر :

كان كانوننا سماء والجر في وسطه نجوم  
ونحن جن بحافتيه والشرر الطائر الرجوم  
إشارة إلى الاعتقاد بأن الشهب المتطايرة ترجم بها الشياطين .

وقول ابن شرف في رأس أسود على رمح :  
كان هامته والرمح يحملها غراب بين على بان النقا نعقا  
والناس يتشاءمون بالغراب وبخاصة الأسود ويعدونه نذير الفراق .  
أو من عادات الناس والحيوان كقول شاعر في وهب بن وهب  
البخري :

لكل أخى فضل نصيب من العلا ورأس العلا طرا عقيد الندى وهب<sup>(١)</sup>  
وما ضر وهبا عيب من جحد الندى كما لا يضر البدر ينبحه الكلب



ومثله قوله المعري :

تعاطوا مكانى وقد فتهم فما أدركوا غير لمح البصر  
وقد نبحونى فما هجتهم كما ينبح الكلب ضوء القمر  
يروون فى معناه : أن الكلب إذا أصابه ألم البرد ورأى ضوء القمر ،  
توهم أنه يدفىء كما تدفىء الشمس ، فإذا رقد فيه لم يجد دفيئا ، فينبح كأنه  
يضر من دفيء الشمس ، كما ينبح السحاب إذا ضجر من كثرة مطره .  
وقال آخرون : إنه كان لامرأة تدعى حومل كلبة كانت تجوعها ، وأن  
كلبتها نظرت إلى القمر قد طلع فنبحت فتوهمه رغيها أو شيئا يؤكل .  
قال الخفاجى : وهذا شيء لا يصح له معنى ، والقول الأول أولى .  
والتشبيه مثل تعاوره الناس قديما وحديثا ، وهو كعنز أشعب التى ظنت  
قوس قزح علفا أخضر ، فرمت نفسها عليه فماتت (١) .

وقول أحمد النسفى يهجو رجلا :

ينام إذا ما استيقظ الناس للعلا فإن جُرَّ ليل فهو يقظان حارس  
كذلك كلب الناس ينعم يومه ويسهر طول الليل والليل دامس  
ومن عادة الكلب أنه ينام نهاره ويسهر ليله .

وقول ابن لنكك فى أبى رياش :

قل للوضيع أبى رياش لا تبَلَّ ته كل تيهك بالولاية والعمل  
ما ازددت حين وليت إلا خسة كالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل  
وقول شوقي فى الشمس :

فيالك هرة أكلت بنينا وما ولدوا وتنتظر الجنينا



ويقولون : إن من عادة القطّة أن تأكل أولادها إذا اشتد شغفها بهم  
كما يقول الشاعر :

أما ترى القطّة من ودادها      تأكل ما عز من أولادها  
وقول ابن المعتز :

مر بنا تُشرق الطريق به      في قد غصن وحسن تمثال  
نخلته      والعيون      تأخذه      من كل فج هلال شوال  
وقد جرت العادة أن تستجلى العيون هلال شوال ليتحققوا من يوم  
العيد الأصفر .

وقول الأرجاني :

تقصد أهل الفضل دون الورى      مصائب الدنيا وآفاتها  
كالطير لا يحبس من بينها      إلا التي تطرب أصواتها  
وقول ابن رشيّق :

أحب أخى وإن أعرضت عنه      وقلّ على مسامعه كلامى  
ولى فى وجهه تقطيب راض      كما قطبت فى وجه المدام  
أو من النواميس الطبيعية كقول العبدى :

ثقلت زجاجات أتنّا فرّغا      حتى إذا ملئت بصرف الراح  
خفت فكادت أن تطير بماحوت      وكذا الجسوم تخف بالآرواح  
ويقولون : إن جسم الميت أثقل منه وهو حي :

وقول ملك بلنسية مروان بن عبد العزيز - وقد نظر إلى لحيته وقد  
شابت - :

ولما رأيت الشيب أيقنت أنه      نزيل لجسمى بانهدام بنائه  
إذا ابيض مخضر النبات فإنه      دليل على استحصاده وفنائه



وقول الخطيب الإشيلي :

وكل إلى طبعه عائد  
كذا الماء من بعد إسخانه  
وقول قوام الدين الواسطي :

باضطراب الزمان ترتفع الأنزال م فيه حتى يعم البلاء  
وكذا الماء ساكناً فإذا حرك م ثارت من قعره الأقذاء  
وقول المعري :

والخل كالماء يبدى لى ضمائره  
وقول البغدادى النقاش :

إذا وجد الشيخ فى نفسه  
أست ترى أن ضوء السرا  
وقول ابن طباطبا العلوى :

بأى الذى نفسى عليه حبيس  
لا تنكروا أبداً مقاربتى له  
ومثله قول صفي الدين الحلى :

إنما هذه القلوب حديد  
وقول طاهر الجزرى :

محاسنه هوى كل حسن  
وقول أبى الفتح البستى :

لئن كسفونا بلا علة  
فقد يكسف المرء من دونه  
وفازت قداحهم بالظفر  
كما يكسف الشمس جرم القمر



وقال شاعر :

أرى الأموال في اللؤماء تشوى      وتجتذب الكرام من الرجال  
كذاك الدر في ملح أجاج      وليس يكون في عذب زلال

وقول آخر :

إن الجهول تضرني أخلاقه      ضرر السعال لمن به استسقاء

وقول شوقي :

لا تحفلي بجناها أو جنايتها      الموت بالزهر مثل الموت بالفحم  
أو من مصطلحات العلوم والفنون      وأسماء الأشياء وما إليها كقول  
أبي فراس الحمداني :

تناهض الناس للمعالي      لما رأوا نحوها نهوضي

نكلفوا المكرمات كدأ      تكلف الشعر للعروضي

وقول البردخت<sup>(١)</sup> يهجو حفص بن أبي بردة -- لعبه شعر المرقش  
الأكبر -- :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل      وأنف كشيء العود عما تبغ<sup>(٢)</sup>  
فعينك إقواء وأنفك مكفأ      ووجهك إبطاء فأنت المرقع  
تبغ لنا من كلام مرقش      وخلقك مبني على اللحن أجمع  
وقول المتنبي :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة      أنت البديع الفرد من أبياتها  
وقول النفيس القطارسي :

وذي هيئة يزهو بوجه مهندس      أموت به في كل يوم وأبعث

(١) البردخت : من بني ضبة ، ومعناه بالفارسية : الفارغ . الشعر والشعراء - ٤٤٢ .

(٢) التبغ بفتح التاء وكسرهما : وعاء قضيب البعير أو القضيب نفسه ، والعود . الجن

السن .



محيط بأشكال الملاحة وجهه      كان به إقليدسا يتحدث  
وقول أبي على المهندس :

كان فؤادى مركز وهم له      محيط وأهوائى لديه خطوط  
وقول ابن نمات فى ثقيل :

حكى نهرين ما فى الأرض      من يحكيهما أبدا  
حكى فى خلقه ، ثورا ،      وفى أخلاقه ، برّدا ،  
وقد أخذهما من قول بعضهم :

صاهى ابن بشران مدينة جلق      فكلاهما يوم الفخار فريد  
ألفاظه ، برّدا ، وصورة خلقه      ، ثور ، ونقص العقل منه يزيد  
وقول أبى تمام فى وصف الحر :

خرقاء يلعب بالعقول حباها      كتلاعب الأفعال بالأسماء  
وقوله :

مودّة ذهب أثمارها شبه      وهمّة جوهر معروفها عرض (١)  
وقول ابن الخطيب :

ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى      ومن نقطة موهومة ينشأ الخط  
وقول ابن شرف فى مدح أستاذه على بن أبى الرجال :

اسم حكاة المسمى فى الفعال فقد      حاز العليّين من قول ومن عمل  
الماجد السيد الحر الكريم له      كالنعت والعطف والتوكيد والبدل  
وقول أبى نصر المنازى :

ولى غلام طال فى دقة      كخط إقليدس لا عرض له  
وقد تناهى عقله خفة      فصار كالنقطة لا جزء له



وقول السلاوى :

وسطور خيلك إنما ألفتها  
وقول أبى بكر الإشبلى :

بدا الهلال فلها  
كأن جسمى فعل  
وقول أبى إسحاق الكلبى :

من آلة الدست لم يعط الوزير سوى  
إن الوزير ولا أزر يشد به  
وقول آخر :

فلا أكون بينكم عطاردا  
وقول ابن جابر يمدح الرسول :

أضفت إلى رحماك نفسى فأصبحت  
وقول البستى :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا  
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه  
وقوله :

أدرجت فى أثناء نسيانكم  
وقول الشَّواء :

وكنا خمس عشرة فى التَّام  
وقد أصبحت تنويننا وأضحى  
وقول القاضى الفاضل :

لى عندكم دين ولكن هل له  
من طالب وفؤادى المرهون

(١) عطارد : كوكب سيار وهو أقرب الكواكب إلى الشمس .



فكأننى ألف ولام فى الهوى      وكأن موعداً وصلك التتوين  
وقول السراج الوراق :

كم أنادى بك مفرداً علماً أر      فعه عالماً بشرط المنادى  
وجوابى ملغى يحاكى للولا      خبراً لو أتى به ما أفادا  
وقول الأسمر :

ولرب معنى مستكنّ م      كالضمير إذا استتر  
صمدوا له حتى تجلى م      عن صباح منشتر

وقوله :

ولا تقف فى مهب الريح ملتوياً      كالواو والياء بل قف وقفة ألف

وقد عاب ابن سنان الخفاجى أمثال هذه الاستعمالات ، فقال : ومن  
وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنشور من  
الرسائل والخطب ، ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانهم ،  
والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض فى علم  
وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم ، وكلام أصحاب  
تلك الصناعة ؛ وبهذا شرف كلام أبى عثمان الجاحظ ؛ وذلك أنه إذا كتب  
لم يعدل عن ألفاظ الكتّاب ، وإذا صنف فى الكلام لم يخرج عن عبارات  
المتكلمين ، فكأنه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره .  
وقال عن شيخه المعرى : إنه كثيراً ما يسلك هذه الطريقة فى كلامه  
وهى لا ثقة به ؛ لأنه لم تكن له يد فى صناعة الكتابة ، ولا طريقة محمودة ،  
ولمّا رسائله معدودة فى كتب اللغة وديساتير الأدب ، فاستعمال هذا وما يجرى  
بجراه فيها لا تق .

ومن هذا النوع ما يحكى من أشعار أصحاب المهن واستعمالهم لألفاظ

( م ١٤ - ج ٢ - فن التشبيه )



صناعاتهم ومعانيها فيها يتظمونه أو ينثرونه ، وربما كان ذلك أو بعضه شيئاً يصنع وينسب إليهم <sup>(١)</sup> .

وقد رد عليه العلوى : بأن هذا فاسد لا وجه له ؛ فإن الشاعر والكاتب يخوضان في كل شيء ولا يقتصر خوضهما على فن دون فن ولا اصطلاح دون اصطلاح ؛ ولهذا فإنك تراهم إذا استعملوا شيئاً من الكلمات المصطلح عليها في العلوم والصناعات في أشعارهم ورقائقهم وجدت له أحسن موقع ، وازداد جمالها وحسن رونقها <sup>(٢)</sup> .

ولا خلاف أننا لا نستطيع أن نضيق على الأديب ما وسع الله عليه ، ولا يمكن أن نجسسه في دائرة محدودة لا يخرج منها ، فالأدب لا موضوع له وهو يندس في كل شيء ويستغل المجتمع على اختلاف أحواله ، ولا بد أن يستفيد الأدب من ألوان المعارف والعلوم وشئون الفكر حتى يكتسب العمق والخصب والسعة والتلون والشمول ، ويجارى الحضارة في تقدمها واستبحارها ، وإلا انزوى في منقطع العمران هزيباً كسيحاً متخلفاً عن ركب الإنسانية المغدِّ في السير .

ومع ذلك فيجب ألا تكثر هذه الأشياء ، وألا تكون مقصود لذاتها . ويزيد في حسنها وروبقها أن تمثل واقعة حال ، أو تصاغ في أبواب التظرف والمفاكهات والهزل والخلاعة ، فمن الأول قول أبي الفتح البستي :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانياً      وهذا لإنصاف الوزير خلاف  
حذفت وغيرى مثبت في مكانه      كأننى نون الجمع حين تضاف  
وقول البهاء زهير :

يقولون لى أنت الذى سار ذكره      فمن صادر يثنى عليه ووارد



هبوني كما قد تزعمون أنا الذي      فأين صلاتي منكم وعوائدي  
وقول بجير الدين بن تميم :

لو كنت حين علوت ظهر مطية      لم تعلقها للطي عيون  
وتوسطت بحر السراب حسبتني      من فوقها ألفاً وتحتي نون  
ومن الثاني قول محاسن الشواء :

لنا صديق له خلال      تُعرب عن أصله الأخس  
أضحت له مثل ، حيث ، كف      وددت لو أنها كأمس  
يريد أن يده مضمومة عن الإعطاء ، فكأنها ، حيث ، المبنية على الضم ،  
وهو لذلك يتمنى أن تكسر كما بنيت ، أمس ، على الكسر .  
وقول أبي محمد الواسطي :

لنا صديق به انقباض      ونحن بالبسط نستلذ  
لا يعرف الفتح في يديه      إلا إذا ما أتاه أخذ  
فكفه ، أين ، حين يعطى      شيئاً وبعد العطاء ، منذ ،  
أى لا تفتح كفه مثل ، أين ، المبنية على الفتح إلا في حال أخذه من  
الناس ، ثم هي بعد ذلك مضمومة ، كمنذ ، المبنية على الضم .  
فمثل هذه الأمثال التي ذكرت لم تنظم اعتباراً بل اقتضاها المقام ، زيادة  
عما فيها من بيان الوصف وتقريره .

أو نما يقع تحت الحواس وهو أكثر الأنواع المنتزعة ،  
فمن المبصرات قول أبي الحسن العقيلي :

وللأقاحي قصور كلها ذهب      من حولها شرفات كلها درر  
وقول التتوخي :

أحسن بدجلة والدجي متصوب      والبدر في أفق السماء مغرب<sup>(١)</sup>

(١) متصوب : مائل إلى الذهاب .



فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مُذهب  
وقول ابن المعتز :

له طرّة كجناح الغداف تلوح على غرة مقمرة<sup>(١)</sup>  
وفي عطفة الصدغ خال له كما استلب الصولجان الكره

وقول شاعر :

غطى على عينيه شعرية تُسعر في القلب لهيب الضرام  
كأنه البدر بدا نصفه ونصفه الآخر تحت الغمام

ومثله قول الآخر :

لا تحسبوا شعرية أصبحت من رمد في وجهها مرسله  
وإنما وجنتها كعبة أستارها من فوقها مسبله

والشعرية بفتح الشين نسبة إلى الشعر : غشاء أسود رقيق يكون على وجه  
النساء والارمد ، وأصله أن ينسج من الشعر ثم أطلق على كل ما شابهه .

وقول السَّمِيسِر الأندلسي :

بعوض جعلن دمي قهوة وغنّيني بضروب الأغان  
كأن عروقي أوتارها وجسمي رباب وهن القيان

وقول أبي فراس :

وكأنما البرك الملاء تحفها ألوان ذاك الروض والزهر  
بسط من الديباج بيض فروزت أطرافها بفراوز خضر<sup>(٢)</sup>

وفي هذين البيتين ما يعرب عن استخدام نفائس الفرس<sup>(٣)</sup> .

(١) الغداف : غراب كبير ، أو غراب القيط .

(٢) الفراوز : التطاريف . (٣) يتيمة الدهر - ١ - ٢٤



وللطغرائي :

وكانما الشمس المنيرة إذ بدت      والبدر يحنح للغييب وما غرب  
متحاربان لذا مجن صاغه      من فضة ولذا مجن من ذهب  
ولشهاب الدين الوادي آشي :

ما لاح في درع يصول بسيفه      والوجه منه يضيء تحت المغفر  
إلا حسبت البحر مدَّ بجدول      والشمس تحت سحائب من عنبر  
قال الصفدي جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد (١) :

ولما اقتحمت الوغي دارعا      وقنعت وجهك بالمغفر  
حسبنا حياك شمس الضحا      عليها سحاب من العنبر  
وبين قول أبي بكر الرصافي :

لو كنت شاهده وقد غشى الوري      يختال في درع الحديد المسبل  
لرأيت منه والقضيب بكفه      بحر يريق دم الكماة بجدول  
وقول بعضهم في راقص :

عجبت من رجليه تتبعانه      يعاوهما طورا ويعاوانه  
كأن أفعين تلسعانه

وقول الحسن بن جبير الأندلسي :

لي صديق خسرت فيه ودادي      حين صارت سلامتي منه ربحا  
حسن القول مئة الفعل كالجزار      م سمي وأتبع القول ذبحا  
ومن لطائف ابن سكرة :

نزلتني بالله زولي      وانزلي غير لهاقي  
واتركي حلقى لحقي      فهو دهليز حياتي  
وهو ينظر إلى قولهم : القبر دهليز الآخرة .



وقول القيسراني :

والله لو أنصف العشاق أنفسهم  
ما أنت حين تغنى في مجالسهم  
وقول ابن طباطبا العلوي :

وكان الهلال لما تبدى  
أو كقوس قد انحنت بانجذاب  
وقول المتنبي في وصف الأسد :

يطأ الثرى مترقفاً من تيهه  
وقول كُشاجم :

أرى وصالك لا يصفو لآمله  
كالقوس أقرب سهميها إذا عطفقت  
ومن المملوسات قول البحترى :

وكالسيف أن لا ينته لان منته  
ومن المشعومات قول حسان :

كان ريحهم في الناس إذ خرجوا  
وقول آخر :

يزداد لوما على المديح كما  
ومن المسموعات قول ابن حلزة :

وحسبت وقع سيوفنا برءوسهم  
خص الأطراف لكونه من الأدم ، فصوت القطر عليه أشد منه على  
غيره من سائر البيوت .

(١) المهرق بصيغة اسم المفعول : الصحيفة . (٢) المذرج : المضموم .



وقول سلمة بن عياش :

كأن بني ذالان إذ جاء جمعهم فراريج يلقى بينهم سويق<sup>(١)</sup>  
وصفهم بهذا لدقة أصواتهم وعجلة كلامهم .

وقول ابن الرومي في «وحيد» ، المغنية :

تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهي تجيد  
مد في شأوصوتها نفس كما ف كأنفاس عاشقها مسديد  
وقول آخر :

أشتهى في الغناء بحة حلق ناعم الصوت متعب مكدود  
كأنين المحب أضعفه الشوق ف فضاهى به أنين العود

---

(١) السويق : ما يصنع من الخنطة والشعر .



## الفصل السادس عشر

### شعراء التشبيه

قد يسبق إلى الظن أن التشبيه يقتضى للشعراء جميعاً بنسبة واحدة وأن حظهم منه متساو لا يقع فيه التفاوت والتباين ، وهذا خلاف الواقع قديماً وحديثاً ، وضد الطبيعة الإنسانية التى تأبى الاتحاد فى المزايا والهبات ، وتجنح دائماً إلى التخصيص والتمييز بين الأفراد .

وعلى هذا الأصل نجد جماعة من الشعراء رزقوا الإجابة فى التشبيه على الإطلاق ، فوق ما عرفوا به من السبق فى تشبيه أشياء خاصة .

ونجد جماعة أخرى انفردوا أو قل تخصصوا فى تشبيه أشياء بعينها طارت لهم فيها شهرة حتى عرفوا بها وعرفت بهم .

فمن القسم الأول امرؤ القيس من الجاهليين ، وذو الرمة من الإسلاميين وقد شهد لها بذلك حماد الراوية بقوله : امرؤ القيس أحسن الجاهلية تشبيهاً ، وذو الرمة أحسن الإسلام تشبيهاً<sup>(١)</sup> .

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه<sup>(٢)</sup> .

ويقول العسكرى : أجمعت العرب على أن ذا الرمة أحسنهم تشبيهاً<sup>(٣)</sup> .  
ويقول الأبيشيه : وليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن النساء

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام - ٢٦ - ٢٧ - خزنة الأدب للبغدادى - ١ - ١٠٦

(٢) العمدة - ١ - ١٨٥ (٣) ديوان المعاني - ٢ - ١٤٧



من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ، ورقة اللفظ ما لذى الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لامن أهل الوبر <sup>(١)</sup> .

وفي العصر العباسي الأول عرف بجودة التشبيه أبو نواس ، وفيه يقول المبرد : من أكثر المحدثين تشبيها لاتساعه في القول ، وكثرة تقننه ، واتساع مذاهبه : الحسن بن هانيء <sup>(٢)</sup> .

وفي العصر العباسي الثاني نبت أكبر شاعر انتهى إليه هذا الفن وهو ابن المعتز ، وقد ظاهره على ذلك نشأته الملوكية وما أحاط به من مظاهر الترف وبلهنية العيش ، وألوان النعيم في قصور الخلافة الناعمة الحافلة بروائع الحضارة المادية .

وكان ابن المعتز يعرف ما وهبه الله من عبقرية التشبيه ، فأثر عنه قوله : إذا قلت : « كآن » ، ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاي <sup>(٣)</sup> .

وقد أفاض النقاد في تفرد ابن المعتز بهذه الهبة بما لا يدع مجالاً لمستزيد فيقول الباقلاني : وأنت تجد في شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذي يشبه السحر ، وقد تتبع في هذا ما لم يقتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لسواه من الشعراء <sup>(٤)</sup> .

ويقول الجصري : وليس بعد ذي الرمة أكثر افتنانا ، وأكبر تصرفا وإحسانا في التشبيه منه <sup>(٥)</sup> .

ويقول الثعالبي : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل في الحسن والجودة . ويقال : إذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والإحسان .

(١) المستطرف - ٢ - ٢٢

(٢) الكامل للمبرد « شرح المرسني » ٢٢ - ٧ - ٤٠

(٣) معاهد التنصيص - ١ - ١٤٦ (٤) إعجاز القرآن - ٢٠٧

(٥) زهر الآداب - ١ - ٢١٩



ولما كان غدى النعمة وريب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة ، تها  
له من حسن التشبيه ما لم يتهأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا  
ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات ، وبهذا المعنى اعتذر ابن  
الرومي في قصوره عن شأو ابن المعتز في الأوصاف والتشبيهات <sup>(١)</sup> .

ويقول ابن رشيق : إن الطريقة التي غلبت عليه وانقاد إليها طبعه ،  
وسهل عليه تناولها : التشبيه <sup>(٢)</sup> .

ويقول العباسي : هو أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات <sup>(٣)</sup> .  
على أنه يجب أن يعرف أن ابن المعتز برع في نوع خاص من التشبيهات  
هو التشبيه المحسوس الذي ليس بتعميل ولا يحتاج إلى تأويل .  
وفي ذلك يذكر عبدالقاهر : نقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ،  
لأنك تعنى تشبيهه المبصرات بعضها ببعض ، وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من  
طريق التأويل ، كقوله :

كان عيون النرجس الغض حولنا مداهن در حشوهن عقيق  
وإحسانه في هذا النوع أكثر ، وهو به أشهر ، فلا يقال : إن ابن المعتز  
حسن الأمثال : تريد به الآيات مثل :

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتلة  
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وإنما يقال : صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال في شعره <sup>(٤)</sup> .  
ومثل ابن المعتز في قلة أمثاله مروان بن أبي حفصة ، حتى قال بعض  
الناقد : ليس في شعره إلا بيت واحد يتمثل به .

(١) ثمار القلوب — ١٨٣ (٢) العمدة — ١ — ١٩٤  
(٣) معاهد التنصيص — ١ — ١٤٦ (٤) أسرار البلاغة — ٧٠ — ٧٢



ولا شك في قلة الأمثال في شعر مروان ، ولكن ليس إلى هذا الحد  
— كما يقول الشريف المرتضى — (١) .  
وشهرة امرئ القيس وذو الرمة وابن المعتز بالتشبيه جعلت طائفة من  
المتعقبين يقولون : الشعراء ثلاثة : جاهلي وإسلامي ومولد ، فالجاهلي :  
امرؤ القيس ، والإسلامي : ذو الرمة ، والمولد : ابن المعتز .  
وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٢) .  
وفي الأندلس اشتهر بالتشبيه أبو عامر بن شهيد ، وفيه يقول ابن بسام :  
هو من أقوى الشعراء استعارات وأصحهم تشبيهات (٣) .  
ومن القسم الثاني — ويدخل فيه شعراء القسم الأول — جماعة  
كثيرة العدد .

فوصف الناقة عرف به طرفة بن العبد .  
وصف الإبل وراعيا عرف به الراعي النيري (٤) .  
ووصف الصيد عرف به امرؤ القيس .  
ووصف المطر عرف به امرؤ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر  
وعبد بنى الحساس وذو الرمة .  
ونذب الأطلال وبكائها عرف به مسعود بن عمرو الأزدي .  
ووصف النخل عرف به البطين التيمي .  
وذم الأضياف عرف به اللعين المنقري .  
ووصف الثور والظليم عرف به الطرمح .  
ووصف الظباء عرف به عدى بن الرقاع .

---

(١) أمالي المرتضى - ٣ - ٣٥ (٢) العمدة - ١ - ٦٣

(٣) الذخيرة - ٢ - ٢٨٧

(٤) اختلف في سبب تسميته بذلك ، ويقول ابن سلام : إنما سمي بذلك لكثرة وصفه

الإبل وحسن فخته لها . أمالي المرتضى - ٢ ص ٦



ووصف حمر الوحش والقوس عرف به أوس بن حجر والشمخ .  
 ووصف السلاح عرف به أوس بن حجر .  
 ووصف الخمر عرف به الأعشى والأخطل وأبو الشيص وأبو نواس .  
 ومدح الملوك عرف به الأخطل وأبو الشيص .  
 ووصف النساء عرف به الأخطل وعمر بن أبي ربيعة .  
 ووصف الشباب عرف به ابن أبي ربيعة .  
 ووصف الأسد عرف به أبو زيد الطائي .  
 ووصف أحوال الآخرة عرف به أمية بن أبي الصلت .  
 ووصف الخيل عرف به امرؤ القيس وأبو داود الإيادي والنابعة  
 الجعدى وسلامة بن جندل وطفيل الغنوى ، والنميرى وأبو تامم  
 والبحترى والمتنبى .  
 وكان طفيل الغنوى يلقب بطفيل الخيل لحسن وصفه لها ، وكان  
 عبد الملك بن مروان يقول : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو  
 شعر طفيل<sup>(١)</sup> .  
 أما أبو الطيب فقد ذكر الخيل فى كثير من شعره : وكان يؤثرها على  
 الإبل ؛ لما يقوم فى نفسه من التهيّب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة<sup>(٢)</sup> .  
 ووصف المهامه والبوادي والجمال والأنساع والأزمّة والحرباء عرف  
 به ذو الرمة .

ومن بدائعه قوله فى الحرباء .

يصلى بها الحرباء للشمس ماثلا      على الجذل إلا أنه لا يكبر<sup>(٣)</sup>  
 إذا حول الظلّ العشى رأيت      حنيفا وفى قرن الضحا يتنصر

(١) الشعر والشعراء - ٢٧٥ (٢) العمدة - ١ - ١٥٣

(٣) الجذل بالكسر : أصل الشجرة .



وقوله :

ودَوِيَّةٌ جرداء جدام خِيَّمتُ بها هَبَّواتُ الصَّيفِ من كل جانب <sup>(١)</sup>  
 كأن يَدِي حرباًئها متمسكا يدا مذنب يستغفر الله تائب  
 وقوله :

وقد جعل الحرباء يصفرّ لونهُ ويخضرّ من حر الهجير غباغبه <sup>(٢)</sup>  
 ويسبح بالكفين سبحاً كأنه أخو فجرة أوفى به الجذع صالبه  
 وهذه التشبيهات - كما يقول العسكري - مصيبة عجيبة الإصابة ، دالة  
 على شدة الحزن وثقوب الذهن <sup>(٣)</sup> .

ووصف مثالب الرجال عرف به ابن الرومي .

ووصف المعارك عرف به أبو الطيب .

ووصف النور والطير عرف به الصنوبري .

ووصف الطيف والقصور والبرك عرف به البحترى .

ووصف مظاهر الطبيعة عرف به ابن خفاجة الأندلسي وابن  
 حمديس الصقلي .

ووصف شباك صيد السمك والحمامات وطير الخطاف عرف به  
 السري الرفاء .

والفخر والحماسة عرف به أبو فراس الحمداني والشاطرة والمغازلة والخمر  
 والخمار عرف به أبو نواس .

ووصف الأزمنة والنجوم عرف به محمد بن يزيد بن مسلمة .

(١) الدوية والداوية بالتشديد والتخفيف : القلاة ، والهبات جمع هبوة الغبرة .

(٢) الغباغب جمع غبغب : اللحم المتدلى تحت الحنك كالغيب .

(٣) ديوان المعاني - ٢ - ١٤٧



## الفصل السابع عشر

### الاشياء التي وردت في التشبيه كثيرا

من يتتبع الآثار الأدبية يعجب من أن الحظوظ لمست أشياء خاصة  
فجرى ذكرها في التشبيه كثيراً ، حتى أصبحت متميزة المنزلة ملحوظة المكانة  
فكأن قانون السعود والنحوس يأبى إلا أن يجرى على مافى الوجود من  
ناطق وصامت ، ونام وجامد .

#### الجوارح الإنسانية .

فمن الجوارح الإنسانية : العيون ، فقد استفاضت بها أشعار الغزل  
والنسيب ، ويندر أن يتحدث شاعر عن محاسن المرأة وينسى عينيها الفعولتين  
بالألباب ما تفعل الخمر كما يقول الشاعر !

والعيون المحببة إليهم قبل الاختلاط بالأجانب هي العيون السود النجل  
الوطف الأهداب ، الفاترة الأجفان ، الناعسة الألحاظ .

ومن ثم كانت العيون الكحيلة آثر لديهم من العيون الزرق والخضر  
والعسلية وما إلى ذلك .

#### الحيوان الأهلي .

ومن الحيوان الأهلي النوق ، فقد أفاضوا في نعت أعضائها وسيرها ،  
ووصفها بالنحول وتشبيهها بالقسي ، فمن بدائع ذلك قول الشماخ بصف  
سيرها :



كَأَنَّ ذِرَاعِيهَا ذِرَاعِي مُدَّةٍ بُعِيدَ السَّبَابِ حَاوَلَتْ أَنْ تَعْذُرَ  
 مِنَ الْبَيْضِ أَعْطَافًا إِذَا اتَّصَلَتْ دَعَتْ فِرَاسَ بْنَ غَنَمٍ أَوْ لَقِيطَ بْنَ يَعْمَرَ  
 بِهَا شَرَقَ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبَرٍ أَطَارَتْ مِنَ الْحَسَنِ الرَّادِ الْمُحِبِّ  
 مُجْدَّةُ الْأَعْرَاقِ قَالَ ابْنُ ضَرَّةَ عَلَيْهَا كَلَامًا جَارٍ فِيهِ وَأَهْجَرَا (١)  
 تَقُولُ وَقَدْ بَلَ الدَّمُوعَ خَمَارَهَا أَبَتْ عَفَى وَمَنْصَبِي أَنْ أُعِيرَ  
 شَبَّهَ ذِرَاعِيهَا وَهِيَ تَنْدَرُّعُ فِي سِيرِهَا بِذِرَاعِي امْرَأَةِ مُدَّةٍ عَلَى أَهْلِهَا بِرَاءَةٍ  
 سَاحَتِهَا ، وَقَدْ حَكَى عَنْهَا ابْنُ ضَرَّتِهَا كَلَامًا أَهْجَرَ فِيهِ : أَيُّ أَحْفَشٍ ، فَهِيَ تَرْفَعُ  
 يَدَيْهَا وَتَضَعُهُمَا وَتَقْبِضُهُمَا وَتَبْسُطُهُمَا ، وَتَعْتَذِرُ وَتَحْلِفُ وَتَنْضَحُ عَنْ نَفْسِهَا  
 مَا جَلَبَ لَهَا ابْنُ ضَرَّتِهَا مِنَ الْعَارِ .  
 أَوْ مَعْنَى مُدَّةٍ : أَنَّهَا تَدُلُّ بِحَسَنِ ذِرَاعِيهَا فَهِيَ تَدْمُنُ إِظْهَارَهُمَا لِيَرَى  
 حَسَنَهُمَا .

وَبُعِيدَ السَّبَابِ : أَيُّ فِي عَقْبِ الْمَسَابَةِ قَامَتْ تَعْتَذِرُ إِلَى النَّاسِ .  
 وَقَوْمٌ يَرُونَهُ بُعِيدَ الشَّبَابِ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ : أَنَّهَا نَصَفَ مِنَ النِّسَاءِ  
 فَهِيَ أَقْوَمُ بِحُجَّتِهَا مِنَ الْحَدِثَةِ الْغَرَةِ .  
 وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

كَأَنَّ ذِرَاعِيهَا ذِرَاعِي بُذِيَّةٍ مَفْجُوعَةٌ لَاقَتْ ضَرَائِرَ عَنْ عَفْرِ (٢)  
 سَمِعْنَ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْ بِكَلَامِهَا فَلَا شَيْءَ يَفْرَى بِالْيَدَيْنِ كَمَا تَفْرَى (٣)  
 قَالَ الْمُبَرَّدُ : أَنْشَدْنِيهِمَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْمُعَذَّلِ وَسَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ ، وَلَوْ قِيلَ  
 إِنَّ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْوَصْفِ مَا كَانَ ذَاكَ بُعِيدًا .

(١) فِي السَّكَامِلِ لِلْمُبَرَّدِ « شَرْحُ الْمَرْصُفِيِّ » ٤ - ٦ - ٢٥٠ : مِثْرَاءُ الْأَخْلَاقِ .  
 (٢) الْبُذِيَّةُ : السَّلِيظَةُ اللَّسَانُ ، وَعَنْ عَفْرِ : بَضْمٌ فَسْكَوْنٌ وَضَمَّتَيْنِ . أَيُّ بَعْدَ حِينَ .  
 (٣) الْفَرَى : الشَّقُّ .



وصفها بأنها بذية وقد فجعت بما أسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائها بعد  
زمان وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين لها يتسمعن<sup>(١)</sup> .  
وقول بشامة بن الغدير :

كان يديها إذا أرقلت      وقد جرن ثم اهتدين السبيلا  
يدا سابح خراً في غمرة      وقد شارف الموت إلا قليلا  
يقول : كأن يدي هذه الناقة وقت كلال غيرها من الإبل ولزومهن  
المحجة يدا سابح ، فهو أشد لتحريك يده مخافة على نفسه<sup>(٢)</sup> .  
والخيل .

وقد وصفت وصفاً مستفيضاً على السنة الشعراء والأدباء وبخاصة  
في الزمن القديم فقد كانت من عدد الحرب التي لا يستغنى عنها ، كما كانت  
من أدوات الترف والزينة لدى أرباب السلطان والمال ، وليس من  
همنا استقصاء ما قيل .

فمن ذلك قول أعرابي في فرس أحمر :

وأحمر كالديباج أما سماؤه      فرياً وأما أرضه فمحول<sup>(٣)</sup>

وقول الأمير مجير الدين بن تميم — وهو من مخترعائه — :

أهديت لي يا مالكي مهرة      جميلة الخلق بوجه جميل  
مؤخرها والعنق قد أوقعا      قلب الأعادي في العريض الطويل  
قد لبست من شفق حلة      تخبرنا أن أباهما أصيل  
وقول آخر في أبلق أغر :

وكانما لطم الصباح جبينه      فاقصص منه نخاض في أحشائه

(١) الكامل للعبد و شرح المصنفى ٥ - ٦ - ٣٥٣

(٢) أمالي المرتضى - ٣ - ١٨ (٣) سماؤه أعاليه ، وأرضه : حوافره .



وقول العسكري في مثله :

يريك جبينه لمعان برق  
فيشبه تحت جناح الليل ليلا  
يلوح البدر منه في جبين  
وقول ابن طباطبا في أدهم أغر :

عجبا لشمس أشرقت في وجهه  
وقول ابن المعتز في فرس أبيض :

ولقد وطئت الغيث يحملني  
يمشي فيعرض في العنان كما

فكانه موج يذوب إذا  
أطلقته فإذا حبست جمد

وقال إسحاق النهرواني في فرس لأبي

كم كم تجرعه المنون ويسلم  
من كل منبت شعرة من جلده  
رجعته أطراف الأسنة أشقرا

وقول أبي تمام في فرس أسود أبيض :

صافي الأديم كأنما ألبسته  
مسود شطر مثلما اسود الدجى

وقول البحتري في أغر محجل :

وأغر في الزمن البهيم محجل  
يهوى كما هوت العقاب إذا رأت  
هزج الصهيل كأن في نبراته

قد رحت منه على أغر محجل  
صيداً وينتصب انتصاب الأجدل<sup>(١)</sup>  
نغمات معبد في الثقل الأول<sup>(٢)</sup>

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) معبد : أمام الغناء بالمدينة في العصر الأموي ، والثقل الأول : صوت له .

( م ١٥ — فن التشبيه ج ٢ )



وقول ابن هانيء في وصف فرس لجعفر بن علي بن حمدون بين السواد والحمرة :  
 من البهم ورد اللون شيب بكمة كما شيب بالمسك الفتيق خلوق<sup>(١)</sup>  
 فلو ميز منه كل لون بذاته جرى سبج منه وذاب عقيق<sup>(٢)</sup>  
 ومن النثر قول أعرابي : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطان في أشطان ،  
 فأرسلوه فلمع لمع البرق ، واستهل استهلال الودق ، فكان أقربهم إليه ،  
 الذي تقع عينه من بعد عليه .

ووصف أعرابي خيلا لبني يربوع فقال : خرجت علينا خيل من مستطير  
 نقع ، كأن هواديهما<sup>(٣)</sup> أعلام ، وآذانها أقلام ، وفرسانها أسود آجام .

#### الحيوان الوحشي .

ومن الحيوان الوحشي : الأسد ، وقد غصت به دواوين الشعر منذ  
 أن نظم الشعر ، لأنه عنوان الشجاعة التي يكبرها الإنسان .  
 والغزال والمهاة لما وصفتا به من جمال العين والجيد .

#### الطيور .

ومن الطيور : العقاب والصقر والطاووس .

#### الأزهار .

ومن الأزهار : الورد والرجس وشقائق النعمان .  
 وكان أزدشير بن بابك يقول في الورد : هو در أبيض ، وياقوت  
 أحمر ، على كراسي زبرجد أخضر ، تتوسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة  
 الخمر ، ونفحات العطر .

وقد أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب

(١) الخلوقة بالفتح : الطيب . (٢) السبج : الخرز الأسود .

(٣) الهوادي : الأعناق .



فاشرب على منظر مستظرف حسن من خمرة مزرّة كالجمر في اللهب  
وكان كسرى أنوشروان مستهتراً بالرجس ، وكان يقول : هو ياقوت  
أضفر ، بين در أبيض ، على زمرد أخضر .  
وقد نقله بعض المحدثين فقال :

وياقوتة صفراء في رأس درة . مركبة في قائم من زبرجد  
كمثل بهي الدر ، عقد نظامها تثير فريد قد أطاف بعسجد  
كأن بقايا الطل في جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وفي الشقائق<sup>(١)</sup> يقول البحري — وكان معجبا بما قال — :  
شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في حدود الخرائد  
ويقول ابن الرومي :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقاً كعقد عقيق بين سمط لآلى  
وفيهن نوار الشقائق قد حكى حدود غوان نُقطت بغوالى  
الفواكه .

ومن الفواكه : التفاح والرمال والنارنج .

### الأجرام السماوية .

ومن الأجرام السماوية : الشمس والقمر ، ويشبه بهما : الزوجان .  
وأول<sup>(٢)</sup> من صنع ذلك عدى بن الرقاع العاملي ، ومنه أخذ الشعراء هذا  
التشبيه وأكثروا .

(١) الشقائق وتسمى الشقيق والشقر بكسر الفاف ، سميت بذلك لحررتها تشبيهاً لها بشقيقة  
البرق ، وقيل : النعمان : اسم الدم وشقائقه قطعه فشبهت حررتها بحمرة الدم ، ويقال :  
إنما أضيفت إلى النعمان بن المنذر لأنه حوى أرضاً أكثر فيها هذا النبات .

(٢) (٣) معجم القرآن — ١٤٠

(٢) ثمار القلوب — ٢٣٩



وذلك أن الوليد بن عبد الملك زوج ابنة عبد العزيز بأم حكيم بنت يحيى بن الحكم ، وكان يقال لها : الواصلة ، لأنها وصلت الشرف بالجمال ، وقد أمهرها أربعين ألف دينار ، فقال الوليد للشعراء : اغدوا على فقولوا في عبد العزيز وأم حكيم ، فغدوا عليه وأنشده جرير قصيدة منها :

ضم الإمام إليه أكرم حرة      في كل حالات من الأحوال  
حكمة علت الحرائر كلها      بمفاخر الأعمام والأخوال  
ثم قام عدى وأنشد :

قر السماء وشمسها اجتماعا      بالسعد ما غابا وما طلعا  
ما ورات الأستار مثاهما      فيمن رأى منهم ومن سمعا  
دام السرور له بها ولها      وتنهأ طول الحياة معا  
فقال له الوليد : لئن أقللت فقد أحسنت ! وأمر له بضعف ما أمر لجرير .  
ولا عيب في أبيات عدى إلا توالى حروف الربط وهي : له بها لها ،  
وتواليها عيب بلاغى .

وينظر إليها قول ابن الرومى :

بدر وشمس ولدا كوكبا      أقسمت بالله لقد أنجبا  
تبارك الله وسبحانه      أى شهاب منهما أثقبا  
ثلاثة تشرق أنوارها      لا بدلت من مشرق مغربا  
والثريا ، وفيها يقول الباقلانى : وأنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا  
للمتأخرين فى وصف شيء من النجوم مثل ما فى وصف الثريا ، وكلُّ قد أبدع  
فيه وأحسن (١) .

فمن ذلك قول ذى الرمة :

وردت اعتسافا والثريا كأنها      على قمة الرأس ابن ماء مخلق

(١) إعجاز القرآن - ١٤٠ .



وقول ابن الطثرية :

إذا ما الثريا في السماء كأنها جُمان وهى من سلكه فتبددا  
وقال غيره :

كان الثريا راحة تشبر الدجى لتنظر طال الليل أم قد تعرضا  
وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربى قرط مسلسل  
وأكثر من تشبيهها ابن المعتز ، فشبهها ببيضات الأدحى ، والنور المتفتح  
واللجام المفضض إلى غير ذلك .  
ومن رقائقه قوله :

فناولنيها والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به الساقى  
وقد شبهت بغير ذلك وهى حقيقة بكل هذا وأكثر منه ، فهى من  
عرائس السماء ، حسنة الاسم حسنة المنظر .  
والهلال ، وهو بمن رزق الحظوة فى التشبيه ، وقد ذكر الحموى : أنهم  
وصلوا فى تشبيهه إلى السبعين .<sup>(١)</sup>

وشبهه<sup>(٢)</sup> محمد بن عبد القادر اليمنى بعدة أشياء فى قصيدة له ، أولها :  
ألام هلال لاح أم نون حاجب بدا بجبين الأفق فى ليلة الفطر  
ولكن القصيدة ليست جيدة وفيها تكلف .  
وفى الرائية التى مدح بها ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنأه فيها  
بعيد الفطر ، استطرد إلى تشبيه الهلال فى عشرة أبيات منها :

كان شكل هلال العيد فى يده قوس على مهج الأعداء موتور  
أو مِخلب مدّه نسر السماء لهم فكل طائر قلب منه مذعور  
أو منجل لحصاد الصوم منعطف أو خنجر مرهف الحدين مطرور



وهي من الشعر المتوسط .

وزاد على ذلك نحر الدين بن مكنس في أرجوزته المشهورة التي سماها :  
« عمدة الحرفا وقدوة الظرفا »

وقد أتى فيها للهلال بتشبيهات كثيرة جميلة .

ومن بدائع ما جاء فيه قول ابن المعتز — وقد أكثر من تشبيهه — :

وهلال شوال يلوح ضياؤه      وبنات نعش وقَّفَ بإزائه

كبنانة من مُخلص لما رأى      وجه الوزير دعا بطول بقائه

وقول السري الرفاء :

وكان الهلال نون لجين      غرقت في صحيفة زرقاء

وقول بعض الوزراء :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام      ونهبوا العود وصَفُّوا المدام

هذا هلال الفطر قد جاءنا      بمنجل يحصد شهر الصيام

ومن المباريات الشعرية الرائعة : أن ابن قلاقس وابن المنجم اجتمعا

في منار بعض الجوامع — والشمس قد غربت وبدا الهلال في حمرة

الشفق — فاقترح عليهما جماعة من الأدباء أن يصنعا على البديهة في ذلك ،

فقال ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً      وانظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وأبقت شعاعا منه يخلفها      كأنما احترقت بالماء في الغرق

وللهلال ، فهل وافى لينقذها      في إثرها زورقا قد صيغ من ورق

وقال ابن المنجم :

يأرب سامية في الجو قمت بها      أمدُّ طرفي في أرض من الأفق (١)

(١) سامية : يريد المأذنة .



حيث العشيّة في التّثيل معركةٌ      إذا رآها جبان مات للفرق  
شمس نهاريّة للغرب ذاهبة      بالنيل مصفرة من هجمة الغسق  
وللهلال انعطاف كاللسان بدا      من سورة الطعن ملقً في دم الشفق

واجتمع ابن قلاقس وابن المنجم أيضا في آخر شهر رمضان مع جماعة  
من الأدباء في سطح الجامع بمصر ، فلما غابت الشمس وظهر الهلال اقترح  
الجماعة على الشاعرين أن يعملّا في صفة الحال ، فلم يكن إلا كرجع الطرف  
حتى قال ابن المنجم :

وعشيّ كأنما الأفق فيه      لازورد مرصّع بنضار  
قلت لما دنت لمغربها الشمس م      ولاح الهلال للنظار  
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا      را فأعطى الرّهين نصف سوار

وقال ابن قلاقس :

لا تظن الظلام قد أخذ الشمس م      وأعطى النهار هذا الهلالا  
إنما الشرق أقرض الغرب دينا      را فأعطاه رهنه خالالا  
وهو مما تواردت فيه الخواطر ، وقطعة ابن المنجم أحسن لتنصيفه  
السوار .

#### الموات .

ومن الموات : البحر ، لأنه يمثّل الكرم في خيال العربي ، وهو  
والشجاعة يؤلفان خلق الفتوة التي عرف بها العرب .  
والنار وقد آمن الله بها على عباده في قوله - تعالى - : « أفرأيتم النارَ  
التي تُورون ، إلى قوله : « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمُسقين ، .  
فذكر منفعتها وحسن عائدتها في الدنيا والدين .



وكانت العرب إذا تحالفت ، تحالفت عليها ، ويدعون على من يغدر  
وينقض العهد بالحرمان من منافعتها (١) .

ويذكر الجاحظ أنهم قالوا : ليس في العالم جسم صرف غير ممزوج ،  
ومرسل غير مركب ، ومطلق القوى غير محصور ولا مصور ، أحسن  
من النار .

ويقولون : شراب كأنه النار ، وكأن لون وجهها النار .  
وإذا وصفوا بالذكاء قالوا : ما هو إلا نار ، وإذا وصفوا حمرة  
العرض (٢) وحمرة الذهب قالوا : ما هو إلا نار (٣) .

ويشبه الفرس في عدوه بالنار ؛ كقول ابن المعتز :

طوى الشحم على متنيه      مثلما يطوى القباطى تجر  
فهو نار والتراب دخان      مستطير وحصى الأرض جمر  
ومن عجيب التشبيه فيها قول الأول :

كأن الريح تقطع من سناها      بنائق جبة من أرجوان  
وقول مروان بن أبي الحِصَال :

لابنة الزند في الكوانين جمر      كالدرارى في دجى الظلماء (٤)  
خبروني عنها ولا تكتموني      أليها صناعة الكيمياء ؟  
سبكت فحمها صفائح تبر      رصعتها بالفضة البيضاء  
كلما رفرف النسيم عليها      رقصت في غلالة حمراء

والبيت الأخير مأخوذ من قول الخفاجى :

وكانها والريح عابثة بها      تزهى فترقص في قميص أحمر

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٨٦ - ٢٨٧ (٢) العرض : المال .  
(٣) الحيوان - ٥ - ٣٣ (٤) البنائق : جيوب القميص جمع بنيقة .  
(١) ابنة الزند : كناية عن النار لأنها تقدح منه .



وقول سيف الدولة - وهو من الشعر الملوكي :

كأنما النار والرماد معا وضوءها في ظلامه يُحجَبُ  
وجنة عذراء مسها خجل فاستترت تحت عنبر أشهب

### والقلم .

وقد فضله ابن الرومي على السيف فقال :

كذا قضى الله الأقلام مذبريت أن السيوف لها مذارهفت خدُم  
وقال فيه بعض الأعراب :

لعمرك ما السيف سيف الكمي له شاهد إن تأملته  
بأخوف من قلم الكاتب ظهرت على سره الغائب  
أداة المنية في جانيه فمن مثله رهب الراهب  
لم تر في صدره كالسنان وفي الردف كالمرهف القاضب

ويقول العسكري :

انظر إلى قلم تنكس رأسه انظر إلى مخلاب ليث ضيغم  
ليضم بين موصل ومفصل وغرار مسنون المضارب مقفل  
يبدو لناظره بلون أصفر ومدامع سود وجسم منحل  
فالدرج أبيض مثل خد واضح يثنيه أسود مثل طرف أكل<sup>(١)</sup>  
وأنشد أبو أحمد عن الصولي :

ماضر من أضي بهجرانه لو فرج الكربة عن مدنف  
قلب كتيب القلب حرانه تشفه لوعة أحزانه

(١) الدرج : « الفرخ »



برقة ينظمها كفه      نظم لآليه ومرجانه  
 بمرفف الأحشاء ذى حلة      موشية ترفع من شانه  
 لعابه يسر وعسر إذا      جاد به تفلج أسنانه  
 إذا امتطاه بشبيهاه      كشف أسراراً بإعلانه (١)  
 يركض فى ميدان قرطاسه      ركض جواد وسط ميدانه  
 والنمل .

وقد نالت نصيباً من التشبيه — على حطة قدرها — !  
 فقد وقع تشبيهها بالمطية والراحلة كثيراً فى شعر العرب من المتقدمين  
 والمتأخرين .

فمن قول بعض العرب :

رواحلنا سبت ونحن ثلاثة      نجنبهن الماء فى كل منزل  
 وقول أبى نواس :

إليك أبا العباس من دون من مشى      عليها امتطينا الحضرمى الملسنا  
 قلائص لم تعرف حيننا على طلاً      ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا  
 الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ساعة يولد ، والفنيق : الفحل المكرم  
 لا يؤذى ولا يركب ، والهناء بالكسر : القطران .  
 يشبه نعالهم بالنوق الشواب التى لم ترأى ولداً ، ولم يقربها الفحل ولم  
 تدهن بالقطران .  
 وقول المتنبي :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا      بالسوط يوم الرهان أجهدها  
 شراكها كورها ، ومشفرها      زمامها ، والشسوع مقودها

(١) شبيهاه : يريد أصابعه الدقيقة الجميلة .



الشراك : سير النعل ، والكور : الرجل ، والشسوع : السيور التي تكون خلال الأصابع .

جعل شراك نعله بمنزلة الرجل للناقة ، وزمامها بمنزلة المشفر ، والشسوع بمنزلة المقود .  
وقوله أيضاً :

وحببت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا  
الخوص : جمع أخوص وهو الغائر العينين من الجهد والإعياء ،  
والدارش : جلد أسود .

يقول : أعطيت بدلا من الإبل خفا أسود ؛ فأنا راكب كماش .  
ويقول القاضي محمد الإحسائي المسكي في نعل أهديت إليه :  
وبعد فقد وصلت المطية التي هي حمراء الوبر ، المركوبة في السفر  
والحضر ، الكافية راكبها مئونة نفسها ، فلا تشرب ماء ولا ترعى الشجر ...  
فشكر الله فضلكم ، ولا أعدم أحبابكم طوّلكم والسلام <sup>(١)</sup> .

#### العروس .

ومن أكثر ما دارت عليه التشبيهات كلمة العروس .  
فإليها يضاف كل شيء يجمع المحاسن !  
فيقال : سفينة العروس للسفينة الكبيرة التي تشتمل على نفائس الأمتعة  
للتجارة .

وخزانة العروس للخزانة الخاصة من خزائن الملوك .  
وسوق العروس لأحسن الأسواق وأجمعها لأحسن الطرائف ؛ لأن  
العادة الجارية بتبخر العرائس بالطرائف والنفائس .  
وبسوق العروس يضرب المثل في الحسن ؛ فيقال : أحسن من سوق

---

(١) سلافة العصر - ٢٢٩



العروس ، وهو مجمع الطرائف ببغداد ، قديماً ، وما ظنك بأحسن الأسواق  
في أحسن البلاد !

وسوداء العروس : جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء ، وتقف  
بإزائها ؛ لتكون أظهر لمحاسنها كما يقول البحترى :

وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع في داج من الليل غيب  
وكما يقول الآخر :

ضدان لما استجمعا حسناً والضد يظهر حسنه الضد  
ولتكون كالعوده لجمالها وكما لها .

وفي ذلك يقول الصابي في وصف جارية حسناء بيدها كأس من  
النبيذ الأسود :

بنفسى مقبل يهدى فتونا إلى الشرب الكرام بحسن قد  
وفي يده من التمرى كأس كسوداء العروس أمام خده (١)  
والطاووس — وهو عروس الطير — يشبه في حسنه بعروس الإنس .  
وفي ذلك يقول الشاعر :

طير على أشكاله رئيس كأنه في حسنه طاووس  
وليلة العرس يشبه بها ما يوصف بالحسن كما قال صاحب :  
وشادن في الحسن كالتاووس أخلاقه كليلة العروس  
والقصيدة الرائعة تشبه بالعروس كقول السرى الرفاء :

زففت إليه من مدحى عروسا معرسة الهوى في كل ناد (٢)  
وقول شوقي :

لى فى مديحك يارسول عرائس تيمن فيك وشاقهن جلاء

(١) التمرى : الشراب المصنوع من التمر . (٢) معرسة : مقيمة .



## الفصل الثامن عشر

### التجديد في التشبيه

من القواعد المقررة أن صور التشبيه وغيرها من صور البيان لا يمكن أن تجمد على هيئة واحدة ، بل لا بد أن تتجدد على مر الزمان تبعاً لسنة التغير السارية في كل شيء .

وليس بمعقول أن تتطور الأخلاق والعادات والنظم والقوانين والعقول والأفكار ، وأحوال المعيشة ، وتبقى الأداة المعبرة عن كل أولئك واقفة حيث هي تعرب عن آمال عصرها وآلامه ومعتك حوادثه ، واصطراع أهله بأساليب غريبة أو بالية .

والصور البياتية بحكم طبيعتها المرنة اللينة معرض واسع للتجديد ، وحقل خصيب للإبداع والاختراع ، ومن يتبعها في مختلف عصورها يتبين له ذلك جلياً .

فثلاً طرفة بن العبد يصف السفينة في عهده فيقول :

يشق حَبَابُ الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفايل باليد  
المفايل : الذي يلعب المفايلة ، وهو أن يُجمع التراب فيدفن فيه شيء  
ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين في أيهما هو ، فمن أصاب غلب ،  
ومن أخطأ غلب .

شبه شق السفينة بصدرها الماء ، بشق المفايل بيده التراب المجموع .  
وهذا الوصف يدلنا على أن هذه السفينة صغيرة الحجم ، هيئة السير  
ساذجة الصنعة ، ضعيفة القوى ، حتى إن شقها الماء كشق المفايل التراب .



ثم تسكر الأعوام ويتغير الزمن ، وتقبل دولة البخار ، وتستحيل السفن  
مدنا عائمة على اليم تختال فوقه اختيالاً ، فتقطع المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة  
غير مبالية بغضب الهواء ولا الماء ، فتسمع الشيخ حمزة فتح الله يقول :

تجر في اليم أذيالاً مصبغة كالخود تختال في أذيال جلاب  
ثم يأتي شوقي فيصف ما أمدتها به الحضارة والعلم من أسباب الراحة والترف  
فيقول :

والفلك مشرقة الجوانب في الدجى يبدو لها ذيل من الأنوار  
بيننا تخطر في لجين مانج إذ تنثنى في عسجد زخار  
ثم يأتي حافظ فيصف قوة مراسها وشدة جلادها للبحر الهائج المانج  
وصف عيان لا خيال فيقول :

تترامى بجؤجؤ لا يبالى أمياه تجوطه أم صخور<sup>(١)</sup>  
أزعج البحر جانبيها من الشد م فجنب يعلو وجنب يغور  
وهو أنا ينحط من علو كالسيل م وأنا يحوطها منه سور<sup>(٢)</sup>  
وهي تزور كالجواد إذا ما ساقه للطعان ندب جسور<sup>(٣)</sup>  
فسفينة طرفة التي احتفى بذكرها في معلقته الخالدة لا تعد شيئاً بجانب هذه  
السفن الضخمة التي وصفها شعراؤنا الثلاثة .

وكانت العرب تسكره زرقة العين وتسكرها ، لأنها لم تكن معهودة في  
عيونهم ، ولأنهم كانوا يرونها في عيون الروم أعدائهم ، فكانوا يعيرون  
الرجل : بأنه أزرق ، ويصفون العدو : بأنه أزرق .  
ومن ذلك قول الحماسي :

فمرا على إهل الغضا إن بالغضا رقارق لازرق العيون ولا رُمدا  
ومن رسالة المفاخرة بين السيف والقلم قول القلم للسيف : أين عينك  
الزرقاء من عيني السكحيلة<sup>(٤)</sup>

(١) الجؤجؤ : الصدر .  
(٢) علو مثله الواو : من أعلى .  
(٣) الندب : الماضي الخفيف في الحاجة .  
(٤) خزانة الأدب للحموي - ١٣٣



ويقول بشار في تقبيح علل البخيل :

وللبخيل على أمواله علل      زرق العيون عليها أوجه سود  
وقد اضطر بعض الشعراء أن ينضح عن عيون محبوبه الزرق بقوله :  
وعابوه أن قالوا بعينه زرقة      كذاك عتاق الطير زرق عيونها  
ويقول السري الرفاء في هذا المعنى :

وقالوا بمقلته زرقة      تشين يظل لها مطرقا  
وهل يقطع السيف يوم الوغى      إذا لم يكن منته أزرقا  
ولكن لما امتدت الفتوحات العربية ، ورأى العرب الجركسيات  
والصقلييات والروميات بوجوههن الشقر وشعورهن الذهبية ، وعيونهن  
الزرق ، أنسوا بكل ذلك ، وفتنوا به ، ولهجوا بذكره ، فمن ذلك قول عبد المحسن  
الصوري :

يامن هو الماء في تكوين رفته      ومن هو الخمر في أفعال مقلته  
ومن بزرقه سيف اللحظ طل دمي      والسيف ما نخره إلا بزرقته  
وتبعاً لذلك أحبوا الشعور الصفر والخر فقال بعضهم :

وفرع يزين المتن يحكى اصفراره      سنابل قمح لم يتم نضوجها  
وانبرى بعضهم للدفاع عنها كالشباب الظريف في قوله :  
عبت من المحبوب حمرة شعره      وأظنكم بدليله لم تشعروا  
لا تنكروا ما احمر منه فإنه      بدماء أرباب الغرام مضفر  
بعد أن كان أحسن الشعر عندهم هو الفاحم كما يقول المتنبي :  
وما خضب الناس البياض لأنه      قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

ويظهر ذلك بخاصة في أهل الأندلس لكثرة امتزاجهم بسكانها ، حتى  
ليقول ابن حزم : أما جماعة خلفاء بني مروان ولا سيما ولد الناصر منهم



فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، ولقد رأينا من رأيهم ورأينا من رأيهم من لدن دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا الأشقر نزاعا إلى أمهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقة حاشا سليمان الظافر فإن رأيت أسود اللبة واللحية .

ثم يقول ، وعنى أخبرك : أنى أحبيت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسننت من ذلك الوقت سواد الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه (١) .

وكانوا قديما يحبون السمن فى النساء ويعدون آية الجمال والملاحاة ، وسمه النعمة والغنى ، وشارة الترف والرفاهية ، وأكثروا من وصف ذلك كقول عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خلاء      وقد أمنت عيون الكاشحين  
ذراعى عيطل أدماء بكر      هجان اللون لم تقرأ جنينا  
وما كمة بضيق الباب عنها      وكشحا قد جنت به جنونا  
وساريتى بلنط أو رخام      یرن خشاش حليهما رنينا  
يقول : تريك إذا دخلت عليها وقت خلوة أمنت فيها عيون الرقباء  
والأعداء ذراعين ممتلئين لحما كذراعى ناقة طويلة بيضاء العنق لم تلد بعد .  
وتريك ورkala يتسع الباب لدخولها لعظمها وضخامتها وامتلائها باللحم  
والشحم ، وكشحا جنت بحسنه ، وتريك ساقين كأسطواناتين من عاج أورخام  
مياضا وضخامة تصوت خلاخيلها .  
ويقول آخر :

وما جت كموج البحر بين ثيابها      يميل بها شطر ويعد لها شطر  
ويقول المؤمل :

من رأى مثل حبتى      تشبه البدر إذ بدا



تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غدا  
والنموذج اليوم للمرأة العصرية أن تكون قليلة اللحم ، مجدولة رشيقة ،  
خفيفة الحركة ، كثيرة النشاط ، غير تثوم الضحا ولا مكسال ، ولا تثقلها  
أردافها عند المشي ، حتى تصاب بالبهر والإعياء والربو إذا خطت قدر الباع ،  
كما يصورها عمر بن أبي ربيعة :

قطوف من الحور الأوانس بالضحا متى تمش قيس الباع من يهرها ترَبو  
ولكن كما يصورها شوقي في قصيدته « أثر البال في البال » (١)

فالقُدود بان رُباً يسد أنها تثب  
يلعب العناق بها وهو مشفق حدب  
فهي مرة صعد وهي مرة صَب  
وهي ههنا وههنا تلتقي وتصطحب  
مثلاً التقت أسل أو تعانقت قُضْب

إلى أن يقول :

والخصور واهية بالبنان تنجذب  
سالت الأكف بها فهي أغصن نهب

ويقول بعض العرب - يصف تقدم الناقة على قطار الإبل - :

تنسل منها إذا تدانين مثل انسلال الماء من جفن العين  
وجاء أبو نواس فقال :

تذر المطى ورامها وكأنها صف تقدّهن وهي إمام  
وقال بعده ابن المعتز :

فهي إمام الركب في ذهابها كسطر بسم الله في كتابها

(١) الشوقيات - ٢ - ٨



ولا ريب أن الأخيرين استلهما في تجديدهما البيئة الإسلامية .

وعمر بن كثوم شبه النهد بحق العاج في قوله :

وثديا مثل حق العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا

واتبعه الشعراء في ذلك فقال ابن الرومي :

صدور فوقهن حقائق عاج وحلى زانه حسن اتساق

يقول الناظرون إذا رأوها أهذا الحلى من هذى الحقائق

وما تلك الحقائق سوى ثدى قددن من الحقائق على وفاق

نواهد لا يعدن لهن عيب سوى منع المحب من العناق

وقال محمد بن منذر :

ولها ثديان ما عدوا من حقائق العاج أن كعبا

وقال السرى الرفاء :

ومن وراء سجوف الحى شمس ضحا تجول فى جنح ليل مظلم داجى

مقدودة خرطت أيدى الشباب لها حقين دون مجال العقد من عاج

وقال عبد الله بن أبى السمط :

كان الثدي إذا ما بدت وزان العقود بهن النحورا

حقاق من العاج مكنونة يسعن من الدر شيئا كثيرا

وفى رواية :

حقاق من الدر مخروطة يسعن من المسك شيئا يسيرا

وعلى كلا الروايتين نرى سمة التجديد واضحة ، فقد اتسع الوصف وشمل

أشياء أخرى وأصبح طريفا دقيقا ، فبعد أن كانت الثدي حقائق عاج

أصبحت حقائق عاج مملوءة بالدر ، أو حقائق عاج تتسع لشيء قليل من المسك .

— يريد حلة الثدي — وهو تفصيل مستوعب جميل .

وجاء تشبيه النهد بالرمان كقول البحرى :

ولقد تبیت أناملی یجنین رمان الصدور



وقال ابن الرومي في وصف القيان يحتضن العيدان :  
ملقحات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان (١)  
مُفجّعات كأنها حافلات وهي صفر من درّة الألبان  
ثم جاء ابن المعتز أو الوزير المهلب فبلغ الغاية في التجديد ، وقال أحسن ما قيل  
حتى اليوم :

قبيح بمثلك أن تهجرى وأقبح من ذاك أن تهجرى  
أقاتلتى بفتور الجفون ورماتين على مرمر  
لحقيّن من لب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر  
ولا شك أن هذا تصوير خالد للشدى .  
والناس من قديم يشبهون العيون في فعلها بالخر والسيوف والنبال  
والسهام ، لا يكادون يخرجون عن ذلك .  
يقول ذو الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالآلباب ما تفعل الخمر  
ويقول أبو نواس :

تسقيك من لحظها خمرًا ومن يدها خمرًا فمالك من سكرين من بدّ  
ويقول المتنبي :

رأين التي للسحر في لحظاتها سيوف ظباها من دمي أبدا حُر  
ويقول شاعر :

ينظرن من خلل السجوف كأنما يُمطرن أحشاء الكريم نبالا  
ويقول أعرابي :

نبارز أبطال الوغى فنبيدها ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب

---

(١) الدرة بالكسر : اللبن وكثرته وسـ



وليست سيوف الهند تَفنى نفوسنا ولكن سهامُ فوقت بالحواجب (١)  
وجاء حَفنى ناصف فخرج من هذه الطريقة في بعض ما نظم وكان مجددا  
حقا حين قال :

فهى كالسكر بآء تومى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد  
وقد يخدع الشاعر عن نفسه فيأتى بمعنى من المعانى فى غرض ربما كان  
غير مطروق ، فيخيل إليه أنه سبق الشعراء بذلك وهو فى الحقيقة مسبوق  
لأن أكثر المعانى تراث شائع مركوز فى عقول الناس ، ولا سيما المتشابهون  
منهم فى البيئة والثقافة والحالة الاجتماعية ، وإنما يأتى الشاعر ذلك الوهم من  
ناحية قصور ثقافته وعدم اطلاعه على آثار غيره .

من ذلك ما قصه عبد الله بن جعفر بن درَسْتَوَيْه ، قال : قال لى  
البحترى — وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلكنا مسلكا من  
المذاكرة — : أشعرت أنى سبقت الناس كلهم إلى قولى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي فى خدود الخرائد  
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بثلثك البارقات الرواعد  
فاستحسن ذلك المبرد استحسانا أسرف فيه ، وقال : ما سمعت مثل هذه  
الألفاظ الرطبة والعبارة العذبة لأحد تقدمك ولا تأخر عنك !  
فاعترت البحترى أريحية جرَّها رداء العجب !

فكأنه أعجبنى ما يعجب الناس من مراجعة القول ، فقلت : يا أبا عبادة  
لم تسبق إلى هذا !

بل سبقتك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله :  
عذَّب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اجترعناه كسم نافع  
وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

---

(١) فوق السهم : جمل الوتر فى فوقه عند الرمي .



وشرِّك فيهِ صديقنا أبو العباس الناشئ بما أنشدنيهِ آنفاً :  
 بكت للفراق وقد راعني بكاء الحبيب لبعـد الديار  
 كأن الدموع على خدها بقية طَلَّ على جُلنَّار  
 وما أساء على بن جُريج ، الرومي ، بل أحسن في زيادته عليك :  
 لو كنت يوم الوداع شاهداً وهن يطفئن غلَّة الوجد  
 لم تر إلا دموع باكية تسفح من مقلة على خد  
 كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد  
 وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معا بقوله :

من كل زاهرة ترقق بالندى فكأنها عين إليك تُحدر  
 تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفّر<sup>(١)</sup>  
 خلق أطل من الربيع كأنه خلق الإمام وهدية المنتشر  
 في الأرض من عدل الإمام وجوده ومن الربيع الغض سرح يزهر  
 ينسى الربيع ، وما يروض جوده أبدأ على مر الليالي يذكر  
 قال : فشق ذلك عليه ! وحل حبوته ونهض .

فكان آخر عهدي بمؤانسته ، وغلظ ذلك على محمد بن يزيد ، المبرد ،  
 وقدح ذلك في حالي عنده<sup>(٢)</sup> .

وليس من الضروري أن يكون التجديد اختراعاً محضاً لم يسبق إليه  
 الشاعر ، فيكفي أن يكون توليداً وهو يأتي في المنزلة الثانية بعد التجديد .  
 والتوليد<sup>(٣)</sup> : أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد  
 فيه زيادة ، فلذلك يسمى التوليد .

(٢) زهر الآداب — ٢ — ٢١٦

(١) الجميم : النبات الغزير .

(٣) العمدة — ١ — ١٧٧



وهو ليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً :  
سرقة ؛ إذ كان ليس أخذاً على وجهه .

مثال استخراج معنى من معنى متقدم قول ابن أبي ربيعة أو وضاح البني :  
فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر  
ولده من قول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال  
فولد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرئ القيس دون أن يشركه في شيء  
من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا في المحصول ، وهو لطف الوصول إلى حاجته  
في خفية .

والمعنى الذى يريده امرؤ القيس : إخفاء شخصه .<sup>(١)</sup>

ومثال ما زيد فيه زيادة قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها  
فظر فيه إلى قول جرير :

يخرجن من مستطير النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام  
فولد بعد ذكر القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى إذ كان القرن  
أسود .

ولا شك أن التوليد أكثر من الاختراع وأسهل ، وعليه المعول  
في تنمية صور البيان .

ولو أنك تصفحت دواوين الشعراء المعاصرين وبخاصة المطلعين منهم  
على آداب الغرب ، لرأيت ألواناً من التجديد فى التشبيه أمدتهم بها المدنية  
الحديثة التى انبسط ظلها على كل شيء ، والمعارف الحديثة التى امتد سلطانها  
حتى على الذر فى مكانه السحيقة .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى - ٧٥



فمن ذلك قول البارودي يصف القطن :

والقطن بين ملوّز ومنورّ كالغداة ازدانت بأنواع الحلى  
وقوله يصف الثريا :

وترى الثريا في السماء كأنها حاقات قرط بالجمال مرصع  
وكأنها أكرّ توقّد نورها بالكهرباء في سماوة مصنع (١)  
وقوله في المصورة الشمسية :

ألا يا لقومي من غزال مُربّب تجول وشاحاه على فنّ رطب  
تعرض لي يومافصورت حسنه يثورتني عينيّ في صفحة القلب

وقوله من قصيدة يهنيء بها الخديو إسماعيل بولاية مصر :

قامتجلها تلحّ خلالك بينها في وشى بُرد للكلام قشيب  
كزجاجة التصوير شفّت فاجتلت من وصفه ما كان غير قريب  
وقول شوقي في السفينة والبدر :

وكأنها والموج منتظم وقد أوفيت ثم دنوت كالمختار  
غيداء لاهية تخط لأغيد شعرا ليقرأه وأنت القارى  
وقوله في أنس الوجود :

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الذُّعر بعضا  
كعذارى أبدين في الماء بضاً ساجحات به وأخفين بضاً  
وقوله من رثاء الزعيم مصطفى كامل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

---

(١) المعروف : الكهربى بالقصر .



وقوله من أندلسية :

نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شَرَاخُ      بهما في الدموع سيري وأرسي  
وقوله في الطيارة :

حَمَلُ الْفُولَاذِ رِيشًا وَجَرَى      في عنانين له نار وماء  
وقوله في الغزل :

نَاقُوسُ الْقَلَابِ يَدُقُّ لَهُ      وحنايا الأضلع معبده  
وقوله :

كُرَّةُ الْأَرْضِ كَمْ رَمَتْ صَوَلْجَانَا      وطوت من ملاعب وجياد  
وقول حافظ في القطار :

يَا حديدًا يَنْسَابُ فَوْقَ حَدِيدِ      كأنسياب الرقطاء فوق الرغام  
وقوله في الشركات :

وَمَا الشَّرَكَاتُ السُّودُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      سوى شرك يُلْقَى بِهِ مِنْ تَصِيدٍ  
وقوله :

فَمَرَّتْ بِأَرْوَاحِنَا هَزَةٌ      هي السكرباء بتيارها  
وقوله :

إِذَا مَا أَهَابُوا أَجَابَ الْحَدِيدُ      وقام البخار له مسعدا  
وطارت إليهم من الكهرباء      بروق على السلاك تطوى المدى  
وقوله في النيل :

كَأَنَّهُ وَرِجَالُ الرِّى تَحْرُسُهُ      مملك سار في جند وأعوان  
وقوله في مدح الأستاذ الإمام ، :

كَأَنَّ فَوَادِي إِبْرَةٍ قَدْ تَمْغِطُ      بحبك أني حرّفت عنك تعطف  
كَأَنَّ يَرَاعِي فِي مَدِيحِكَ سَاجِدٌ      مدامعه من خشية الله تذرِف



وقوله في الشكوى :

ودائي كداء الدين عزّ دواؤه      وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه  
وقوله :

رجائي في قومي ضعيف كأنه      جنان وزير سودته مناصبه  
وقوله في بعض الصحف :

يخلو بها الكذب لأربابها      كأنه أول إبريل<sup>(١)</sup>  
وقول الأسمر — يصف الأنوار الكشافة والمدافع المضادة — :

كأن شعاع الكاشفات سواعد      يقلّبها في الليل من ليس يبصر  
كأن أسوداً أبصرت فوق غابها      نسوراً فقامت في نواحيه تزار  
وقول غنيم في سيقان الحسان السابحات في الماء :

وإذا مارأيت رأى العين      منظر السوق غصن في الأمواج  
قلت واد أديمه من لجين      نبئت فيه غابة من عاج  
ولبعض العصريين في السيقان أيضاً :

قال قوم لي صفها      قلت نثرأ قيل شعراً

قلت أكوأب من البلور م      قد أترعن خمرأ

وقوله في وصف قلب الإنجليز :

عمالهم ومحافظوهم طينة      فيها تساوى البغي والتغدير

في كل يوم تستجد طبيعة      لهم كأن أباهم ، إمشير ،

وقول محمود حسن إسماعيل من قصيدة عنوانها « سواقي إبريل » ،

الطير مبهور الجنا      ح كجفون المدمن

والعشب منضور الصبا      ح كجبن المؤمن

---

(١) أول إبريل يستباح فيه الكذب ، وهي بدعة غريبة .



والأفق أبكار هذا رى فى رحيق الوسن  
والنخل مزمار شقى م يمين أرعن  
والنخل فى بحر الضيا م كسوارى سفن  
والنهر خُلد تائه لم يدر أى وطن  
والموج ذكرى شاعر مر غريب الشجن

والتجديد من الأشياء المعشقة المحببة بالفطرة إلى النفوس ، والآثيرة  
بالجبلّة لدى القلوب ، تبعاً للقاعدة البلاغية النفسية : وهى أن تجدد الصورة  
عند النفس أحب إليها وألذ عندها من مشاهدة معاد<sup>(١)</sup> ؛ لأن هذا التجديد  
يَهَب لها رَوحاً ونشوة ، ويدخل عليها بسطاً وأنساً ، وينقلها من الضيق  
والسّامة والركود إلى ساحة فسيحة ندية خضراء مounقة !  
وقد عرف أسلافنا قيمته فكانوا يغفرون به ويحُثّون عليه ويجزّون  
الصلة لأهله .

فهذا الأخطل يدخل يوماً إلى الخليفة عبد الملك ، فيقول : يا أمير  
المؤمنين ، قد امتدحتك فاستمع منى .  
فقال : إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لى بمدحك ، وإن  
كنت قلت كما قالت أخت بنى الشَّرِيد ، الخنساء ، لأخيها صخر ، فهات .  
فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين ؟  
قال : هى التى تقول :

وما بلغت كف امرئ مُتناول بها المجد إلا حيثما نلت أطول  
وما بلغ المهدون فى القول مدحة ولو أطنبوا إلا الذى فىك أفضل  
فقال الأخطل : والله لقد أحسنت القول ! ولقد قلت فىك بيتين ماهما  
بدون قولها ! قال : هات .



فأنشد :

إذا مت مات العُرف وانقطع الندى      من الناس إلا في قليل مصرّد<sup>(١)</sup>  
ورُدت أكف الراغبين وأمسكوا      من الدين والدنيا بخلف مجدّد<sup>(٢)</sup>  
فأحسن صلته<sup>(٣)</sup> !

وليس في شعر الأخطل عيب سوى مواجهة الخليفة بذكر الموت فذلك  
يحافى الذوق السليم ؛ فإنه — كما يقول العسكري — : ليس بحسن أن يقال  
للممدوح : إذا مت ! فإن استماع ذلك مكروه ، وإن كانت الشعراء قد استعملته  
في كثير من مقاماتها<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عائشة عن أبيه : قال عبد الملك يوما — وقد اجتمع الشعراء  
عنده — : تشبهونا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أجاج ، وبالجليل  
والجليل أوعر !

ألا قلت كما قال أيمن بن خريم بن فاتك في بني هاشم :  
نهاركم مكابدة وصوم      وليلكم صلاة واقترأ  
أجعلكم وأقواما سواء      وبينكم وبينهم الهواء  
وهم أرض لأرجلكم وأتم      لأعينهم وأرؤسهم سماء  
وقال الربيع حاجب المنصور : قلت له يوما : إن الشعراء يبابك وهم  
كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم !

فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحني منكم  
فلا يصفني بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب ! ولا بالحية فإنما هي دويبة منتنة  
تأكل التراب ، ولا بالجليل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو

(١) المصرد : القليل . (٢) الخلف المجدد : ضرع الناقة المقطوع .

(٣) في أمالي المرتضى — ٣ — ١١٣ : أن الخليفة « معاوية » وهو غير صواب .

(٤) ديوان المعاني — ٢ — ٢٧



عُطَامَط لَجِبٌ <sup>(١)</sup> ! ومن ليس في شعره هذا فليدخل ، ومن كان في شعره  
فليصرف !

فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فإنه قال : أنا له ياربيع ، فأدخلني .  
فأدخلته ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور : ياربيع ، قد علمت أنه  
لا بجيبك أحد غيره ! هات يابن هرمة !  
فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

له لحظات عن حفا في سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل  
هو الطينة البيضاء من آل هاشم إذا اسودَّ من لؤم التراب القبائل  
إذا ما أتى شيئا مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل  
فقال : حسبك ! هنا بلغت ! هذا عين الشعر ! قد أمرت لك بخمسة  
آلاف درهم .

فقمتم إليه فقبلت رأسه وأطرافه !  
ثم خرجت فلما كدت أخفى عن عينيه ، سمعته يقول : يا إبراهيم !  
فأقبلت إليه فرعا ، فقلت : لبيك ! فذاك أبي وأمي !  
قال : احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها ! فقلت : بأبي وأمي أنت !  
سأحفظها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتم الجهبذ <sup>(٢)</sup> .

وقال أبو هفان : اجتمع الشعراء بياب المعتصم ، فقعد لهم محمد  
ابن عبد الملك الزيات ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ،  
ويقول لكم : من كان يحسن أن يقول مثل قول النمرى في الرشيد :  
خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع  
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله أوضاق أمر ذكرناه فيتسع

(١) عُطَامَط : مضطرب الموج .

(٢) العقد الفريد - ١ - ١٦٥ .



فقال محمد بن وهيب : فينا من يقول مثله ثم أنشد :  
ثلاثة تشرق الدنيا يبهجتها شمس الضحا وأبو إسحق والقمر (١)  
تحكي أفاعيله في كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر  
قال : فأجازهم وفضل ابن وهيب (٢) .

ومن كلام أبي الوليد الشقندي يفاخر ابن المعلم الطنجي من بر العدو  
ببلده الأندلس (٣) :

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالآقاحي ،  
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخد بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن يأتي به  
في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكيله في الأفكار حديداً ،  
فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، وهو  
ابن الزقاق حيث يقول :

وأغيد طاف بالكئوس ضحا وحثها والصباح قد وضحا  
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحها  
قلت وأين الآقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا  
فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضحا  
وقوله :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح  
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح  
قلت ما ذنبها فقال مجيباً سرقت حمرة الخدود الملاح  
وفي مصر قامت دعوة لتجديد الشعر تتمثل في الشعراء الثلاثة : شكري  
والمازني والعقاد .

(٢) ديوان المعاني - ١ - ٢٨ .

(١) أبو إسحاق : كنية المعتصم .

(٣) نفح الطيب - ٢ - ١٤٤ .



وهي دعوة معتدلة لا تعقّ الشعر العربي ولا تمسخه ولا تنسك ما يجب أن يتوافر له من جمال الصياغة وعذوبة الموسيقى ، ولكن تنسك على الشعراء أن يتشبّثوا بالأساليب القديمة ، والأغراض القديمة ، ويحافظوا على سلفية الشعر في أوزانه وقوافيه وأخيلته .

ونرى لحافظ صبيحة في هذا المعنى يقول فيها — يخاطب الشعر — :  
ضعت بين النهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يا بنى المعالي  
ضعت في الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمة مكسال

.....

عشت ما بينهم مذالاً مضاعاً وكذا كنت في العصور الخوالي (٢)

.....

إلى أن يقول :

آن يا شعر أن نفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال  
فارفعوا هذه الكأثم عنا ودعونا نشمّ ربح الشمال

ويقول مخاطباً شوقي في حفلة مبايعته أميراً للشعراء :

وقفنا على النهج القويم فإننا سلكنا طريقاً للهدى غير مهيع  
ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة بهند ودعد والرباب وبوزع  
وملأت بنات الشعر منا مواقفاً بسقط اللوى والرقتين ولعلع  
وأقوامنا في الشرق قد طال نومهم وما كان نوم الشعر بالمتوقع  
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل نُغنى بأرماح وبيض وأدرع  
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى لشيء جديد حاضر النفع ممتع

(١) المذال : المهان .



إلى أن يقول :

فإن كنتَ قَوَّالاً كريماً مقالُهُ فقل في سبيل النيل والشرق أودع  
على أنه يجب أن نلزم جانب الاعتدال والاتزان في التجديد فلا ننطلق  
كالمهر الأرن نحطم بنية الشعر ، ونطمس ألفاظه ، ونؤثر الأساليب المهلهلة  
والموسيقى الشاحبة ، ونهيم في أودية من الخيال الجامح الأرعن الذي لا تحده  
حدود ولا تمسكه شكائهم .

ونرفض كل تعبير قديم ، ونعرض عن كل أسلوب تاريخي غابت عن  
بيئتنا حقيقته وخفى علينا أصله ، فإن هناك نوعاً من التعبيرات والمجازات  
تبين عن تاريخ الأمة وحياتها في طور من أطوارها ، فيشيع استعماله ويشتهر  
معناه حتى يفهمه السامع من غير حاجة إلى تفكير وتدبر أو بحث وتمعن ،  
وإنما هي تعابير أصبحت تقاليد سارت في الأمة أو « كlišيات » اصطلاح  
عليها ، فلا عيب إذن في استعمالها ، ولم يتخرج أى أديب من الاستعانة بها .  
ولغات الأمم الأخرى حفظت كثيراً من عاداتها القديمة وتاريخها في  
تعابيرها ولم تغيرها ولم تجددوها .

يقال في الإنجليزية لمن يبالغ في كلامه : ينزع في القوس الطويلة .

وفي تقدير المسافة : على رمية سهم .

ويقال في الفرنسية — لمن يتوسل إلى غاية بكل وسيلة — : يبرى سهاماً

من كل خشب <sup>(١)</sup> .

ولا تزال الكلمة الماثورة « ألقى بدلوه في الدلاء » حية ناضرة في  
تعبيراتنا الحديثة .

وقد استعملها الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية المصرية في

---

(١) التجديد في الأدب المصرى الحديث — ٧٨ — ٧٩ للاستاذ عبد الوهاب حمودة .



خطابه العظيم الذى ألقاه فى الدورة السادسة للأمم المتحدة بباريس فوقعت موقعها غير نائية ولا قلقة <sup>(١)</sup> .

إن التاريخ يبين أن الفن يتغير من حين إلى حين ، وأن تغيراته تقابل تغيرات الأخلاق والحالة الاجتماعية واللغات وحتى أشكال الحكم والسياسة ، ولكن هيهات أن يبرهن التاريخ على أن هذه التغيرات تنطوى حتما على شيء من الانحطاط فى الحاضر أو فى المستقبل ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك ونسأل : ما هى علامة التقدم فى كائن شاعر ؟  
هى أن يستطيع بوصوله إلى درجة أرقى أن يشعر بإحساسات وانفعالات جديدة دون أن يفقد قدرته على الشعور بما فى انفعالاته القديمة من جميل أو عظيم .

وهذا بعينه ما يتم للإنسان الحديث فيما يتعلق بالانفعالات الفنية ؛ فنحن على تذوقنا فن العصر الذى نعيش فيه والوسط الذى نضطرب فيه نظل قادرين على الإعجاب بأفكار وآثار عصر مضى .

صحيح أن كل فن لا يمكن أن يعيش مرة أخرى فى وسط جديد على نحو ما عاش فى الوسط القديم ولكن ليس معنى هذا أنه سيموت .  
إن روائع الآثار الفنية ينهض بعضها إلى جانب بعض كذرا عالية لا يستطيع جديدها أن يسحق قديمها <sup>(٢)</sup> .

فالتجديد إذن شيء واجب ، لأنه أمانة الحياة وعنوان سير القافلة إلى الأمام ولكن لا يصح أن يكون من هذا النوع :

تُشع بك الخواطر عن نفوذ أشعة إكس فى معنى ومبنى

\*\*\*

(١) انظر الصحف الصادرة فى ١٧ / ١١ / ١٩٥١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٩٢ - ٩٣



وابسِمى للقلوب تعبدك جهرا إنما أنت كالإله الوديع

\* \* \*

شأنها كالعنصر الرد يوم في بأس وسحر

\* \* \*

مثل وحى مجنح مر غنو جا من الريش في مقلتين حيا  
ساكبا فيهما من الليلة القمراء م أم تاركا من الريش شيئا

\* \* \*

أنا ثروة كالآية عمقا وكالغيب

\* \* \*

تتكى رحمة العلا بين جفنيه م انكاء السنا بحضن البرية<sup>(١)</sup>

\* \* \*

أما حبي فهو ذاك الشذا كأنه طيف الهنا الأزرق

والدكتور ناجى من المجددين المعتدلين ، ولكننى قرأت له وصفا غريبا  
لطيف ابتسامة الراقصة ، سامية جمال ، عجبت كيف يصدر منه ، وهو : ألا  
تعجبك هذه الثنايا التى تشبه أقداما صغيرة جميلة فى حلبة مضيئة<sup>(٢)</sup> ؟

أى علاقة بين الثنايا والأقدام الصغيرة ؟ وكيف تشبه الثنايا بالأقدام  
وإن كانت أقدام ملائكة لا أقدام خير ؟

---

(١) الضمير للمسيح عليه السلام . (٢) مجلة الكواكب عدد - ٣١ ص - ٤٤

( م ١٧ - فن التشبيه - > ٢ )



## الفصل التاسع عشر

### التشبيه المؤكد والاستعارة

يلاحظ المتبع لما أورده البلغاء القدامى من أمثلة التشبيه المحذوفة الأداة والاستعارة أن كثيراً منهم يخلط بينهما .

فالعسكري<sup>(١)</sup> جعل من باب الاستعارة قوله - تعالى - «هَنِّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهَا» .

حقيقته : تماس المرأة زوجها وزوجها يماسها .  
والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسه .  
ثم يقول : ويحتمل أن يقال : إنهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامان ، فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس ، فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة .

وكذلك عدَّ من الاستعارة قوله - تعالى - : «وقدِمنّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» .

حقيقته : أبطلناه حتى لم يُحصل منه على شيء .  
وقوله - تعالى - : «أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيلاً لأولادنا وآخرنا» .

حقيقته : ذا سرور .  
والاستعارة أبلغ لأن العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند

---

(١) الصناعتين - ٢٥٩ وما بعده .



الصغير والكبير ، فتضمن من معنى السرور ما لا تتضمنه الحقيقة .  
وقول على — ض — : السفر ميزان القوم ، والعلم قفل ، ومفتاحه  
المسألة ، والحلم والآفة تؤمان نتيجهما علو الهمة .  
وقول معاوية — ض — : العيال أرضة المال <sup>(١)</sup> .  
وفي بعض الروايات : العيال سوس المال .  
وقول أكتف بن صيفي : الحلم دعامه العقل .  
وقول العرب : هذا رأس الأمر ووجهه ، وهذا جناح الحرب وقلبها ،  
وهؤلاء رموس القوم وجماجهم وعيونهم ، وفلان ظهر فلان ، وهم لسان  
قومهم ونابهم وعضدهم .  
وهذه سره الوادى ، وبابل عين الأقاليم ، وهذا أنف الجبل وبطن  
الوادى .

وقول العلماء : هذا ميزان القياس .  
حقيقته : تعديل القياس .  
والعروض : ميزان الشعر .  
حقيقته : تقويمه .  
وعد من الاستعارة أيضاً قول أبى تمام :  
صفت مثلاً تصفو المدامُ خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله  
ويقول ابن رشيق فى قول ذى الرمة :  
أقامت به حتى ذوى العود والتوى وساق الثريا فى ملامته الفجر  
وفى بعض الروايات : حتى ذى العود فى الثرى  
استعار للفجر ملاءة وأخرج لفظه مخرج التشبيه <sup>(٢)</sup> .

---

(١) الأرضة : دوية قارضة . (٢) العمدة — ١ — ١٨١ .



وهو استعارة عند ابن سنان الخفاجي ، ونص قوله : لأن الفجر لما غطي الليل ببياضه وشمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى ، وعبر بطلوع الثريا وقت الفجر : بأنه لفها في ملامته ، وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة <sup>(١)</sup> .

ويقول ابن رشيق في بيت أبي تمام :

والله مفتاح باب المعقل الأشب

جعل اسم الله — تعالى — مفتاحا !

وأى طائل في هذه الاستعارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة ! وإن كنا نعلم إنما أراد أمر الله وقضائه <sup>(٢)</sup> .

ويقول : واسترذل قول بعض المولدين :

اسفرى لى النقاب يا ضرة الشمس

أتراه ظن : أن الضرة لا تكون إلا حسنة ، وإلا فأى وجه لاختياره هذه الاستعارة ؟

وعدّ من الاستعارة قول المتنبي :

صدمتهم بخميس أنت غرته وسهرته فى وجهه غم <sup>(٣)</sup>

وقد فطن القاضى الجرجاني إلى اضطرابهم بين التشبيه المؤكد والاستعارة فنسّمعه يقول : وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أب نواس :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا  
ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة . وإنما معنى البيت : أن الحب مثل

---

(١) سر الفصاحة — ١١٣ . (٢) العمدة — ١ — ١٨٣

(٣) المصدر المتقدم — ١ — ١٨٦ .



ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكك عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة في مكان غيرها <sup>(١)</sup> .

ويقول ابن الأثير : رأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي — رحمه الله تعالى — قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمّر أداة ولم يفرق بينهما ، أو تأسّى في ذلك بغيره من علماء البيان : كأبي هلال العسكري والغامّي والآمدي ، على أن الآمدي كان أثبت القوم قدما في فن الفصاحة والبلاغة . وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمّر الأداة ! ثم يقول : وقد أورد ابن سنان من الاستعارة في كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرئ القيس في صفة الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكل كل  
وهذا البيت من التشبيه المضمّر الأداة ، لأن المستعار له مذكور وهو الليل <sup>(٢)</sup> .

ونحن نوافق على أن الخفاجي لم يفرق كمن سبقوه بين الاستعارة والتشبيه المضمّر الأداة ، ولكن نخالفه في أن هذا البيت من التشبيه . فالحق أنه استعارة ، وهو — فيما زعم ابن وكيع — : أول استعارة وقعت .

فاستعار لليل سدولا يرخيها — وهي الستور — وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يُردفها ، وكلـكـلا ينوء به <sup>(٣)</sup> . وكذلك عده من الاستعارة العسكري والآمدي والباقلاني <sup>(٤)</sup> .

(١) الوساطة — ٤٠ . (٢) المثل السائر — ١٥٢

(٣) العمدة — ١ — ١٧٦

(٤) الصناعتين — ٢٧٢ — الموازنة بين الطائيين — ٢٣٥ — إعجاز القرآن — ٧٤ — ٧٥



فابن الأثير وقع فيما أخذه على غيره ، وإن كان خطؤه يرجع إلى الوهم  
لا إلى الخلط والاضطراب .

على أن الخفاجي وإن خلط حيناً بين أمثلة التشبيه المؤكد والاستعارة  
كقول الوأواء الدمشقي :

فأسبلت لؤلؤاً آمن نرجس وسقت ورداً وعضت على العنّاب بالبرد  
فقد عده من التشبيه .

إلا أن قوله صريح في أن التشبيه المضمّر الأداة عنده غير الاستعارة ؛  
فقد أورد هذا السؤال حين عرض لهذا الموضوع : فإن قال قائل : ما الفرق  
بين الاستعارة والتشبيه ؟

قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن الرماني ، وهو أن التشبيه على  
أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج  
الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له في أصل اللغة .

ثم يقول على أن الرماني قال في كلامه : إن التشبيه في الكلام ، بأداة  
التشبيه .

وهو يعني : كأن والكاف وما جرى مجراهما .

وقد اعترض الخفاجي عليه في ذلك بقوله : وليس يقع الفرق عندى  
بين التشبيه والاستعارة بأداة الشبه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ  
الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعدّه أحد في جملة الاستعارة لخلوه  
من آلة التشبيه .

ومن هذا قول الشاعر :

سفرن بدوراً وانتقبن أهلةً ومسّن غصوناً والتفتن جاذراً<sup>(١)</sup>  
فالخفاجي كما ترى يفرق تفريقاً واضحاً بينهما .



ويعتق هذا الرأى جمهرة البلغاء ، ويقتضينا إشباع البحث أن نسوق آراءهم فيما يلى :

يقول عبد القاهر : إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على وجهين :

١ - أن يسقط ذكر المشبه حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته نحو : عنت لنا ظيية ، وأنت تريد امرأة .

٢ - أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به ، فتقول : زيد أسد ، وهند بر .

والوجه الذى يقتضيه القياس ، ويدل عليه كلام القاضى الجرجاني فى الوساطة ألا تطلق عليه الاستعارة ، ولكن نقول : هو تشبيه ، ونقول فى الأول : استعارة .

والفرق بينهما : أنك عزلت فى القسم الأول ، عنت لنا ظيية ، الاسم الأصيل عنه واطرحته وجعلت كأن ليس باسم له ، وجعلت الثانى ، المشبه به ، هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك مكنوناً فى ضميرك .

وليس كذلك القسم الثانى ، زيد أسد ، ؛ لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً بأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به ، وإذا سمع السامع قولك : ، زيد أسد ، و هذا الرجل سيف صارم على الأعداء ، استحال أن يظن - وقد صرحت له بذكر زيد - أنك قصدت أسداً وسيفاً .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى الأول : استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى : إنه تشبيه .

وقد عقب على ذلك بمثال بارع يتصل بالمعانى النفسية ؛ فذكر أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس كزى الملوك وزى السوق ،



فكما أنك لو خلعت عن الرجل أثواب السوقية ، ونفيت عنه كل شيء يختص بالسوقية ، وألبسته زى الملوك فأبديته للناس في صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا ، وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار واختبار ، واستدلال من غير الظاهر ، كنت قد أعرتة هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعاني التي تدل على كونه سوقية لم تكن قد أعرتة بالحقيقة هيئة الملك ، لأن المقصود من هيئة الملك أن تحصل بها المهابة في النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقية .

فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك فصدت أسداً على الحقيقة ، لم يكن الاسم قد لحقه ، ولم تكن قد أعرتة إياه إعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذه خلاصة <sup>(١)</sup> ما قاله الإمام عبد القاهر في هذا الموضوع ، على أنه لا يمنع أن يسمى القسم الأول تشبيهاً بحسب مضمون الحال لا بحسب ما يوجه ظاهره <sup>(٢)</sup> ، ويزيد على ذلك بأنه يعترف في أن إطلاق الاستعارة على مثل : زيد أسد لا يخلو من الشبهة <sup>(٣)</sup> .

ويقول الزمخشري <sup>(٤)</sup> في قوله — تعالى — : « صم بكم عمي » : فإن قلت : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟

قلت : مختلف فيه ، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لاستعارة ؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر

(١) انظر أسرار البلاغة « فصل في الفرق بين الاستعارة والتمثيل — ١٩٢ و « فصل

في الفرق بين الاستعارة والتشبيه » — ٢٦٠

(٢) المصدر المتقدم — ٩٧ (٣) المصدر المتقدم — ٢٦٢

(٤) الكشف — ١ — ٣٢ .



المستعار له ، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام .

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فأتساق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به نظيره ، قول من يخاطب الحجاج :

أسد على وفي الحروب نعامه فتخاء تنفر من صغير الصافر (١)  
وفصل الرازي تفصيلاً جميلاً مستوعباً ؛ فجعل الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما على ثلاثة أقسام :

١ - إذا سقط ذكره فهو استعارة بالاتفاق كقولك : وردت بحراً ،  
٢ - إذا لم يسقط وذكر الصيغة الدالة على المشابهة ، فهو ليس من الاستعارة بالاتفاق كقولهم : زيد كالأسد .

٣ - إذا لم تذكر الصيغة الدالة على المشابهة مثل قولهم : هند بدر ، فقد اختلفوا فيه ، والحق أنه ليس من الاستعارة .

والدليل على ذلك أن الاستعارة لتمام المبالغة ، ووجود المشبه يقدر في هذا التمام ، لأنك قد تركت شيئاً يدل على أنه ليس بأسد في قولك : زيد أسد .

ثم قفى على ذلك بتعليل نفسى من جنس ما قاله عبد القاهر وهو : أن شرط المستعار أن يحصل للمستعير منفعه على الحد الذى يحصل للمالك ، فإن كان ثوباً لبسه كما يلبس المملك ، حتى إن الرأى إذا رآه معه لم يميز بينه وبين المالك .

فإذا قلت : رأيت أسداً يفيد بإطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ، فقد وقع الاسم من الشجاعة موقعه من الحيوان المخصوص ، وانتفع المستعار له بالمستعار مثل المستعار منه .

(١) الفتخاء : اللينة الجناح .



وقولك : زيد أسد لم يقع ذلك الموقع من حيث أن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم متناولاً له ، فكان بمنزلة أن يعير المالك الرجل شيئاً ويمنعه من الانتفاع به .

ولأن الإثبات والنفي في الخبر يتوجهان إلى الخبر لا إلى المبتدأ ، فإذا قلت : زيد أسد فالإثبات يتوجه إلى إثبات الأسدية ، والتصريح بذكر زيد يمنع من أن المقصود إثبات حقيقة الأسدية له ، فحينئذ يتعين أن يكون المراد منه إثبات صفة من صفات الأسدية .

فإذا لم تجعله خبراً لكن فاعلاً كقولك : لقيني أسد ، أو مفعولاً كرايت أسداً ، أو مضافاً إليه أو مجروراً كرايت جبهة الأسد ، ومررت بأسد لم يتوجه الإثبات في هذه المواضع إلى كونه أسداً بل إلى إسناد غيره له .<sup>(١)</sup> ويقول في موضع آخر : في مثل زيد أسد : إنك ما ذكرت زيدا باسم الأسد ، بل ذكرته باسمه الخاص ، فلا جرم ليس ذلك باستعارة<sup>(٢)</sup> . ويقول ابن الأثير : التشبيه تشبيهان :

١ - تشبيه مظهر الأداة كقولنا : زيد كالأسد .

٢ - تشبيه مضمرة الأداة كقولنا : زيد أسد .

وهذا التشبيه المضمرة الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما ، وهذا خطأ محض .

ثم أخذ في توضيح المضمرة الأداة فقال : إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمرة الأداة ، قيل فيه : زيد أسد : أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمرة .

وإذا أظهرت حسن ظهورها ولم تقدر في الكلام الذي أظهرت فيه ، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه

(١) نهاية الإيجاز - ٨٦ (٢) المصدر المتقدم - ٨٢



دون المنقول ، فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه ، ومتى أظهرت أزال  
عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهذا هو  
الاستعارة .

وقد مثل لذلك بقول بعض الشعراء :

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدَّعص<sup>(١)</sup>  
فهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ، لأن تقديره : عجل قد  
كالقضيب ، وأبطأ ردف كالدعص .

وبين إirاده على هذا التقدير ، وبين إirاده على هيئته في البيت بون بعيد  
في الحسن والملاحة .

والفرق إذن بين التشبيه المضمّر الأداة والاستعارة بحسن إظهار أداة  
التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها .

وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له  
الذى هو المنقول إليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول .

وقد أورد ابن الأثير اعتراضات على هذا الموضوع تكفل بالجواب  
عنها ، وهذه خلاصتها :

١ - يقال : إن الفرق بين التشبيه والاستعارة يكون بذكر أداة التشبيه  
لا بما ذكرت ، فإذا ذكرت الأداة نحو زيد كالأسد كان تشبيهاً ، وإن لم  
تذكر كنحو زيد أسد كان استعارة .

والجواب : إذا لم نجعل قولنا : زيد أسد ، تشبيهاً مضمّر الأداة  
لستحال المعنى ، لأن زيدا ليس أسداً وإنما هو كالأسد في شجاعته ، فأداة  
التشبيه تقدر ههنا ضرورة كي لا يستحيل المعنى .

٢ - يقال كذلك : عدم تقدير أداة التشبيه في مثل :

عجل القضيب وأبطأ الدعص

---

(١) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة .



يستحيل به المعنى ، لأن القد ليس بقضيب ولا الردف بدعص على الحقيقة ، وإنما الشبه في التثني والسكر .

والجواب : أن تقدير أداة التشبيه لا بد منه في الموضعين ، وإنما حسن إظهارها في موضع دون موضع ، فعلينا أن الموضع الذي حسن إظهارها فيه غير الموضع الذي لم يحسن فيه إظهارها ، فسمينا الأول : تشبيها مضمرا الأداة والآخر استعارة ، وهي تسمية لا ثقة بهما .

٣ — يقال : إذا أجزت إضمرا أداة التشبيه وقدرت إظهارها في قولك : زيد أسد : أى كالأسد ، فنحن نضمرا أيضا المستعار له ونقدر إظهاره ، فإن الشاعر لما قال :

عجل القضيب وأبطأ الدعص

أضمرا المستعار له وهو القد والردف ، وإذا أظهر قيل : عجل قد كالقضيب وأبطأ ردف كالدعص ، ولا فرق بين الإضمارين ، فكما يسعك إضمرا أداة التشبيه في قولك : زيد أسد ، فكذلك يسعنا نحن إضمرا المستعار له في قول الشاعر .

والجواب : أننا واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز في إظهار أداة التشبيه وإضمارها ، وقد علم وتحقق أن من الواجب في حكم الفصاحة والبلاغة ألا يظهر المستعار له في الاستعارة ، وإذا أظهر ذهب ما للكلام من حسن ورونق ، فقول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

لا خفاء ما به من حسن ورونق وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له فقلنا : فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خذا كالورد ، وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد ، صرنا إلى كلام غث ، وفرق واسع بين هذين الكلامين للتأمل ، وليس كذلك التشبيه



المضمرة الآداة ، فإننا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء ،  
إذ لا فرق بين قولنا : زيد أسد ، وزيد كالأسد ، والمعول عليه في تأليف  
الكلام من المنشور والمطوم إنما هو حسنه وطلاوته ، فإذا ذهب ذلك عنه  
فليس بشيء .

هذا إلى أن ما رآه المعترض لا يستقيم له ولو نزلنا عن درجة الحسن  
الواجبة إلى درجة الجواز ، وذلك أن التشبيه في مثل : زيد أسد فيه إضمار  
واحد وهو الآداة ، ولكن في مثل بيت الشاعر المتقدم :  
فرعاه إن نهضت . . . . .

لا تضمير فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له وهو القد  
والردف ، وحينئذ يكون فيه إضماران وهما المستعار له وأداة التشبيه ، وإضمار  
واحد أيسر من إضمارين أحدهما معلق على الآخر .  
وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بينهما أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث  
يطوى ذكر المستعار له <sup>(١)</sup> .

ويقول السكاكي : واعلم أن ليس من الواجب في التشبيه ذكر كلمة  
التشبيه « الآداة » ، بل إذا قلت : زيد أسد واكتفيت بذكر الطرفين عد  
تشبيها ، مثله إذا قلت : كأن زيدا الأسد اللهم إلا في كونه أبلغ ، ولا يلزم  
ذكر المشبه لفظا بل إذا كان محذوفا ، مثله إذا قلت : أسد وأى أسد جاعلا  
المشبه به خبرا مفتقرا إلى المبتدأ كفي ، لقصر المسافة بين الملفوظ به في الكلام  
والمحذوف منه بشرائه في قوة الإفادة ، وإنما الواجب في التشبيه إذا ترك  
المشبه ألا يكون مضروبا عنه صفحا ، مثله إذا قلت : عندي أسد أو رأيت  
أسدا أو نظرت إلى أسد ، فإنه لا يعد تشبيها .

وإنما عد نحو زيد أسد وقرينه المحذوف المبتدأ : تشبيها ، لأنك حين

(١) المثل السائر - ١ : ٢ - ١٤٣



أوقعت أسدا — وهو مفرد غير جملة — خبرا لزيد ، استدعى أن يكون هو إياه ، مثله في زيد منطلق ، في أن الذى هو زيد بعينه منطلق ، وإلا كان زيد أسد مجرد تعديد نحو خيل ، فرس لا إسنادا ، لكن العقل يأبى أن يكون الذى هو إنسان ، هو بعينه أسدا ، فيلزم لامتناع جعل اسم الجنس وصفا للإنسان — حتى يصح إسناده إلى المبتدا — المصير إلى التشبيه بحذف كلمته قصدا إلى المبالغة .

وإذا عرفت أن وجود طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على غير التشبيه ، عرفت أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا فى الظاهر ، وعرفت أن نحو رأيت بفلان أسدا ، ولقيني منه أسد ، وهو أسد فى صورة إنسان ، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا ، وإن رأيت عرفت جهة الأسد ، ولئن لقينته ليلقيناك منه الأسد ، وإن أردت أسدا فعليك بفلان ، وإنما هو أسد ، وليس هو آدميا بل هو أسد ، كل ذلك تشبيهات لا فرق إلا فى شأن المبالغة (١) .

هذا كلام السكاكى وتعبيره ملتو معقد لجريانه فيه على أساليب المنطق والفلسفة ، والمعنى ليس له ولكنه أخذ من عبد القاهر قطيفة فردده كتانا وسلبه إبريزا فأحاله بهرجا ، وإن كان له شيء فيه فهو اللبس والغموض .

وخلاصة كلام عبد القاهر : أن الحالة التى يُخْتَلَفُ فى الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أو لا يسمى ؟ هى التى يقع فيها خبر مبتدا أو خبر كان وإن أو مفعولا ثانيا لباب علمت أو حالا .

والاسم إذا وقع فى هذه المواضع ، فأنت واضع كلامك لإثبات معناه ، وإن أدخلت النفى على كلامك تعلق النفى بمعناه .



وإذا كان الأمر كذلك فانت إذا قلت : زيد أسد ورأيت زيدا أسدا ، فقد جعلت اسم المشبه به خبرا عن المشبه .

والاسم يقع خبرا عن الشيء إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق في قولك : زيد منطلق ، أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل .

فإذا امتنع في قولنا : زيد أسد ، أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة ، كان لإثبات شبه من الجنس له ، وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتنبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقررره وندخله في حيز الحصول والثبوت ، وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذ كان إنما جاء ليفيده ويوجهه<sup>(١)</sup> .

هذه آراء من ذهبوا إلى أن التشبيه المضمرة الأداة ليس من الاستعارة — وهم أكثرية البلغاء ورءوسهم — وقد أوردنا ما ذكره من الفروق بينهما . وتقابلهم أقلية تعد هذا التشبيه استعارة كالتنوخى وعبد اللطيف البغدادى<sup>(٢)</sup> وغيرهما ، ولهم في ذلك حجتان :

الأولى : أن الاستعارة ليس لها آلة والتشبيه له آلة ، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه ، وما لم تكن فيه ظاهرة فهو استعارة . فمثل قولهم : زيد الأسد لا آلة فيه فوجب كونه استعارة .

الثانية : أن المفهوم من قولنا : زيد الأسد مثل المفهوم من قولنا : لقيت الأسد وأتاني أسد .

فإذا كان مفهوما واحداً في المبالغة والمجاز وقضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما<sup>(٣)</sup> .

وهناك موقف وسط بين الطرفين ، وهو موقف الخطيب وابن السبكي والعلوى : فالخطيب يقول : فالأصح أنه يسمى تشبيها .

(١) أسرار البلاغة - ٢٦٦ (٢) عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٠

(٣) السبكي - ٢٠٦ - ٢٠٧



وساق لذلك تعليلاً اتكأ فيه على كلام عبد القاهر المتقدم .  
ثم عاد فقال : ومن الناس من ذهب إلى أنه استعارة .  
وعنده أن الخلاف لفظي راجع إلى الكشف عن معنى الاستعارة  
والتشبيه في الاصطلاح ، وما اختاره هو الأقرب لما أوضحه من المناسبة <sup>(١)</sup> .  
أما ابن السبكي فقد ساق في ذلك كلاماً كثيراً وعرض لأقوال العلماء في  
هذا الشأن فأقر بعضها وفند الآخر .

وزبدة رأيه أن مثل قولنا : زيد أسد يقع على قسمين : تارة يقصد به  
التشبيه ، فتكون أدواته مقدرة ، وتارة يقصد به الاستعارة فلا تكون مقدرة  
ويكون الأسد مستعملاً في غير حقيقته ، ويكون ذكر زيد والإخبار عنه  
بما لا يصلح له حقيقة ، قرينة صارفة إلى الاستعارة دالة عليها .  
فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه ، وإن لم تقم فنحن بين  
إضمار واستعارة ، والاستعارة أولى فليصر إليها .

وهذا الذي ذكرته من تجويز الاستعارة لا يحتاج فيه إلى دليل لأنه  
بحاز سائغ ، وكما يجوز أن تقول : جامئ أسد : تريد الاستعارة ، يجوز أن  
تقول : زيد أسد .

وهذا قياس جلي .

وقد رد على من قال : بأنه تشبيه لا استعارة بقوله : وحاصل كلام  
الزمخشري والسكاكي والمصنف ومن تبعهم : أن نحو زيد أسد إنما لم يكن  
استعارة ، لامتناع حمل الكلام على الحقيقة ، وأن من شروط الاستعارة  
إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر وتناسي التشبيه .

ولا حاصل لما قالوه لأننا نقول : ليس من شروط الاستعارة صلاحية  
الكلام لصرفه إلى الحقيقة في الظاهر ، بل لو عكس ذلك وقيل : لا بد من



عدم صلاحيته لكان أقرب ، لأن الاستعارة مجاز لا بد له من قرينة ، وإن لم تكن قرينة امتنع صرفه إلى الاستعارة وصرفناه إلى حقيقته .

وإنما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة ، غير أن تلك القرينة تارة تكون معنوية حالية مثل : رأيت أسدا ، وتارة تكون لفظية مثل : زيد مخبرا عنه بالأسد ، فإنه قرينة تصرف الأسد عن إرادة حقيقته .

واستدل السبكي على رأيه بقول ابن مالك في شرح الكافية : إذا قلت : هذا أسد ففيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : تنزيه منزلة الأسد مبالغة دون أداة تشبيه وأنشد :

لسان الفتى سبع عليه سداده      فإن لم يَزَع من غربه فهو آكله  
والثاني : أن ينوى أداة التشبيه : أي زيد مثل الأسد .

وفي هذين الوجهين لا ضمير في أسد .

والثالث : أن يتأول « أسد » بصفة وافية بمعنى الأسدية ، ويجرى مجرى

ما أولته به فيتحمل الضمير ، أما إذا أشرت إلى حيوان مفترس فلا يتحمل ضميراً .

ثم يقول ابن السبكي : وهذا الذي قاله — أي ابن مالك — هو الحق الذي لا محيص عنه ، فظهر بذلك صحة ما قلناه : من أن « زيدا أسد » يصح أن يكون تشبيهاً وأن يكون استعارة بحسب المقام <sup>(١)</sup> .

ويقول العلوي : التشبيه المضمّر لا يخلو حاله من قسمين :

١ — أن يكون الكلام مسوقاً على جهة الاستعارة ، فلو قدرنا ظهور آية التشبيه لنزل قدره ولخرج من ديباجة بلاغته ، فما هذا حاله يكون من باب الاستعارة نحو قول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت      وردا وعضت على العناب بالبرد

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١

( م ١٨ — فن التشبيه — ج ٢ )



فلو أظهرت الشبه فيه وقلت : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس  
وسقت خدا كالورد . . . لكان غثا من الكلام فضلا عن أن يكون بليغا .  
٢ — أن يكون الكلام متسقا مع ظهور أداة التشبيه ، وهذا كقولنا :  
زيد الأسد ، فإنك لو قلت : كالأسد كان الكلام سديدا .

ومن هذا قيل : إن قولنا : زيد أسد هو الأحق أن يكون من باب  
الاستعارة ، وأن يكون قولنا : زيد الاسد من باب التشبيه ، لأن الكاف  
يحسن إظهارها في المعرف باللام دون المنكر .

والتفرقة بينهما : أن اللام في الأسد للجنس فكأنك قلت : زيد يشبه  
هذه الحقيقة المخصوصة من الحيوان بخلاف المنكر ، فإنها دالة على واحد  
من هذه الحقيقة ، فإذا قلت : زيد يشبه واحدا من هذه الحقيقة فلا مبالغة  
فيه فافترقا .

وقد قرر الزمخشري في تفسيره : أن قوله — تعالى — : «ختم الله على  
قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، يمكن جعله من باب الاستعارة  
ويمكن جعله من باب التشبيه (١) .

ويلاحظ أن العلوى لم يأت بشيء من عنده بل أخذ كلام ابن الأثير  
المتقدم في الحجة الأولى وكلاما لعبدالقاهر في تعريف المشبه به وتنكيره ،  
في الحجة الثانية ، ولفق بينهما ونسبهما لنفسه كما يفعل كثيرا .  
والخلاصة : أن التشبيه المضمحل الأداة لا يعد من الاستعارة عند جمهرة  
البلغاء وكبرائهم .

ما يحتمل الاستعارة والتشبيه .

وقد يرد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمحل  
الأداة معاً باختلاف القرينة .



وذلك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره ؛ فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالا .

فما جاء منه قول البحترى :

إذا سمرت أضام شمس دجن ومالت في التعطف غصن بان<sup>(١)</sup>  
فلما قال : أضام شمس دجن بنصب الشمس ، كان ذلك محمولا على الضمير في قوله : أضام .

كأنه قال : أضامات هي ، وهذا تشبيه لأن المشبه مذكور وهو الضمير في أضامات الذي نابت عنه التاء .

ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال : أضامات شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلا .

وهذا الموضع فيه دقة وغموض ، وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك أيضاً قول مہيار يمدح الصاحب أبا القاسم بن عبد الرحيم :  
إذا الصاحب استقبلت غرة وجهه بدا قر وافر وماس قضيب  
فقمر وقضيب : استعارة لعدم الحمل على ضمير متقدم .

ويجوز جعلهما تشبيها إذا قلت في غير البيت : بدا قرأ وافياً وماس  
قضيباً فيكونان حالين من الضمير في بدا وماس .

وهو طرفا التشبيه لا يمنع من الاستعارة .

وما يجب أن يعلم أن ذكر الطرفين في التشبيه المضمير الأداة لا يمنع دائماً من الاستعارة ، وإنما يوجد المنع إذا ذكر الطرفان على وجه يراد منه التشبيه<sup>(٣)</sup> .

(١) الدجن : إظلال الغيم . (٢) المثل السائر - ١٤٣ - ١٤٤

(٣) طراز المحالمة ، ٩ عروس الأفراح - ٣ - ٣٠٣



وفي ظل ذلك عدوا من الاستعارة قول ذي الرمة :  
فلما رأيت الليل والشمس حية حياة الذي يقضى حشاشة نازع  
وقول الخنساء :

ترعى إذا نسيت حتى إذا أدكرت فإنما هي إقبال وإدبار  
وجعل السكاكي والخطيب وغيرهما منها قول الشاعر :  
وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع  
وعتابك السيف .

وجعل الخطيب منها : الحديث الشريف « ... وهم يد على من سواهم » ،  
وصار زيد أسدا .

وجعل الخطيب وغيره منها قوله — تعالى — : « فجعلناها حصيداً  
كأن لم تغن بالأمس » . « فأصبح هشيماً تذروه الرياح » .  
وجعل الرماني وغيره منها قوله — تعالى — : « وآتيناهم الناقة  
مُبصرة ، وهي حال .

وجعل الرماني منها قوله — تعالى — : « سراجاً منيراً ،  
وهو حال كذلك .

وجعل صاحب مواد البيان منها قوله — تعالى — : « أزواجه أمهاتهم ،  
« نساؤكم حرث لكم » .

والحديث الشريف : « النساء حائل الشيطان » . « الشباب شعبة من  
الجنون » . « المسلم مرآة أخيه » .

وقول علي — ض — : « السفر ميزان القوم » .

وكذلك يستثنى من كلامهم ما إذا كان المشبه به المذكور خبراً عن المشبه —  
أن يكون التشبيه تمثيلاً كقوله — تعالى — : « والأرضُ جميعاً قبضته يومَ  
القيامة والسمواتُ مطوياتٌ مَطْوِيَّاتٌ يمينه » .



فإنه استعارة مع ذكر طرفي التشبيه والمشبّه به خبر .  
وقد اعترض الرازي على ذلك بقوله : لفظ المستعار لا يمكن وقوعه  
موقع الخبر ولا ما يجري مجراه كالحال في قوله - تعالى - : « ربنا أنزل علينا  
مائدة من السماء تكون لنا عيداً ،

فعيداً ليس بمستعار على ما ظنه بعضهم لوقوعه موقع الخبر .  
وقوله - تعالى - : « سراجاً منيراً ،

فالسراج ليس بمستعار لكونه حالاً جاء بعد تمام الكلام .  
فالمستعار إما أن يكون فاعلاً أو مفعولاً أو مجروراً أو مبتدأ ؛  
كقولك : الأسد مقدم .

وبالجملة يجب أن يكون أصلاً في الحديث عنه<sup>(١)</sup> .

وقد سرى الخلاف إلى قوله - تعالى - : « قالوا أضغاث أحلام ، .  
قال الزمخشري : أضغاث الأحلام : تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون  
منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان .

وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزمه ، الواحد ضغث  
فاستعيرت لذلك .

والإضافة بمعنى من : أي أضغاث من أحلام ، والمعنى : هي أضغاث  
أحلام .

وقد أوردوا عليه : أن استعارة الأضغاث للأحلام الباطلة مع ذكر  
الأحلام في الكلام ، وتقدير لفظ « هي » ، التي تفيد التعبير عن رؤيا مخصوصة  
يحصل معه ذكر المستعار له وهو مانع من الاستعارة التصريحية .

وقد أجيب عن ذلك بكلام كثير اختلط فيه الخطأ بالصواب ، وأصحّه  
ما قاله الخفاجي وقد قرره في وجهين .

(١) نهاية الإيجاز - ٨٨ .



١ - أن حقيقة الأضغاث : أخلط النبات ، وقد شبه بها التخاليط والأباطيل مطلقا سواء أكانت أحلاما أو غيرها .

ثم أريد هنا بواسطة الإضافة : أباطيل مخصوصة ، فطرفا الاستعارة : أخلط النبات والأباطيل الملفقات .

والأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما ، فلا يضر ذكرهما بالاستعارة كما إذا قلت : رأيت أسد قريش ؛ فهو قرينة أو تجريد .

٢ - أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الواقعة في الرؤيا الواحدة ، فهي أجزاءها لا عينها .

فالمستعار منه حُزَمُ النبات والمستعار له أجزاءها ، كما إذا استعرت الورد للحد ، ثم قلت رأيت ورد هند مثلا ، فإنه لا يقال فيه : إنه ذكر الطرفان .

وقال الفاضل النحرير في حواشيه : إن ذكر المشبه يمنع الاستعارة ، لأن شرطها ألا يكون مذكورا ولا في حكم المذكور ، ولا داعي إلى جعلها استعارة بل الظاهر أنه من قبيل لجين الماء<sup>(١)</sup> .

ومغزى ما تقدم : أن وقوع الاستعارة مع ذكر طرفي التشبيه المضمحل الأداة موضع خلاف بين البلغاء .

ولعل هذا يلقي ضوءا على سبب الخلط بين التشبيه والاستعارة في بعض أمثال القدماء .

ومما يتصل بهذه الشُّبُهَة شيئان :

١ - أحدهما أن ينزل ما يقع في موقع شيء بدلا عنه منزلة بدون

---

(١) انظر تفصيل ذلك في طراز المجالس - ٩ - ١٠ - ١١



تشبيه ولا استعارة ؛ وهو في الاستثناء المنقطع وما يضاهيه سواء أكان بطريق الحمل كقول الشاعر المتقدم :

تحية بينهم ضرب وجيع

أو بدونه كما في قوله : أعتبوا بالصيلم<sup>(١)</sup> .

وهو نوع مما يسمونه « التنويع » ، وحيث أطلق التنويع ؛ فالمراد به هذا كما تراهم يقولون : من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » ، فيجعلون المثال أساساً وقاعدة له .

وليس هذا من المجاز لأن طرفيه مستعملان في حقيقتهما ، ولا تشبيهاً كما صرحوا به بل التشبيه يعكس معناه ويفسده .

قال الخليل : جعل الضرب تحيتهم كما تقول العرب : كلامك القتل وعتابك السيف .

فليس المعنى : تحية بينهم كضرب وجيع ، بل إن الضرب نوع من التحية غير متعارف قصداً إلى التهمك .

فلم يرد التشبيه وإنما هو حقيقة يجعل بدل الشيء القائم مقامه فرداً منه ادعاءً ، ألا تراك لو قلت : — إن كان الضرب تحية فهو تحيتهم — كان حقيقة قطعاً ، فجعل الفرض المقدّر كالظاهر ، وهو نوع على حدة من خلاف مقتضى الظاهر<sup>(٢)</sup> .

وأيضاً فإن المقصود منه نفي ما صدر به : يعني لا تحية بينهم .

والتشبيه لا يفيد هذا المعنى .

وفي هذا يقول عبد القاهر : واعلم أنه لا يجوز أن يكون سبيل قوله :  
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه

---

(١) الصيلم : الأمر الشديد والذاهية والسيف .

(٢) طراز المجالس — ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ .



سبيل قولهم : عتابك السيف :

وذلك أن المعنى في بيت أبي تمام على أنك تشبه شيئاً بشيء جامع بينهما في وصف ، وليس المعنى في عتابك السيف : على أنك تشبه عتابه بالسيف ، ولكن على أن تزعم : أنه يجعل السيف بدلاً من العتاب .

أفلا ترى أنه يصح أن تقول : مداد قلعه قاتل كسم الأفاعي ، ولا يصح أن تقول : عتابك كالسيف ، اللهم إلا أن تخرج إلى باب آخر وشيء ليس هو غرضهم بهذا الكلام ، فتريد أنه قد عاتب عتاباً خشناً مؤلماً .

ثم إنك إن قلت : السيف عتابك ، خرجت به إلى معنى ثالث ؛ وهو أن تزعم أن عتابه قد بلغ في إيلاؤه وشدة تأثيره مبلغاً صار له السيف كأنه ليس بسيف<sup>(٢)</sup> .

ويقول الشهاب الحفاجي<sup>(٣)</sup> : وليس الشيخ « عبد القاهر ، أبا عذرة هذا كما قد يتوهمه بعض من لم يطلع على كلامهم ، بل صرح به النحاة من المتقدمين والمتأخرين ، ونقله ابن عصفور وابن الطراوة كما في شرح التسهيل لناظر الجيش .

قالوا : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين ؛ إما أن تكون إحداهما قائمة مقام الأخرى أو مشبهة بها أو هي نفسها .

فإن كانت قائمة مقامها كان الخبر ما تريد إثباته نحو قول عبد الملك ابن مروان : كانت عقوبتك عزلك ، وكأن زيداً زهير .

فالعزل ثابت لا العقوبة ، والتشبيه بزهير ثابت .

ولو قلت : كان عزلك عقوبتك : كان معاقباً معزولاً .

ولو قلت : كأن زهيراً زيد : أثبت التشبيه لزهير بزيد .

(٤) طراز المجالس - ٢٩٠ .

(٣) دلائل الإعجاز - ٢٦٦ - ٢٦٧



وقد غلط ابن الطراوة في هذا جملة من الشعراء منهم المتنبي في قوله  
يمدح سيف الدولة - وقد أهدى إليه ثياب ديباج وريحاً وفرساً معها مهرها  
وكان المهر أحسن - :

ثياب كريم ما يصون حسانها إذا نُشرت كان الهبات صوانها  
الصَّوان : ما يسان فيه الشيء .

والمعنى الذى يريده الشاعر : أنه لا يصون الثياب النفيسة ، بل إذا نشرت  
خلعها على الناس هبات لهم ، بدل أن يحفظها فى الصوان .  
ولكن جرياً على القاعدة المتقدمة يعد البيت ذماً لا مدحاً ، لأنه أثبت  
فيه صون الثياب ونفى الهبات ، كأنه قال : الذى يقوم لهامقام الهبات : الصوان .  
ولم يعدم المتنبي من يدافع عنه بما يقتضى المقام عدم ذكره .

٢ - أن يكون فى الصفات والصلات التى توصل بها ما يختل به تقدير  
التشبيه ، فيقرب حينئذ من القبيل الذى نطلق عليه الاستعارة من بعض  
الوجوه .

وذلك كقوله <sup>(١)</sup> :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريض الموت منه يرعد  
لا سبيل لك أن تقول : هو كالأسد أو هو كالموت ، لما يكون فى  
ذلك من التناقض ؛ لأنك إذا قلت : هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع  
المعروف .

ومحال أن تجعله محمولاً فى الشبه على هذا الجنس أولاً ، ثم تجعل دم  
الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه  
دليل على أنه دونه ، وقولك بعد : دم الهزبر من الأسود خضابه ، دليل  
على أنه فوقها .

(١) البيت : المتنبي يمدح محمد بن شجاع الطائى .



وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ، ثم تجعل الموت يخافه وترتعد منه أكتافه .  
وكذا قوله <sup>(١)</sup> :

سحاب عداني سيله وهو مُسبل      وبحر عداني فيضنه وهو مفعم  
وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا      وموضع رحلي منه أسود مظلم <sup>(٢)</sup>  
إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت : هو كالبدر ، ثم جئت تقول :  
أضاء الأرض شرقا وغربا وموضع رحلي ، مظلم لم يضيء به ، كنت كأنك  
تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال .  
ولأنما أردت أن تثبت من الممدوح بدرأ مفرداً ، له هذه الخاصية  
العجيبة التي لم تعرف للبدر .

وهذا إنما يأتي بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال : هل سمعت  
أن البدر يطلع في أفق ، ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التي هي معرضة  
له وكائنة في مقابلته ، حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها  
قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ! ومعلوم بُعد هذا من طريقة البيت .  
فهذا النحو موضوع على تخيل أنه زاد في جنس البدر واحداً له حكم  
وخاصة لم تعرف .

وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعاً لإثبات الشبه بينه وبين  
البدر ، ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر  
لم تعرف تلك الصفة فيه للبدر .

وكما يمتنع دخول الكاف في هذا النحو ، يمتنع دخول كأن وحسب  
وخال وظن .

والسر : أن هذه الأدوات تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثاني أمراً

(١) البيت للبحرئى يعانب الفتح بن خاقان .

(٢) الرحل : المسكن ومتاع المسافر ، ورواية الديوان : رجلى .



معقولا ثابتاً في الجملة ، إلا أنه في كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسب مشكوك فيه كقولنا : كأن زيدا منطلق ، أو مجازاً يقصد به خلاف ظاهره ، نحو كأن زيدا أسد .

فالأسد على الجملة ثابت معروف ، والغريب كون زيد إياه ومن جنسه . والنكرة في نحو هذه الآيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شيء لا يعرف ولا يتصور .

وإذا كان كذلك كان إدخاله كأن وحسبت عليه كالقياس على المجهول (١) . هذا ما قاله عبد القاهر في هذا الشأن ، ولا مريية أنه فلسف البحث وركب فيه سبيل العقل حتى الغاية ، ولا يظن أن الشاعرين : المتنبي والبحتري جال بخاطرهما شيء مما ذكره .

وقد اعترض عليه فعلاً فقيلاً في بيت المتنبي : يجوز أن يقال ذلك بعد التصريح بالأداة في الموضعين على أنه إضراب عما يفيد التشبيه من أنه أنقص من المثل به .

وفي بيت البحتري بأن كل هذا لا يمنع أن يقال : هو كبدر بهذه الصفة على نحو ما سبق في تشبيهه فخم فيه جمر موقد يبهر من المسك موجه الذهب تشبيهاً خيالياً .

ويمكن أن يجاب عن ذلك : بأن عبد القاهر لا يدعى الاستحالة العقلية حتى يمتنع هذا التقدير أو نحوه (٢) .

---

(١) بنية الإيضاح للاستاذ عبد المتعال الصعيدي - ٣ - ٩٩ - ١٠٠



## الفصل العشرون

### بلاغة التشبيه وقوته

قدمنا أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجه الشبه .

والمذكور الأداة يسمى : مرسلًا ، لأنه أرسل من التأكيد المستفاد من الأداة .

والمحذوف الأداة لفظًا يسمى : مؤكدًا ، سواء أكانت الأداة مقدرة في نظم الكلام كقوله - تعالى - : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » .

أو لم تكن مقدرة في نظم الكلام بل محذوفة معنوية ، بأن جعل المشبه به محمولًا على المشبه مبالغة نحو : محمد أسد .

ووجه المبالغة فيه : أنه يشبه الاستعارة ظاهراً ، بل قد عدّه بعضهم استعارة كما تقدم والجمهور على خلافه .

والفرق بين المحذوف المنوي والمحذوف المقدر : أن المتروك إذا اقتضاه إعراب الكلام يسمى : محذوفاً مقدراً في نظم الكلام ، وإن اقتضاه جانب المعنى دون اللفظ يسمى : محذوفاً منوياً ، فحينئذ إن صح تقديره في النظم قدر في الكلام وإلا فلا ، لئلا يختل نظم الكلام (١) .

والمذكور الوجه يسمى : مفصلاً ، وما حذف وجهه يسمى : مجملاً كما سبق ، والسبب في ذلك واضح .

---

(١) الأقصى القريب - ٢٠٥



وعندهم أن التشبيه يتفاوت في المبالغة قوة وضعفاً باعتبار ذكر هذه الأركان كلها أو بعضها .  
فما ذكرت فيه الأركان جميعاً — وهو المرسل المفصل — يعد خالياً من القوة .

وما حذف وجهه — وهو المجمل — يحتوى على بعض القوة ، من حيث تعميم المشابهة بحسب الظاهر .  
وما حذفت أدواته — وهو المؤكد — يحتوى على قوة أكثر ، من حيث جعل المشبه كأنه نفس المشبه به ، وما حذف فيه الوجه والأداة — وهو المجمل المؤكد — يعد أقواهما لاجتماع القوتين فيه ، وهو المشهور عندهم باسم « البليغ » .

وليس المراد بالبليغ هنا ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ، فإن المبتذل قد يطابق مقتضى الحال لسوء فهم السامع ، ولكن المراد ما يتخاطب به أذكاء البلغاء ويستحسنونه فيما بينهم <sup>(١)</sup> .

### صور البليغ .

ويأتى البليغ عندهم على الصور الآتية :

- ١ — أن يقع خبراً سواء أكان مع ذكر المشبه نحو : محمد أسد .  
أو مع حذفه ، كقوله — تعالى — : « صمُّ بكم عَمَى فَمِمْ لَا يَبْصُرُونَ ، أَيْ هُمْ : صَمُّ بكم عَمَى ، أو المنافقون : صم ..... »  
ويحوز أن يجعل المشبه به مبتداً نحو الأسد زيد ، لأن المبالغة في التشبيه تدور على دعوى الاتحاد ، وجعل المشبه به مبتداً مثل : زيد أسد ، وجعله خبراً ، سيان في ذلك <sup>(٢)</sup> .

---

(١) مواهب الفتح — ٣ — ٤٥٦

(٢) تقرير الأنبا بى على حاشية البنائى ج ٤ — ص ٩



- ٢ - أن يقع مفعولا ثانيا في باب « علمت ، نحو : علمتك أسدا .  
 ٣ - أن يقع صفة ، نحو : مررت برجل أسد .  
 ٤ - أن يقع مصدرا مبينا للنوع كقول الحسن بن مطير :  
 ✓ يَمْنِينَا حَتَّى تَرِفَ قُلُوبُنَا رَفِيفَ الْخُزَامِيِّ بَاتَ طَلٌّ يَجُودُهَا  
 ٥ - أن يقع حالا نحو : غرد تغريد البلب .  
 ٦ - أن يقع مبينا للمشبه ، كقوله - تعالى - : « فكلوا واشربوا حتى  
 يتبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر » .  
 ٧ - أن يقع مضافا إلى المشبه ، نحو : عقيق الشفق ، وسندس الخضرة  
 وثوب العافية ، وما إلى ذلك .

### قيمة التشبيه البليغ .

وقد احتفل النقاد بالتشبيه البليغ وأفاضوا في بيان مزاياه . فعبد القاهر  
 يقول في بيت المتنبي :

بَدَتْ قُرَا وَمَالَتْ خُوطُ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبَرَا وَرَنْتَ غُرَا لَا  
 فَمَنْ يَزْعَمُ مِثْلًا أَنَّهُ فِي تَقْدِيرٍ مَحْذُوفٍ ، وَأَنْ مَعْنَاهُ الْآنَ كَالْمَعْنَى إِذَا قُلْتَ  
 بَدَتْ مِثْلَ قُرٍ ، وَمَالَتْ مِثْلَ خُوطٍ بَانَ إِلَخَ ، أَفْسَدَ الشَّعْرَ وَخَرَجَ إِلَى شَيْءٍ  
 مَغْسُولٍ ، وَإِلَى كَلَامٍ عَامٍ مَرْدُودٍ ، وَخَرَجَ إِلَى الْغَثَاثَةِ وَإِلَى شَيْءٍ يَعْزَلُ  
 الْبَلَاغَةَ عَنْ سُلْطَانِهَا ، وَيَخْفِضُ مِنْ شَانِهَا ، وَيَصْدُ أَوْجَهَنَا عَنْ مَحَاسِنِهَا ، وَيَسُدُّ  
 بَابَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا وَبِلَطَائِفِهَا عَلَيْنَا <sup>(١)</sup> .

ويقول في قول المتنبي أيضا :

✓ غَضِبَ الدَّهْرُ وَالْمُلُوكُ عَلَيْهَا فَبَنَاهَا فِي وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَالَا  
 قَدْ تَرَى فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ حَسَنَهُ أَجْمَعَ فِي أَنْ جَعَلَ لِلدَّهْرِ وَجْنَةً ،



وجعل البنية خلا ، وليس الأمر على ذلك ، فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام مخرجه الذي ترى ، وأن أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله : « فبناها » .

أفلا ترى أنك لو قلت : وهي خال في وجنة الدهر لوجدت الصورة غير ما ترى (٣) ؟

ويقول عز الدين بن عبد السلام : وإنما كان هنا التشبيه بليغا ، لأنك قد تشبه شيئا بشيء لا اشتراكهما في وصف واحد ، فإذا أردت المشابهة في جميع الوجوه والصفات أسقطت أداة التشبيه ، حتى كأنه هو من غير فرق بينهما .

وكذلك قد يكون المشبه دون المشبه به في الصفة ، كقولك : زيد كالأسد ، وعمرو كالبحر ، فإذا أردت المبالغة في وصف الشجاعة والكرم قلت : زيد الأسد وعمرو البحر .

ومثله قوله — تعالى — : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل » .

وقوله — سبحانه — : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين » .

ويقول : والعرب إذا شبهوا جرما بجرم أو معنى بجرم ، فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيها حقيقيا ، وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيها مجازيا ، ولذلك أمثلة منها قوله — تعالى — : « وما جعل أديابكم أبناءكم ، أي مثل أبنائكم في تحريم حلائلكم » .

وقوله عز وجل — : « أو نتخذهم ولدا ، أي مثل ولد » .

ومثله قول الناس في مخاطبتهم : أنا عبدك وملكك . أنت سمعي وبصري



ومثله قوله — صلى الله عليه وسلم : — « أنت ومالك لأبيك » .  
وفي هذا الحديث مجاز من وجهين :  
أحدهما : تشبيههما بما يملكه الأب .  
والثاني : أنه أمر بلفظ الخبر ومعناه : نزل نفسك ومالك من أبيك  
منزلة المملوك من المالك ، وهذا كله يسمى : التشبيه البليغ <sup>(١)</sup> !  
ويرجع أهل الرمز حذف أحرف التشبيه إلى قانون الصفاء في الشعر ،  
بحيث يمتزج المشبه بالمشبه به ويتحدان ، فيستحيل كل منهما إلى الآخر ، ويتاح  
للقسم الثاني من التشبيه أن يأتي أشهر من الأول بما يثيره في النفس ، ولما  
كان المشبه به أجل وأدق وكان مشتملا على مزايا شعرية أرحب من مزايا  
المشبه بلغ الشعر بذلك غايته ، أى بإسقاط أحرف التشبيه ، وجعل  
المشبه نفس المشبه به ، فالشئ يصبح شيئا شبيها بنفسه ولكنه غير نفسه ،  
إذ يتحول إلى رمز يثيره ويؤمى إليه ويوحى إياه  
وأدوات التشبيه : كأن والكاف ومثل وسواها تترك قسمي المعادلة  
التشبيهية متفرقين بينما يوحدهما حذفها <sup>(٢)</sup> .

### رأينا في التشبيه البليغ .

هذه آراؤهم في التشبيه المحذوف الأداة والوجه ، وإن كان أكثر كلامهم  
في المحذوف الأداة .

ونحن لا ننكر قيمة هذا التشبيه ولا نجحد مزيته ، ولكن يجب أن  
نحترس في قبول هذه الآراء ، فليس كل ما ورد من هذا النوع يعد بليغا  
في نظرنا .

وليس يكفي أن يقع التشبيه محذوف الأداة أو محذوف الأداة والوجه

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز — ٦٤

(٢) الرمزية والأدب العربي الحديث — ١٦٠ — ١٦١ .



معا ليستحق أن يوصف بأنه بليغ ، فالحق أن البلاغة شيء وراء ذلك كله .  
والحق أن كثيراً من التشبيهات المرسلة المفصلة أجمل وألطف وأبرع من  
بعض هذه التشبيهات التي يسمونها بليغة نجرد أنها مؤكدة بجملة .

ولسنا مع هذا نتعمى عما يفيد هذا التشبيه من التوكيد والتعميم ،  
وإسباغ معنى الاتحاد على طرفيه ، ولكن ذلك وحده لا يجعله جديراً بهذا  
الوصف السامي الرفيع ، فهناك اعتبارات أخرى كثيرة تعلو على هذه النظرة  
الضيقة ، وهي التي يجب أن ينظر فيها إلى التشبيه ، ويوزن حسنه بها ، فإن  
توافرت له مع خصيصة لتقرير والشمول كان جامعاً بين الحسنين ، وكان  
رجحانه في ميزان النقد راجعاً أكثر إلى المزية الأولى .

وقد فطن المتأخرون من البلغاء — مع انسياقهم وراء التقليد — إلى أن  
بلاغة التشبيه غير التوكيد والإجمال ، فسمع الدسوقي يقول : بلاغة التشبيه  
منظور فيها إلى كونه بعيداً غريباً سواء أكان وجه الشبه تركيب من أمور  
كثيرة أولاً ، وسواء ذكرت الأداة أو حذفت .

وإطلاق البليغ على التشبيه الذي حذفت أدواته إطلاقاً شائعاً ، طريقة  
لبعضهم وإلا فهو يسمى مؤكداً (١) .

هذا هو الحق الناصع ! ومن الممكن أن نعتبر التشبيهات كالحلل  
والمعارض التي يراعى في اختيارها ألوان الحسان ، وتفصل على مقادير  
أجسامهن ، فهذه حسناء يناسب لونها الأزرق أو الأحمر مثلاً .

وهذه بدينة أو نحيفة أو طويلة أو قصيرة يشاكل قدها تفصيل خاص  
والغرض من ذلك تجلية المحاسن وإبراز المفاتن ، وموازاة ما عسى أن يكون  
من عيوب .

وكذلك التشبيهات يجب أن تخاط على قدود المعاني ، فلا توصف

(١) حاشية الدسوقي — ٣ — ٤٥٧ .



بالبلاغة لتأكيدها وإجمالها ، ولكن لأنها أفادت الغرض وأحسنّت الأداء عنه ، ووقعت فيها الصورة على المعنى الذى يناسبها أيا كان لون التشبيه .  
والفنون الجميلة — كما يقول تشارلتن — كلها وسائل للتمثيل والتصوير .  
وهى تكون فى غاية كمالها ، إن تشابهت وسيلة التمثيل والشئ الممثل : أى إذا كان الشئ ووسيلة تصويره فى ظروف متماثلة متشابهة ، ومن ثم كان لكل فن مجال خاص به بحكم خامته ، وإنما يبلغ كل فن درجة كماله الفنى إذا ما أحسن القيام بمهمته <sup>(١)</sup> .

ونحن نرى كثيراً من التشبيهات البليغة فى عرفهم مغسولة من هذه الصفة ، ولم ينفعها أنها جاءت على صورة البليغ ، وإلا فأى جمال بلاغى فى قول القائل مثلاً :

أنت شمس أنت بدر أنت نور فوق نور

وفى مقابل ذلك نجد أنواعاً منها حلت الذروة العليا من البلاغة لمعنى آخر غير الذى أرادوه .

فن نثر البحترى : الشكر : نسيم النعم <sup>(٢)</sup> .

فهذه البلاغة التى تعقب من الكلمات حتى لنكاد ننشقها كما ننشق نسيم النعم العطر ، لا ترجع إلى تأكيد ولا إجمال ، ولكن مرجعها إلى إصابة المحزّ وتطبيق المفصل فى المعنى .

فالصنعة غرس كريم كالروضة النضرة ، وكما تأرجح أزهار الروضة ويفوح شذاها ، فكذلك لا بد للصنعة أن تربو وتزكو فى نفس الحر النبيل فتفتق رياحينها عن هذا الشكر السائر النافع بالعبير !

وشئ آخر يعود إلى اللفظ ، وهو أنك لو جئت بكاف التشبيه فقلت :

---

(١) فنون الأدب — ١١٤ .

(٢) كان صاحب يقول فيه : إني أستحسن قول البحترى ذلك .



الشكر كنسيم النعم ، لكنت هذه الكاف فضلة نائية في موضعها ، ولطال بها الخبر عن مبتدئه طولاً فاحشاً يُخل من انسجام الصياغة .

هذا إلى أننا لا نمانع أن يكون من قصده حذف الأداة للتوكيد ، فهو لا ينافي ما أوضحناه .

وكذلك قول المتنبي :

وما الموت إلا سارق دق شخصه      يصول بلا كف ويسعى بلا رجل  
فليست البلاغة إلا في إصابة تشبيهه الموت بالسارق وترشيحه هذا  
الترشيح البليغ الواقع موقعه .

ونحن لم نر الموت وإن كنا نرى آثاره بيننا ، ولكننا لا نتمارى في أن هذه الصورة التي ابتدعها له المتنبي هي أدنى الصور إليه وأكثرها انطباقاً عليه ، وأن جمالها جاء من ناحية دقة التشبيه وطرافته لا تأكيده .

وقول علي بن جبلة في ابن حميد الطوسي :

دجلة تسقى وأبو غانم      يطعم من تسقى من الناس  
يرتق ما يفتق أعداؤه      وليس بأسو فتقه آسى  
والناس جسم وإمام الهدى      رأس وأنت العين في الرأس  
فالجمال هنا يرجع إلى جمع البيت بين ثلاثة أشياء مترابطة في ثلاثة تشبيهات ، ثم وضع كل ممدوح في التشبيه الذي يلائم منزلته ؛ فالناس كالجسم ، وأئمن ما في الجسم الرأس ، وأئمن ما في الرأس العين .

وعلى بن جبلة أخذه من قول أبي العتاهية في الرشيد :

تساس من السماء بكل فضل      وأنت به تسوس كما تساس  
كأن الكون ركب فيه روح      له جسد وأنت عليه راس  
ولكنه زاد في الشرح والترتيب .



وجاء العسكري فزاد عليهما في قوله :  
 أبشر فإنك رأس والعلا جسد والمجد وجه وأنت السمع والبصر  
 ويؤيد ما نقول ان كثيراً من التشبيهات المرسلة أو المرسلة المفصلة تأتي  
 آية في البلاغة ولا يغض منها هذا الإرسال والتفصيل .  
 وحسبنا أن أكثر تشبيهات القرآن الكريم مذكورة الأداة .

فقوله — تعالى — : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون  
 القديم » لو حذفت منه الكاف وقيل في غير القرآن : حتى عاد عرجونا قديماً  
 لفقد الكلام كثيراً من بهائه ورونقه ، وذهب منه هذا التنعيم الساحر .  
 فالكاف معقود بوجودها هنا جمال الصياغة وحسن الإيقاع .  
 وقول العباس الصولي : الأصدقاء كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها  
 رار ، يشعر بآن وجود الكاف متعين فيه ، ويكفي أن تقول : الأصدقاء  
 نار لتحكم بصواب ما قلناه ، ذلك لأن التأكيد والتعميم هنا غير مراد للقائل .  
 فليس غرضه أن يقرر أنهم نار في الإحراق والالتهاب إلى غير ذلك مما  
 يتصل بالماهية ، وإنما غرضه أنهم كالنار في شئ خاص ، وهو نفع القليل  
 منها وضرر الكثير .  
 وقول تميم بن المعز :

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر  
 والسفن تصعد كالخيول بنا في موجه والماء ينحدر  
 فكأنما أمواجه عكَن وكأنما داراته سرَر  
 لا يزرى وجود أداة التشبيه بما اشتمل عليه من تصوير طريف بهيج ،  
 ونظر لطيف نافذ في مقارنة الأشياء بعضها ببعض وانتزاع أوجه الشبه منها ،

(١) العكنة بانصم : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .



وخاصة إذا كان الانتزاع من الجوارح الإنسانية البعيدة الخطور بالبال  
كالعكن والسرر .

وقول شوقي :

وبين الهوى والعذل للقلب موقف      كخالك بين السيف والنار ثاويا  
وبين المنى واليأس للصبر هزة      كنصر ك بين النهد والردف واهيا  
يخيل إليك من وقوع التشبيه المرسل في مكانه الذى لا محيد عنه ، أن  
حذف الأداة لا يستقيم معه التشبيه .

وتأكيد مثل هذا التشبيه لا يهينف إليه حسنا ؛ لأن حسنه كله مستمد  
من غرابة تشبيه موقف القلب بالخال ، وهزة الصبر بهزة الخصر .  
وكذلك قول الشاعر يصف الفستق :

والقلب ما بين قشريه يلوح لنا      كألسن الطير من بين المناقير  
لا حاجة به إلى التأكيد والإجمال ، لأن بلاغته جملة وتفصيلا هى فى  
ابتكار التشبيه ، وحسن التأتى فى الوقوع على الوجه المناسب الذى يعتق  
الطرفان فى ظله .

نعم إن ذكر الأداة — كما يقول عبد القاهر — يقبح حيناً ، ولكن لشيء  
يتعلق بحسن الصياغة والسبك لا للخلو من التأكيد .

فالاسم المنكر خرج بالتشكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ،  
فلو قلت : هو كأسد وهو كبحر كان كلاماً نازلاً غير مقبول ، كما يكون  
قولك : هو كالأسد .

إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه ، المكاف ، فإنه تحسن فيه ، كأن ، كقولك :  
كانه أسد أو ما يجرى مجرى كأن فى نحو : تحسبه أسداً أو تخاله أسداً<sup>(١)</sup> .



وإليك بعض التشبيهات المرسلة التي بجمع بين جمال اللفظ وحسن الصياغة وجودة المعنى ، ودقة الإصابة ، بحيث تحل الصدارة في مجال التشبيه البليغ ، وإن لم تكن مؤكدة بحملة .  
فمن ذلك قول بشار :

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار  
وقول إسحاق بن خلف في صفة السيف :

ألقى بجانب خصره أمضى من الأجل المتاح  
فكأنما ذرُّ الهباء عليه أنفاس الرياح<sup>(١)</sup>  
وقول أبي نوامس يصف السفينة :

بُنيت على قدر ولائم بينها طبقان من قير ومن ألواح  
فكأنها والماء ينطح صدرها والخيزرانة في يد الملاح<sup>(٢)</sup>  
جَوْن من العقبان يبتدر الدجى يهوى بصوت واصطفاق جناح  
وقوله يمدح الفضل البرمكي :

وكنا إذا ما الحائن الجدّ غرّه سنا برق غاو أو ضجيج رقاد  
تردّى له الفضل بن يحيى بن خالد بماض الظبا أزهاه طول نجاد<sup>(٣)</sup>  
أمام خميس أرجوان كأنه قيص محوك من قنا وجياد  
وقول البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

بلونا ضرائب من قد مضى فما إن رأينا لفتح ضريبا  
هو المرء أبدت له الحادئا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا  
تنقل في خلقي سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا

(١) الهباء : ما يرى شبيها بالغبار في ضوء الشمس .  
(٢) الخيزرانة : السكان . (٣) أزهاه : رفعه .



فكالسيف إن جثته صارخاً      وكالبحر إن جثته مستثيباً<sup>(١)</sup>  
وقوله يهجو إنساناً في لسانه حبسة :

كان في فيه لقمةً عقلت      لسانه فالتوى على حنْف<sup>(٢)</sup>  
محرَّكُ رأسه      توهمه  
وقول صالح بن عبد القدوس :

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم      ويسعد الله أقواماً بأقوام  
وليس رزقُ الفتى من لطف حيلته      لكنْ جدود بأرزاق وأقسام  
كالصيد يُحرِّمه الرامي المجيدُ وقد      يرمى فيرزقه من ليس بالرامي  
وقول سعيد بن حميد :

وإنك كالدنيا ندمٌ صروفها      وتوسعها سباً ونحن عبيدها  
وقول المعز الفاطمي :

أطلع الحسن من جبينك شمساً      فوق ورد من وجنتيك أطلا  
وكان العذار خاف على الور      د ذبولاً فد بالشعر ظلا  
وقول المتنبي :

وهبت السلو لمن لامني      وبتُّ من الشوق في شاغل  
كان الجفون على مقلتي      ثياب شُققن على ثاكل  
وقول المعري :

وهواك عندي كالغناء لأنه      حسن لدى خفيفه وثقله  
وقول ميار :

وغيرك من سكنت إليه كرها      كما مكن العذار إلى المشيب

(١) الصارخ : المستغيث .

(٢) الحنف : الاعوجاج .

(٣) الشرف : المرتفع .



وقول أبي الفتح البستي :

كأنني فرس الشَّطرنج ليس له      في ظل رابطة ماء ولا علف  
وقول ابن بليطة :

صبح يلوح وشخص الليل منغمس      فيه كما غرق الزنجيُّ في النَّهر  
وقول ابن رشيق :

يا رَبِّ هَتَّانَ تنوء بثقلها      تسقى البلاد بوابل غَيْدَاقٍ<sup>(١)</sup>  
مرت فَوَيقُ الأرض تسحب ذيلها      والريح تحملها على الأعناق  
ودنت فكاد الأرض تنهض نحوها      كنهوض مشتاق إلى مشتاق  
وقد أخذَه الصفدى فقال :

سحابة قد تدلَّت      إلى الثرى باشتياق  
لو أن للأرض ثِقْلاً      تلازما للعنْـاق  
وقول ابن منقذ :

صديق لنا كالليل للنار يستر م      الدخان ويُبدى النور للمتَّـنور  
يوارى إسماءى ويبدى محاسنى      ويحفظ غيبى فى مغيبى ومحضرى  
وقول ابن حجلة المغربي :

كان ضباب الأفق ندَّ سرت به      نسيم الصبا من نحو أرض الأحبة<sup>(٢)</sup>  
كأن الصَّدا بين الجبال متيم      ولم يبق منه غيرُ صوت وأَنَّة  
وقول شاعر فى وصف العقَّـق :

إذا بارك الله فى طائر      فلا بارك الله فى العقَّـق<sup>(٣)</sup>

(١) الغيداق : الغزير المطر . (٢) الند : الطيب أو العنبر .

(٣) العقَّـق : طائر أبلق يشبه صوته العين والقاف .



طويل الذنابي قصير الجناح متى ما يجد غفلة يسرق

يقلب عينه في رأسه كأنهما قطرتا زئبق

وقول مجير الدين بن تميم :

وكأنما النار التي قد أوقدت ما بيننا ولهيبها المتضرم

سوداء أُحرق قلبها فلسانها بسفاهة للحاضرين يكلم

وقول ابن عطية :

بنينا ندير الراح في شاهق ليلا على نعمة عودين

والنار في الأرض التي دوننا مثل نجوم الجو في العين

فياله من منظر موزق كأننا بين سماءين

وقول شاعر :

أخى قم فعاوني على نتف شيبة فإني منها في عذاب وفي حرب

إذا ماضى المنقاش يأتي بها أت وقد أخذت من دونها جارة الجنب

كجان على السلطان يحزى بذنبه تعلق بالجيران من شدة الرعب

وقول آخر يصف البرق :

وتارة يبيض باستحياء كلمحة من ذى هوى مراني

أسرها خوفا من الأعداء

وقول آخر :

كأن الشقائق والأقحوان خدود تقبلن الثغور

فهايك أخجلهن الحياء وهاتيك أضحكهن السرور



وقول البارودي يصف النهر :

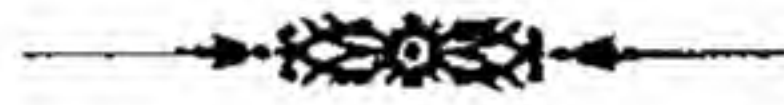
كأن الصَّبَا تُلقى عليه إذا إنبرت      مسائل في الأرقام أو تلعب النردا

وهو مأخوذ من قول ابن السِّيد :

كأنما جائل الحَبَاب به      يلعب في جانيه بالنرد

أو من قول البحترى :

كأنما غدرانها في الوهْد      يلعبن من حبابها بالنرد





## فهرس الكتاب

### الفصل الأول

#### التشابه

١٠ - ٥

ما تفيد صيغة التشبيه . دلالة ذلك من أقوال الشعراء العدول  
عن صيغة التشبيه إلى التشابه والسر في ذلك . صيغة التشابه تتحقق  
بالأفعال اللازمة دون المتعدية . أمثال طريفة للتشابه . جواز قصد  
التشبيه مع التشابه وشرح ذلك . اجتماع التشبيه والتشابه في بعض  
الأشعار . مذهب ابن السبكي في التشابه ومخالفته للخطيب وغيره .  
منزلة التشابه بين التشبيه المتعارف والتشبيه المقلوب . ما يشترط في  
التشابه . بدائع التشابه الصريح والمطوى .

### الفصل الثاني

#### تشبيه التمثيل

٢١ - ١١

تعريف التمثيل وبيان صيغته . تحقق التمثيل بتركيب الوجه  
وحده . تصوير طريف للفرق بينه وبين التشبيه الصريح . مذاهب  
العلماء في التمثيل . مذهب الجمهور . مذهب الزمخشري وابن الأثير .  
مذهب عبد القاهر . مذهب السكاكي وتمثيله له من القرآن والشعر .  
عدم تقيده بما اشترطه فيما أورد من الأمثلة واعتراض الخطيب عليه  
في ذلك . تفسير المغربي لرأى السكاكي ورفع التناقض عنه . التباس  
الوصف غير الحقيقي بالعقلي الحقيقي والحاجة فيه إلى التأمل الصادق .  
أقسام الوجه المركب والتمثيل لها ، وبيان النهج القويم في انتزاع  
الوجه منها . متى أمكن حمل التشبيه على التركيب فلا يعدل عنه إلى  
الأفراد . التشبيه المركب هو المقصود عند البديعيين . تحتم وقوع



وجه الشبه عقلياً في بعض الاحيان والتشيل له . الحاجة إلى الجملة  
كلما أوغل التشبيه في محض العقلية . الاحتراس في انتزاع الوجه  
المركب وبخاصة في العقلیات . التمثيل لما يظن خطأ أنه منزع من  
بعض الأمور المتعددة لا كلها . إيراد أمثال طريفة لذلك من  
النثر والشعر .

## الفصل الثالث .

### فصل التمثيل وتأثيره ٢٢ — ٣٧

تحريك التمثيل للمشاعر يقوم على أسس نفسية . نفور الطبائع  
من الغموض واللبس وميلها إلى الجلاء والوضوح . خلو النفوس  
في الأصل من المعارف . استفادتها المعارف الأولى من الحواس  
ووحى الطباع . ارتياحها إلى عرض المعاني العقلية في صور حسية  
واستطرافها لما يخرج من غير معدنه . قيمة التمثيل في التقريب بين  
الأشياء المختلفة وبث الوحدة بين الأشياء المتفرقة . الصور البيانية  
صور تعبيرية تلقائية وليست زخرفاً محضاً . التمثيل وتأليفه بين  
المتباينين . التمثيل ونحسب المعاني وتشخيصها . التمثيل بين الورد  
والترجس . مجيء المعاني في نسق التمثيل ومجئته رادفاً لها والتمثيل لكل  
منهما . أثر ذلك في قوة الكلام وحسبه وخلابته . التمثيل يلبس  
مختلف الصور الأدبية : الوصف . الغزل وما يتصل به . المدح .  
الهجاء . الرثاء . الفخر . الحث على الجود والكمال . الاستعطاف .  
التحسر والتوجع . العتاب . الشكوى . العزاء والتسليم . الاحتجاج  
الاعتذار . الحكم والعظات وهي أوسع أبوابه .

## الفصل الرابع

### التشبيه الحسي ٣٨ — ٥٧

تعريف التشبيه الحسي . التشبيه الخيالي ودخوله في الحسي .  
وصف طريقه للخشخاش والبطيخ . التشبيه العقلي ومقابلته للحسي .



عندهم . التشبيه الوهمي ودخوله في العقل . الفرق بين الخيالي والوهمي . طرفا التشبيه هما الحسيان دون التشبيه نفسه . مذهب الحكماء والمتكلمين في إدراك الحواس وثمرة الخلاف بينهما التشبيه عند ابن رشيق يقع على الأعراض لا الجواهر . رأى ابن الأثير وعبد القاهر في ذلك . التشبيه المحسوس طرفين ووجهها أسهل أنواع التشبيه . حاجة التشبيه الماركب إلى أعمال الذهن في فهمه . قيمة الحواس في تغذية العقل بالمعارف . إدراك الحواس للأشياء عند الجاحظ . رأى حكماء العجم في تضامن القلب والحواس . تدرج مراحل الإدراك بحسب السن . اعتماد العقل على الملتصقات الذهنية في صوغ القضايا العامة . أثر البصر في بناء الصور التشبيهية . الفرق بين وصف المشاهدة ووصف السماع . إحساسات البصر إحساسات تمثيلية عميقة الجذور الانسجام الخفي بين الإدراك البصري والأفكار . الصور البصرية لدى المكفوفين . حاسة السمع خلقت الفنون الرفيعة . قيمة الصوت الاجتماعية . اللمجة تعبير مباشر عن العاطفة . أثر الصوت الرخيم في الانفعالات العاطفية . ارتباط السمع بالعقل وفضله على البصر بدلالة الآيات . السمع والبصر والإحساسات الجمالية . رأى أفلاطون في قيمة السمع والبصر . الحواس يكمل بعضها نقص بعض . اعتماد الشعراء كثيراً على غير الإحساسات البصرية . النعوت المستعملة كثيراً في الشعر . حاسة اللمس تقوم مقام البصر . اللمس أكثر الحواس إمداداً لنا بالنعوت التعبيرية . أثر الشم في إدراك المناظر ووصفها . إدراك العرب لقيمة هذه الحاسة والنشيل لذلك من النثر والشعر . الذوق والمتع الجمالية . البلاغة عند أفلاطون . الانفعالات الجمالية ومتع الطعام والشراب . قصور إدراكات الذوق والشم بالنسبة لغيرها . أمثال طريفة في وصف المدركات الحسية المختلفة .



## الفصل الخامس

### المركب الحسى ٥٨ — ٧٠

التشبيهات الحسية المركبة مظهر لروعة الفن . شعراء الترف والأوصاف المادية . تألق الخيال الشعري في تجلية مفاتن الطبيعة وإلباسها جمالا أروع من جمالها . أمثال طريفة في ذلك من النثر والشعر . مقياس عبد القاهر في الحكم على الجمال الفنى فى التشبيهات . قصور هذا المقياس وجموده وتأثره بالظواهر . الحذر من الانخداع بالزخارف والبهارج ولعب الخيال فى الحكم على الأوصاف المحسوسة . المقياس الحق اتصال الفن بالحياة واندماج الفنان فى الطبيعة . تأييد ذلك بأمثال تقارنية . لا يغتفر الخيال الوهمى المحض فى الفن إلا إذا كان رمزاً عقلياً أو خلقياً . الفن صورة وعاطفة . فضل التشبيه أن يزيد إحساسنا بالصورة لا أن يرسمها لنا . موازنة بين تشبيه امرئ القيس للشحم وتشبيه ابن المعتز لللال . التشبيهات القرآنية والنبوية متحققة الوجود فى الخارج . إيراد بعض الصور البيانية النابضة بروح الفن . وصف زورة المحبوبة ليلا . وصف البرق . وصف السفن تصوير عواطف الأزهار . وصف الموز وصفاً مستوعباً زائراً بالحياة .

## الفصل السادس

### الهيئات والحركات فى المركب الحسى ٧١ — ٨١

أبداع أنواع المركب الحسى . المعانى المحسوسة بطبيعتها غير قابلة للإغراق والتمويل . حسية المعانى تحد من الخيال وتقيد اللفظ . تباين المعانى العاطفية فى قوتها وضعفها وخودها واضطرابها . عدم القدرة على قياس حدتها وتحديد درجتها . صلاحية الألفاظ الضخمة والكلمات الطنانة والمقاطع الصارخة لها أكثر من غيرها . ملائمة



الحركات للألفاظ في تعاقبها وانطلاقها أكثر من الأجسام الجامدة .  
ليس للألفاظ شيء من خصائص المكان وإنما تشغل جزءا من  
الزمان . الأفعال خير مجال تتجلى فيه قدرة الشاعر على التعبير .  
اختلاف الشعر والتصوير في وصف الأجسام وتمثيل الأفعال .  
وصف الأشياء المتحركة أيسر من وصفها وهي راكدة . وصف  
ابن خفاجة للجبل ووصف شاعر عصرى لصخرة جبل طارق وتحليل  
ذلك . وصف طرفة للنافذة وسر حسنه . بيان هيئة الحركة في  
المركب الحسى مع التمثيل والتحليل . اختلاف حركات الجسم من  
تركيب وغيره . الاكتفاء من الحركات المركبة بالأوصاف المهمة .  
جمال الحركات المركبة في الجمع بين الاتفاق التام والاختلاف التام .  
زيادة جمال المركبات الحسية بكثرة التفصيل والتركيب . اعتبار  
هيئة السكون في التركيب مع التمثيل لذلك .

## الفصل السابع

### تشبيهه المحسوس بالمعقول ٨٢ - ٩٥

عناية العرب بالمعاني المحسوسة وصور البيان المادية . سر  
براعتهم في الشعر دون القصص . مبالغتهم في التوضيح إلى درجة  
التجسيم والتشخيص . تشخيص النجوم والليل والوادي والجبل  
والحرب والبرد واللؤم والرحل والضغن والقلب في أشعار المهمل  
وامرى القيس والنابغة والأعشى ولييد وعمرو بن كلثوم وطفيل  
الغنوى ومعن بن أوس وأبودؤيب وأوس بن مغراء وزهير والحطيئة .  
مدرسة زهير وتلاميذه وخصائصها . صورة البيان العربى عامة إلى  
انقضاء العهد الإسلامى . وضوح البيان العربى يلائم النفس العربية  
وتعليل ذلك . تبدل صور البيان في العصر العباسى وسبب ذلك .  
نشأة الشعر الصوفى والشعر الفلسفى والحكمى . ظهور التجريد



والوهم والخفاء في الشعر . الظن بأن مسلم بن الوليد أسبق الشعراء إلى هذه الطريقة . رأى ابن قتيبة فيه . أمثال من شعره وتحليلها . إيغال أبي تمام في هذه الصناعة وسر ذلك اختلاف النقاد في شعره بين مفرط ومفرط ومتوسط . نماذج من تجسيمه وتشخيصه . أسبقيته لعصره حجبت محاسنه عن النقاد . تفتن الشباب الخفاجي إلى هذا اللون من الشعر وانصافه له نموذج من التشخيص الجميل في شعر المتنبي وغيره . إشارة عبد القاهر إلى هذا المذهب الجديد ورأيه فيه .

## الفصل الثامن

### مذاهب البلغاء في تشبيهه المحسوس بالمعقول ٩٦—١١٢

إنكار العسكري له وحجته في ذلك . حكم جمهرة المتأخرين بعدم تجويزه أصالة وتعليل ذلك ، وتأويل ما جاء منه بأنه من قلب التشبيه . تجويز الرماني له مع استقبحاحه وشرح ذلك واعتراضه على شعراء عصره . رد ابن رشيق على الرماني ودفاعه عن هؤلاء الشعراء واستحسانه لما قالوه واستدلالة على جوازها بما جاء منه في القرآن الكريم والشعر الفصيح . تجويز ابن السبكي له دون أن يعده من قلب التشبيه وردده على السكاكي والخطيب وغيرهما فيما ذهبوا إليه . رأى ابن الأثير والعلوي في أنه ألطف التشبيهات وسر ذلك جواز بعض ألوانه عند المغربي مع الشرح والتدليل . رأى غريب للتوخي في تجويز تشبيه المحسوس بالمعقول وعكسه معا أو منهما معا . سريان الخلاف بين البلغاء إلى وقوعه في التنزيل الحكيم تفصيل أقوالهم في تفسير رموس الشياطين . رأى أبي عبيدة . رأى الجاحظ وردده على أهل الطعن والخلاف . رأى المبرد وتفسيره للآية وردده على الملاحدة . رأى الاصمعي . رأى ابن رشيق واستدلالة من الشعر . رأى ابن قتيبة . خلاصة مذاهبهم وبيان الراجح



منها مع التدليل بالأمثلة . شواهد طريقة لهذا النوع من شعر المولدين . إيراد أمثلة لما يوصف بالبياض والسواد كيد موسى ولبالي الوصال ووجه الناصبي وقلب فرعون إلخ . وقوعه في شعر العصريين . أمثلة لما جاء منه في نثر الغربيين وشعرهم . دلالة هذا النوع من التشبيه واتصاله بالتفكير الفلسفي والتفنن في طرق الأدام . رأى المؤلف فيه .

## الفصل التاسع

التشبيه الرمزي ١١٣ — ١٢٦

الصلة بين الرمزية وتشبيه الصورة بالمعنى . الرمزية دخيلة على البيان العربي . الرمزية المقبولة والمردودة . حاجتنا لاستعارة صور المراثيات . ألوان من التشبيهات الرمزية وتحليلها . مذهب الرمزيين في اصطناع الغموض . الطريقة البرناسية . احتجاج الرمزيين لمذهبهم . تحطيم بعض الأخيلة لحدود الالفاظ . الابتداعيون والاتباعيون . إهمال الرمزية لأدوات التشبيه . إحساس الرمزيين بالعلاقة بين الألوان والأصوات والعطور . ما توحى به الحروف عندهم من الألوان وما ترمز إليه من الأشياء . اختلاط الحواس في التعبير معروف في الشعر العربي . التذوق بالأذن والسمع بالعين في شعر المتنبي وصدور رؤية ما لا يرى وسمع ما لا يسمع في شعر البحتري . الرؤية بعين الفطنة في شعر تميم بن المعز . سماع المعنى في شعر العقاد . الشم بالأذن في شعر صدر و بعض الاعرايبات وأبي حديدة الشاعر . البصر بالأذن في بعض كلام الدكتور طه حسين باشا . تذوق المبصرات في القرآن الكريم . كثرة الرمزية في شعر اللبنانيين والسوريين وسبب ذلك . قلة رواج الرمزية في مصر وسببها . الدكتور بشر فارس والرمزية . وثيقة الصلة بين طبيعة البلاد والرمزية .



## الفصل العاشر

### التشبيه المتعدد ١٢٧-١٤٣

الأصل في التشبيه إفراد الطرفين . عدم التعدد في تشبيهات القرآن الكريم . التعدد ضرب من المبالغة . تشبيه التسوية . تشبيه الجمع . التشبيه الملفوف والمفروق . أمثال طريقة لكل منها : تعدد الطرفين . تشبيه اثنين باثنين وإكثار الشعراء منه . تشبيه ثلاثة بثلاثة . تشبيه أربعة بأربعة . تشبيه خمسة بخمسة . تشبيه ستة بستة . تشبيه سبعة بسبعة . تشبيه ثمانية بثمانية . تشبيه عشرة بعشرة . أفضل أنواع المتعدد . تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه يكثر في شعر المولدين . المقبول من هذه الأنواع والمتكلف وما قل منه وما كثر . التمثيل لكل هذه الأنواع مع النقد والموازنة .

## الفصل الحادي عشر

### نشأة التشبيه المتعدد ١٤٤-١٤٨

السابق إلى التعدد امرؤ القيس . أول تشبيه اثنين باثنين وقع في شعره . احتذاء لبيد العامري له ثم بشار . موازنة بينه وبين بشار في تشبيهين وكلمة الحق في ذلك . تحليل بيت بشار : كأن مثار النقع . . . ذكاء المكفوفين وضرب المثل بعين بشار . سبق امرؤ القيس بتشبيه شيء بشيئين وأربعة بأربعة . مزية التشبيه المتعدد ومنزله البلاغية . نزول قيمته عن التشبيه المركب . كلمات لعبد القاهر والمغربى والحموى والعلوى في ذلك . عدم وجوب الترتيب بين أطراف التشبيه في هذا النوع .



## الفصل الثاني عشر

### القريب المبتذل والبعيد الغريب

١٥٩-١٤٩

اضطرابهم في مفهوم القرب والابتذال والبعيد والغرابة .  
رأى الخطيب . رأى الرازى . رأى عبد القاهر . رأى شراح  
التلخيص . رأى المؤلف . ليس كل قريب مبتذلا . الفرق بين القرب  
والابتذال . ألفاظ لا يعرض لها الابتذال وسر ذلك . إيراد أمثال  
للألفاظ الخالدة . المبتذلات في العربية ورأى الأستاذ ديو مبین .  
الابتذال عرض طارئ على الألفاظ . كلمة لعبد القاهر في ذلك .  
أسباب الابتذال مع التثيل له والتدليل عليه من علم النفس .  
العمليات العقلية والشعورية . جوامع تداعى المعانى وعلاقتها  
بالتشبيه . قرب التشبيه وبعده ورأى قدامة وابن رشيق .

## الفصل الثالث عشر

### قيمة التشبيه البعيد

١٧٦-١٦٠

أثر بعد التشبيه في النفس وتعليل استرواحها إليه . الاستدلال  
على ذلك من الشعر والتاريخ الأدبي . ما يتميز به الفنان العظيم من  
غيره . أمثال طريفة للتشبيه البعيد وتحليلها وبيان سر جمالها . بيان  
مقياس البعد وضبط حده مع التثيل له . البعد المحمود ينافى الغموض  
والخفاء . رأى عبد القاهر في بعد المعنى ودقته . رأى بول فاليرى  
وطه حسين في لغة الشعر . معنى التأليف بين المختلفين في التشبيه  
وشرطه . أمثال للبعيد المرغوب عنه والبعيد المخترع ندرة التشبيه  
وغرابته . أسباب البعد والغرابة . كثرة التفصيل في التشبيه وبيان  
ذلك مع الموازنة . أنواع التفصيل وارتفاع قيمة التشبيه بعظم  
حظه منها .



## الفصل الرابع عشر

### رفع الابتذال عن التشبيه

١٧٧-١٩٢

الابتذال من أمراض التشبيه العارضة . وسائل رفع الابتذال .  
عنه . مجيء التشبيه مطويا . أمثال طريفة له . قيمته عند عبدالقاهر .  
الإيحاء إلى التشبيه في كلام العرب . تقسيم الخفاجي له . تنزيل المتوهم  
منزلة المتحقق . التشبيه المشروط . ألوان مختلفة له . نقاش بين  
الآمدى والمرتضى في بيت للبحترى . خروج الشاعر عن الطرق  
المألوفة في التشبيه والتمثيل له . تصرف الشعراء في وصف الشيب  
وبيان النهج الجيد في ذلك . ألوان من التصرف في التشبيه المبتذل  
تحليل قطعة من الشعر لعمر بن أبي ربيعة وبيمان ما حوته من بلاغة  
نفسية

## الفصل الخامس عشر

### انتزاع التشبيه

١٩٣-٢١٥

قدرة البليغ على الانتزاع . الوسائل التي تعين على الانتزاع .  
مصادر الانتزاع . استفادة الخاصة من الحشوة والدهماء . الانتزاع  
من القصص الديني والاجتماعي . الانتزاع من حقائق التاريخ  
والسير . الانتزاع من الاعتقادات الشائعة . الانتزاع من عادات  
الناس والحيوان . الانتزاع من النواميس الطبيعية . الانتزاع من  
مصطلحات العلوم والفنون . رأى ابن سنان للخفاجي في استعمال  
المصطلحات العلمية والمهنية . رأيه في كتابة المعرى . رأى العلوى في  
ذلك . القدر المستحسن في استعمال هذه الاشياء . أمثلة طريفة  
لكل ألوان الانتزاع .



## الفصل السادس عشر

٢٢١-٢١٦

### شعراء التشبيه

اختلاف الشعراء في القدرة على صوغ التشبيه . براعة بعضهم في جميع ألوانه واقتصار جماعة على ألوان خاصة . زعماء التشبيه في العصور المختلفة ورأى النقاد فيهم . براعة ابن المعتز في التشبيه المحسوس . قلة الأمثال في شعره وكثرتها في شعر ابن عبد القدوس . مغالاة البلاغيين في قيمة امرئ القيس وذو الرمة وابن المعتز . زعيم التشبيه في الأندلس . فنون من الوصف عرف بها جماعة من الشعراء : طرفة . الراعي التبري . امرؤ القيس . عبيد بن الأبرص . أوس بن حجر . عبيد بن الحساس . ذو الرمة . مسعود بن عمرو الأزدي . البطين التيمي . اللعين المنقري . الطرماخ . عدي بن الرقاع . الشماخ . الأعشى . الأخطل . أبو الشيص . أبو فواس . ابن أبي ربيعة . أبو زيد الطائي . ابن أبي الصلت . أبو دواد الإيادي . النابغة الجعدي . سلامة بن جندل . طفيل الغنوي . أبو تمام . البحتري . المتنبي . ابن الرومي . الصنوبري . ابن خفاجة . ابن حمديس : السري الرفاء . محمد بن يزيد ابن مسلمة .

## الفصل السابع عشر

٢٣٦-٢٢٢

### الاشياء التي راجت في التشبيه

العيون . حظها من شعر الشعراء . العيون المحببة للعرب قبل الاختلاط بالاجانب . النوق والافتنان في وصفها . تشبيه ذراعها بذراعي المرأة . أبلغ ما قيل في وصفها . وصف الخيل على اختلاف شياتها وبديع التشبيهات في ذلك . الأسد والغزال والمهاة . العقاب



والصقر والطاوس . الورد والرجس وشقائق النعمان . وصف  
أردشير للورد . وصف أنوشروان للرجس . التفاح والرمان  
والنارنج . الشمس والقمر وتشبيه الزوجين هما . أقوال الشعراء  
في ذلك . الثريا وما شبهت به . كثرة التشبيه في الهلال . مباراة شعرية  
في وصفه . البحر والنار . منزلة النار عند العرب . الأشياء التي تشبه  
بالنار . القلم وما قيل فيه . النعل وكثرة حظها من التشبيه . تشبيهها  
بالمطايا في شعر المتنبي وغيره . العروس وإضافتها إلى كل ما يحسن .  
الأشياء التي تشبه بالعروس .

## الفصل الثامن عشر

التجديد في التشبيه ٢٣٧ — ٢٥٧

قبول صور التشبيه للتجدد . وصف السفينة في شعر طرفة  
والشيخ حمزة فتح الله وشوقي وحافظ وبيان التطور في ذلك . زرة  
العين وكرامة العرب لها وسبب ذلك . استعلاهم لها بعد الفتوحات  
الإسلامية وأمثال لذلك . استحسانهم للشعر الأصفر والأحمر  
وبخاصة في الأندلس . استحسانهم لسنن المرأة في العصور المتقدمة .  
النموذج للمرأة في عصرنا . تأثر وصف الناقة بالبيئة الإسلامية . وصف  
الندى وخضوعه لسنن الحضارة . تشبيه العيون بالخر والسيوف  
والنبال . تشبيهها بالكهرباء في الشعر الحديث . وصف البحري  
لشقائق وإعجابه بذلك . التجديد والتوليد والفرق بينهما . التوليد  
غير السرقة وغير الاختراع مع التمثيل لذلك . التوليد ينمى صور  
البيان . التجديد في الشعر المعاصر . حب النفوس للتجديد وسر ذلك .  
قيمة التجديد عند القدماء وحثم عليه . مفاخرة شاعر أندلسي  
بتجديد قومه . الدعوة إلى التجديد في العصر الحديث . وجوب  
الاعتدال في التجديد . خلود بعض التعبيرات القديمة في كل اللغات .  
التجديد الحق لا يهدم القديم . علامة التقدم في كل شاعر . أمثال  
للتجديد القبيح .



## الفصل التاسع عشر

### التشبيه المضمحل الأداء والاستعارة ٢٥٨ — ٢٨٣

خاط القدامى بين التشبيه المضمحل والاستعارة مع التمثيل لذلك .  
 فطنة القاضي الجرجاني إلى اضطرابهم في ذلك . اتهام ابن الأثير  
 للخفاجي بذلك ودفع التهمة عنه . رأى عبد القاهر في التشبيه  
 المضمحل والاستعارة وتمثيله لهما . تصوير من البلاغة النفسية له .  
 اعترافه بدقة الفرق بين التشبيه المضمحل والاستعارة . رأى الزمخشري  
 فيهما وتفصيل ذلك . رأى الرازي وإفاضته في التفرقة بينهما مع  
 التحليل بمثال نفسي . تفرقة ابن الأثير بينهما بأمثلة تطبيقية على هدى  
 النقد والموازنة . رأى السكاكي فيهما وأخذ الكلام عبد القاهر .  
 رأى الأقلية في أن هذا التشبيه استعارة . موقف المتوسطين بين  
 الرأيين . تفصيل مسهب شاف لابن السبكي في ذلك . رأى العلوي  
 واتكأه على قول عبد القاهر وابن الأثير . ما يجوز حمله على  
 الاستعارة والتشبيه مع التمثيل لذلك . ذكر طرفي التشبيه لا يمنع من  
 من الاستعارة دائما . أمثال متنوعة لبيان هذا الرأي . اعتراض  
 الرازي على ذلك وحججه . أراء العلماء في قوله — تعالى — : أضغاث  
 أحلام ، . معنى التنويع مع التمثيل له . تفصيل القول في أشياء تلتبس  
 بالتشبيه وليست منه .

## الفصل العشرون

### بلاغة التشبيه وقوته

وجه المبالغة في التشبيه المؤكد المجمل . الفرق بين الأداء  
 المحذوفة المقدرة والمحذوفة المتويزة . تفاوت التشبيه قوة وضعفا  
 باعتبار ذكر الأركان كلها أو بعضها . المراد بالتشبيه البليغ عندهم .



صور هذا التشبيه . منزلة البلاغة . رأى عبد القاهر . رأى عز الدين  
ابن عبد السلام . بيان المجاز في الحديث ، أنت ومالك لأبيك . .  
قانون الصفاء في الشعر وحذف أحرف التشبيه . رأى المؤلف في  
بلاغة التشبيه . مبالغة العلماء في قيمة التشبيه البليغ بالمعنى المتعارف .  
ليس من الحق أن يسمى بليغاً بل مؤكداً . جوهر البلاغة لا يرجع  
إلى التأكيد والإجمال . الخصائص التي تتمتع بها بلاغة التشبيه .  
متى يبلغ الفن درجة كماله . كثير مما يسمى بليغاً مفسول من البلاغة .  
تشبيهات مؤكدة ترجع بلاغتها إلى غير التأكيد . أكثر تشبيهات  
القرآن مذكورة الأداة . تشبيهات يذهب جمالها بالتوكيد . متى يقبح  
ذكر أداة التشبيه ؟ أمثال طريفة للتشبيهات المرسلة البليغة .

تم الجزء الثاني والحمد لله على نعمائه